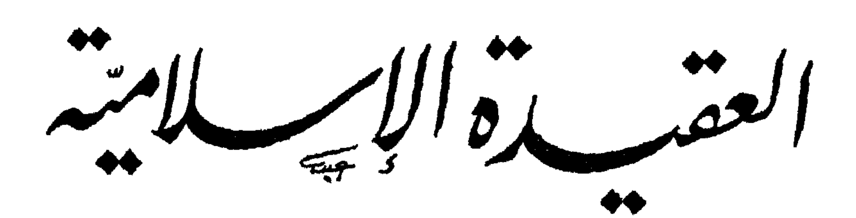
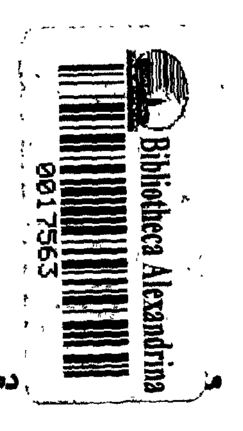
الدكتور
مصطفى الخن
كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

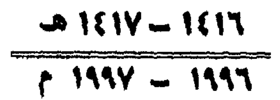
مبادئ



الطبعة التاسعة



م دمشق



الدكتور
مصطفى سعيد الخن
كلية الشريعة - جامعة دمشق

مبادئ العقيدة الإسلامية

السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، المنفرد بالايجاد والإعدام ، المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن صفات النقص ، وعن كل صفة يكون بها في حقه إخلال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المتقين وسيد المرسلين ، وحامل لواء الحمد يوم الدين ، وعلى رسل الله المصطفين المختارين ، وعلى آل محمد وأصحاب محمد اجمعين •

وبعد فمما ميّز الله به الانسان عن سائر الحيوان ، أن جعل له عقلاً يفكر به ، ويهتدي به الى ما هو الحق والصواب بتوفيق الله عزّ وجل •

والتفكير هو ترتيب الأمور المعلومة ليتوصل بها الى مجهول ، وكلما كانت هذه الأمور حقاً ، كان لا بدّ أن يصل عن طريقها الى الحق •

وكلما كانت المعرفة صحيحةوحقيقية كانت الدافع لصاحبه الىسلوك فاضل وعمل صالح ، وبه تتحقق للانسان السعادة الدنيوية والأخروية •

والانسان من بين سائر الحيوان لا يقاد بالعصا القيادة الحقيقية ولا يجرّ الى عمل ما أو نهاية ما عن طريق حبل يوضع في عنقه أو خزام يوضع في أنفه ، فينقاد ما شاء له الانقياد• بل إن الانسان يقاد من أفكاره ومن مبادئه ، ومن قيمه ومن مثله التي استقرت في نفسه ، فكلما تحولت في نفسه هذه القيم ، تحول على إثرها بشكل تلقائي كل سلوكه وتصرفاته •

ومن هذا المنطلق رأينا القرآن الكريم ينزل على رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً ، لا يعنى إلا باصلاح العقيدة ولا يهتم إلا بابرازها واظهارها ، واقامة البراهين الواضحة عليها ، حتى اذا ما اطمأن الى أن هذه المبادىء قد ثبتت في العقول والقلوب ورسخت في النفوس ، أتى بعد ذلك بالتشريع المتناول جميع جوانب الحياة فلم يلق معارضة ما في أي حكم من الأحكام ، وما إن ينزل الحكم من قبل الله جل جلاله حتى ترى المسلمين بصوت واحد وحماس واحد يقولون سمعنا وأطعنا ، اللهم قد انتهينا •

وحسبك دليلاً على ذلك ما حدث في قضية تحريم الخمر ، تلك التي كانت عالقة في نفوسهم ، مستولية على عقولهم ، فما إن نزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » فما إن نزل ذلك حتى قالوا جميعاً : اللهم قد انتهينا اللهم قد انتهينا •

ولولا ما سبق ذلك من إيمان بالله وخضوع له وثقة به لذهبت هذه الكلمات أدراج الرياح ، ولما لامست نفوسهم وقلوبهم • ومن هنا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري : « إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : والله لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبداً[1] » •

هذا ومنذ أن تأسست كلية الشريعة كان من أبرز ما كانت ترمي اليه اصلاح العقيدة ، علماً منها أن بصلاح العقيدة صلاح الانسان ، فكان من أبرز المواد المقررة فيها مادة العقيدة الاسلامية ، واستمرت العناية بهذه المادة الى يومنا هذا ،

---

(١) البخاري رقم : ٤٧٠٧ .

وستبقى هذه المادة خالدة ما أراد الله الخلود لدينه الذي ارتضـاه الله لعباده « إن الدين عند الله الاسلام » « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » .

ومنـذ سنوات أقرَّ مجلس التعليم العالي لمبـادىء العقيـدة الاسلاميـة منهجاً يدرس في السنة الثانية من كلية الشريعة . ومنذ ذلك الحين لم يوضع كتاب جامع لشرح مفردات هذا المنهاج ، فعزمت بعد الاعتماد والتوكل على الله ، أن أضع كتاباً جامعاً لمفردات هـذا المنهاج ، ولقد أجهدت نفسي أن أقدم هذه المعلومـات بشكل مبسط وموثق ، وأن أستدل على المبادىء المطروحـة للبحث بمـا جاء في القرآن الكريم وبما صح من حديث رسول الله ﷺ ، اذ هما العماد الأول في توضيح وتثبيت هذه العقائد الاسلاميـة .

والذي أرجوه مـن الله تبارك وتعالى أن أكون قـد وفقت للوصـول الى ما قصدت ، وأن يجعل ذلك العمل مقبولاً عنـده ، وأن ينفع به من يقرؤه النفـع العميم ، وأن يجعل ذلك مدخراً لي عنده الى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الجمعة ١٧ رجب سنة ١٤٠٣ هـ

٢٩ نيسان سنة ١٩٨٣ م

د. مصطفى سعيد الخن

المدرس في كلية الشريعة

في جامعة دمشق

منهج مقرر مبادىء العقيدة الاسلامية

للسنــة الثانيــة

من كلية الشريعة في جامعة دمشق

مفردات المقرر

اولا ــ المدخل والمبادىء العامة :

آ ــ تعريفات ومصطلحات : الإيمان ــ العقيدة ــ أصول الدين ــ الفقه الأكبر ــ علم التوحيد والكلام .

ب ــ مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية :

ــ التفريق بين عالم الغيب وعالم الشهادة .
ــ طريق معرفة كل منهما .

جـ ــ منهج المعرفة عند المسلمين مقارناً بالمناهج الأخرى .

د ــ العقيدة الاسلامية كما تمثلها الجيل الاسلامي الأول .

هـ ــ العقيدة ونشأة علم التوحيــد .

و ــ دراسة العقيدة الاسلامية اليوم .

ــ في ضوء القرآن الكريم ومن خلال مدارس علم الكلام .
ــ في ضوء التطور العلمي والمذاهب الفكرية الحديثة .

ثانيا ــ الله والكون والانسان :

١ ــ أدلة وجود الله تعالى ووحدانيته .

٢ ــ الصفات الإلهية : فهمها وأثرها في الكون والانسان •

٣ ــ الألوهية والربوبية ، وقانون السببية في الاسلام •

٤ ــ الله والانسان : أصل الانسان ــ التكليف والمسؤولية ــ حرية الانسان ــ مسألة القضاء والقدر • مشكلة الشرّ والآلام •

ثالثا ــ النبوة والوحي :

١ ــ حول حاجة الانسان الى النبوة : حدود العقل وضرورة الوحي •

٢ ــ طبيعة الوحي وأنواعه •

٣ ــ المعجزة وأدلة النبوة الأخرى •

٤ ــ صفات الأنبياء وعصمتهم •

٥ ــ نبوة محمد ﷺ ومكانتها من النبوات السابقة •
ــ دلائل نبوة محمد ﷺ •
ــ القرآن الكريم ووجوه إعجازه •
ــ حياة النبي كشاهد على المصدر الإلهي لرسالته •

رابعا ــ الغيب والمعاد :

١ ــ الملائكة : طبيعتهم وصفاتهم ووظائفهم •

٢ ــ الجن والشياطين : (رفض العقيدة الاسلامية في هذا الموضوع لكل من موقفي الإنكار والخرافة) •

٣ ــ الحياة الآخرة وعوالمها ، ومسؤولية الانسان أمام الله تعالى •

ــ القبر والبرزخ ــ علامات قيام الساعة ــ البعث والنشور والحشر ــ الحساب والميزان ــ الحوض والصراط ــ الجنة والنار •

خاتمة :

نظرة شاملة في خصائص العقيدة الاسلامية ومستقبلها •

القسم الأول

المدخل والمبادىء العامة

ا ــ تعريفات ومصطلحات

١ ــ الايمــان

معنى الايمــان :

الإيمان في اللغة : معناه التصديق • قال ابن منظور في لسان العرب :

واتفــق أهل العلم من اللغويين وعيرهم أن الإيمان معناه التصديق • فال الله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين [١][٢] » أي بمصدق •

الايمان في اصطلاح الشرع : التصديق بما جاء به الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام مما علم من الدين بالضرورة أو ما أشبهها من الأدلة اليقينية •

وقد فسر النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان في الحديث الطويل الذي رواه عمر بــن الخطاب رضي الله عنه عندما ســأل جبريل النبي عليه الصلاة والســلام : « قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليــوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره[٣] » •

اشتراط النطق بالشهادتين في صحة الإيمــان :

اختلفوا في اشتراط النطق بالشهادتين لصحة الإيمان •

فذهب جمهور الأشاعرة والماتريدية الى أن النطق بالشهادتــين شرط لإحراء

(١) يوسف :
(٢) لسان العرب : مادة امن .
(٣) اخرجه مسلم برقم (١) .

أحكام المؤمنين عليه في الدنيا ، من التوارث والتناكح والصلاة خلفه والصلاة عليه ، والدفن في مقابر المسلمين ، ومطالبته بالصلاة والزكاة وغير ذلك • وذلك لأن التصديق القلبي وان كان إيماناً إلا أنه باطن خفي ، فلا بدّ له من علامة ظاهرة تدل عليه لتناط به تلك الأحكام ، فمن صدق بقلبه ولم يقرّ بلسانه لا لعذر منعه ، ولا لإباء ، بل اتفق له ذلك فهو مؤمن عند الله غير مؤمن في الأحكام الدنيوية ، أما المعذور اذا قامت قرينة على أسلامه بغير النطق كالاشارة فهو مؤمن فيهما •

وأما المتأبي بأن طلب منه النطق بالشهادتين فأبى فهو كافر فيهما ، ولو أذعن في قلبه فلا ينفعه ذلك ولو في الآخرة • ومن أقر بلسانه ولم يصدق بقلبه كالمنافق فهو مؤمن في الأحكام الدنيوية غير مؤمن عند الله تعالى •

الإيمان والاسلام وما بينهما من علاقة :

لقد مرّ بنامعنى الإيمان لغة وشرعاً ، وأما الاسلام في اللغة فمعناه الاستسلام والإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء ، ومعناه في اصطلاح الشرع الامتثال والانقياد لما جاء به النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة ، أو قام عليه الدليل اليقيني ، على أنه قد جاء تفسير الاسلام في حديث جبريل « وقال يا محمد أخبرني عن الاسلام ، قال الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا » وفي حديث ابن عمر : « بني الاسلام على خمس •••[1] » فما هي العلاقة بين الإيمان والاسلام ؟

ذهب فريق من العلماء الى أن الإيمان والاسلام مختلفان مفهوماً ومتحدان ما صدقا ، أي إن لكل من الإيمان والاسلام مفهوماً يغاير مفهوم الآخر كما رأيت في تفسير ذلك في الحديث ، ومع اختلافهما في المفهوم فهما متحدان ما صدقا أي في الأفراد الخارجية ، فلا يمكن أن يطلق على انسان أنه مسلم إلا اذا كان مؤمناً ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم •

ولا يمكن أن يطلق عليه أنه مؤمن إلا اذا كان مسلماً ، وذلك كالناطق والضاحك ، فان لكل واحد منهما مفهوماً خاصاً به ، فالناطق المفكر ، والضاحك المتعجب ، ولكنهما يدلان على الانسان فقط ، فهما مختلفان مفهوماً ، متحدان ما صدقاً .

ويفهم من هذا أن القائل أراد بالإيمان والاسلام المنجي منهما . وأما اذا أريد الإيمان من حيث هو وبالاسلام كذلك ، فبينهما العموم والخصوص الوجهي ، أي يجتمعان في شيء ، وينفرد كل منهما في شيء آخر ، فيجتمعان فيمن صدق بقلبه ، وانقاد بظاهره ، فيقال عنه إنه مؤمن ومسلم ، وينفرد الإيمان فيمن صدق بقلبه فقط ، وينفرد الاسلام فيمن انقاد بظاهره فقط ، وهذا ما ذهب اليه جمهور الأشاعرة . وذهب جمهور الماتريدية والمحققون من الأشاعرة الى اتحاد مفهوميهما[1].

على أن الامام الغزالي قد أفاض في بيان العلاقة بينهما ، وأجاد فلم يترك لغيره مقالا في ذلك ، قال رحمه الله تعالى :

« الحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل التوارد والترادف ، وورد على سبيل الاختلاف ، وورد على سبيل التداخل ، أما الترادف ففي قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد ، وقال تعالى : « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » وقال ﷺ « بني الاسلام على خمس ... » وسئل رسول الله ﷺ مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس .

وأما الاختلاف فقوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فأراد بالإيمان هنا التصديق بالقلب فقط ، وبالاسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح ، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

---

(١) انظر تحفة المريد : (٢٩) .

الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره ، فقال : فما الاسلام ؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس ، فعبر بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل ، وفي الحديث عن سعد أنه ﷺ : « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر ، فقال سعد : يارسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن ، فقال عليه الصلاة والسلام : أو مسلم ، فأعاد عليه ، فأعاد رسول الله ﷺ » .

وأما التداخل فما روي ايضا عنه أنه سئل فقيل اي الأعمال أفضل ؟ فقال ﷺ : الاسلام ،فقال أي الاسلام أفضل فقال ﷺ : الإيمان » . وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل ، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة ، لأن الإيمان عمل من الأعمال ، وهو أفضلها ، والاسلام إما تسليم بالقلب ، وإما تسليم باللسان ، وإما تسليم بالجوارح ، وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً[1]» .

٢ ـ العقيدة

العقيدة في اللغة . هي ما يعقد الانسان قلبه عليه ، ثم أصبحت تطلق على ما يدين الانسان به من الأفكار والآراء التي يؤمن بها والتي تحلّ في قلبه وضميره وتنعكس على تصرفاته وسلوكه ، ومن هنا عرف بعضهم الانسان بأنه حيوان يقاد من داخله أي من معتقداته وما يؤمن به .

قال في المصباح المنير « اعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير ، حتى قيل : العقيدة ما يدين الانسان به . وله عقيدة حسنة سالمة من الشك » .

ويفهم من هذا أنه ليس من الضروري أن تكون العقيدة صحيحة لتسمّى عقيدة ، ولكن قد تكون العقيدة صالحة فتوصف بالصلاح والصحة ، وقد تكون فاسدة فتوصف بأنها عقيدة فاسدة .

---

[1] [illegible] انظر لسان العرب مادة أمن

ومن هنا ذكر في شرح جمع الجوامع : « الاعتقاد . هو الحكم الجازم القابل للتغير . طابق الواقع أم لم يطابقه . فان طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح . وإن لم يطابقه فاعتقاد فاسد[1] .

العقيدة في الاصطلاح : إن علماء المسلمين جعلوا هذا اللفظ علماً بالغلبة على العلم الذي يبحث فيما يجب على الانسان أن يعتقده ويؤمن به ، ويقيم عليه البرهان الصحيح الذي يفيد اليقين ؛ ويطلق أيضاً على نفس المبادىء الدينية التي ثبتت بالبرهان القاطع .

٣ ـ أصول الدين

الأصل في اللغة ما بني عليه غيره واستند اليه . قال في المصباح المنير .

« أصل الشيء أسفله . وأساس الحائط أصله . واستأصل الشيء ثبت أصله وقوي ، ثم كثر حتى قيل : أصل كل شيء ما يستند وجود ذلك الشيء اليه » .

وفي اصطلاح العلماء استعمل الأصل على معانٍ متعددة .

منها أنه يطلق ويراد به الراجح تقول : الأصل في الالفاظ الحقيقة أي الراجح .

ومنها أن يطلق على المستصحب . يقال تعارض الأصل والطارىء .

ومنها أنه يطلق على القاعدة الكلية تقول الأصل في الفاعل أن يكون مرفوعاً ومنها أنه يطلق على الدليل . يقال الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة[2] .
أما الدين فقد جاء في اللغة العربية على معان منها الجزاء والعادة والعبادة والطاعة والحساب والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والسيرة والتدبير

---

(١) شرح جمع الجوامع للمحلي مع حاشية [illegible] ١/ ١٠ .
(٢) انظر [illegible] [illegible] المهي . ٢٥/١

والتوحيد واسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به ، والملة[1] .وأما في الاصطلاح فالدين : هو وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود الى ما فيه صلاحهم بالذات في دنياهم وأخراهم . والدين بهذا المعنى شامل لمبادىء العقيدة والفقه بجوانبه المتعددة . أما أصول الدين : فان العلماء قد اصطلحوا على أن يطلقوه على المبادىء العقيدية التي تثبت بالأدلة اليقينية . ويقابله أصول الفقه الذي يراد به أدلة الفقة الاجمالية ، ويطلق على أصول الدين وأصول الفقه الأصلان ، فيقال فلان درس الأصلين أو ألف في الأصلين ، أي أصول الدين وأصول الفقه .

هذا ولقد ذكر الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر الإسفراييني أصول الدين فعدها خمسة عشر أصلا وهي :

الأصل الأول : في بيان الحقائق والعلوم على الخصوص والعموم .
الأصل الثاني : في حدوث العالم على أقسامه من أعراضه وأجسامه .
الأصل الثالث : في معرفة صانع العالم ونعوته في ذاته .
الأصل الرابع : في معرفة صفاته القائمة في ذاته .
الأصل الخامس : في معرفة أسمائه وأوصافه .
الأصل السادس : في معرفة عدله وحكمه .
الأصل السابع : في معرفة رسله وأنبيائه .
الأصل الثامن : في معرفة معجزات أنبيائه وكرامات أوليائه .
الأصل التاسع : في أركان شريعة الاسلام .
الأصل العاشر : في معرفة أحكام التكليف في الأمر والنهي والخبر .
الأصل الحادي عشر : في معرفة أحكام العباد في المعاد .
الأصل الثاني عشر : في بيان أصول الإيمان .
الأصل الثالث عشر : في بيان أحكام الإمامة وشروط الزعامة .

---

(1) انظر القاموس المحيط مادة « الدين » .

الأصل الرابع عشر : في معرفة أحكام العلماء والأئمة .
الأصل الخامس عشر : في بيان أحكام الكفر وأهل الأهواء الفجرة .

وبعد أن عدّد هذه الأصول قال : فهذه جملة أصول الدين على قواعد فريقي الرأي والحديث ، دون من يشتري لهو الحديث[1] .

٤ ـ الفقه الأكبر

الفقه لغة : الفهم ، قال في المصباح المنير : « الفقه فهم الشيء ، قال ابن فارس: وكل علم بشيء فهو فقه له . » .

وقد ورد في القرآن الكريم استعمال الفقه بمعنى الفهم ، قال سبحانه حكاية عن قوم شعيب : « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول[1] » أي ما نفهم ، وقال سبحانه : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أي لا تفهمون تسبيحهم[2] . وقال سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام : « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي[3] » أي يفهموه .

وفي البخاري في حديث الرجل من أهل نجد الثائر الرأس : « نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول » أي لا نفهم ما يقول .

وأما الفقه في اصطلاح الشرع : فقد غلب على العلم بالدين في أي مجال من مجالاته ، حتى بات لا يتناول غيره عند الإطلاق . قال في لسان العرب : « الفقه العلم بالشيء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم ، كما غلب النجم على الثريا » .

---

(١) أصول الدين : (١ ـ ٢) .
(١) هود : (٩١) .   (٢) الإسراء : (٤٤) .   (٣) طـه : (٢٨) .

وقد استعمل لفظ الفقــه بهذا المعنى في كثير مــن الأحاديث النبويــة ، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الناس معــادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » أي : صاروا علمــاء بالدين • وفي البخاري قول رسول الله ﷺ عندما قدم عليه أهل اليمن : « أتاكم أهل اليمن ، أضعف قلوباً ، وأرق أفئدة ، الفقه يمان ، والحكمة يمانية » • قال العيني في شرح الحديث : « المراد بالفقه هنا الفهم في الدين » •

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال : « اللهم فقهه » أي في الديــن •

ويرى حجة الاسلام الغزالي أن الفقه في العصر الاول إنما كان يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس وما يتصل بذلك ، فلقد قال في كتابه : إحياء علوم الدين :

« ولقد كان اسم الفقه في العصر الاول مطلقــاً على علم الآخرة ، ومعرفــة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الاعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشــدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلك عليه قوله عز وجل : « ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم[1] » وما يحصل به الانذار والتخويف هو هذا الفقــه ، دون تفريعات الطــلاق والعتــاق واللعان والســلم والإجارات ، فــذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد لــه على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه ، كما نشاهد الآن من المتجردين له[2] » • وبقريب من هذا عرّفه الإمام أبو حنيفة رحمــه الله اذ قال : « الفقه معرفة النفس ما لهــا وما عليها » فيتناول الاعتقاديات كالإيمان ونحوه ، والوجــدانيات أي الأخــلاق الباطنة ، والملكات النفسية ، والعمليات كالصوم والصلاة والبيع ونحوها[3] •

---

(١) التوبة : (١٢٢) .
(٢) إحياء علوم الدين : (١/٣٢) .
(٣) التوضيح على التنقيح : (١/١١) .

غير أن الذي استقر عليه عرف العلماء فيما بعد الى يومنا هذا هو أن الفقه « العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية » . وقد يطلق ويراد به الاحكام نفسها . فأصبح لا يطلق اسم الفقيه إلا على ذلك الانسان المطلع على أحكام الفروع المأخوذة من الأدلة .

فالأحكام الاعتقادية كالإيمان وما يتصل به ، لا دخل له في مدلول الفقه في الاصطلاح .

وأما لفظ الأكبر فهو اسم تفضيل مشتق من كبر بضم الباء بمعنى عظم . ومنه قدل المؤذن والمصلي : الله أكبر .

وأما المركب من هذين اللفظين « الفقه الأكبر » فانه قد استعمل في علم العقيدة واشتهر بذلك ، وقد ألف أبو حنيفة رحمه الله في العقيدة كتاباً أسماه « الفقه الأكبر[1] » .

٥ ـ علم التوحيد

التوحيد في اللغة : جعل الشيء واحداً ففي القاموس المحيط : « وحّده توحيداً جعله واحداً » . أو العلم بالشيء واحد ، ففي حاشية الباجوري على الجوهرة : « والتوحيد لغة العلم بأن الشيء واحد » .

والتوحيد في الشرع : إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتاً وصفات وأفعالاً . وقيل معناه في الشرع : إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات .

---

(١) ضحى الاسلام : (٣/١٠) .

وأما علم التوحيد : فهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية ، مكتسب من أدلتها اليقينية . واشتهر بعلم التوحيد لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه ، وهذا العلم يسمى أيضاً « علم الكلام[1] » .

وقد عرّف العضد الإيجي علم الكلام بما عرّف به علم التوحيد فقال : « والكلام علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه[2] » وأسمى كتاب في العقيدة : « المواقف في علم الكلام » .

وبعد فلماذا سمي علم التوحيد بعلم الكلام ؟

ذكر الباجوري في حاشيته تحفة المريد أنه سمي بذلك لأن المتقدمين كانوا يقولون في الترجمة عن مباحثه : الكلام في كذا ، أو سمي بذلك لأنه قد كثر فيه الاختلاف في مسألة الكلام[3] .

ولقد ذكر أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام أسباباً أخرى اذ قال :

« سمي هذا العلم الذي يبحث في العقائد بالأدلة العقلية والرد على المخالفين بعلم الكلام ، وسمي المشغلون به بالمتكلمين ، وقد اختلفوا في سبب هذه التسمية : فقال بعضهم : إنه سمي علم الكلام لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في العصور الاولى مسألة كلام الله وخلق القرآن ، فسمي العلم بأهم مسألة فيه ، أو لأن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد ، وليس يرجع الى عمل ، أو لأنهم تكلموا حيث كان السلف يسكت عما تكلموا فيه ، أو لأنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في الفلسفة ، فوضع للأول اسم مرادف للثاني ، فسمي كلاماً مقابلة لكلمة « منطق » .

---

(١) انظر في جميع ما تقدم حاشية الباجوري على الجوهرة : (٨) .
(٢) المواقف : (٧) .
(٣) تحفة المريد : (٨) .

ثم استطرد الى ذكر أول من سمى علم العقائد علم الكلام فرجح أن يكون المعتزلة في عصر المأمون أول من سموه بذلك ونقل عن الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » قوله : « ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون ، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام ، وأفردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام[1] » .

هذا وقد ذهب جمهرة العلماء الى أن علم الكلام وهو أشرف العلوم ، ومن هنا قال صاحب المواقف : « المقصد الرابع مرتبته ، ليعرف قدره فيوفى حقه من الجد : قد علمت أن موضوعه أعم الأمور وأعلاها ، وغايته أشرف الغايات وأجداها ، ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل ، وقد تأيدت بالنقل وهي الغاية في الوثاقة ، وهذه هي جهات شرف العلم لا تعدوها ، فهو اذاً أشرف العلوم[2] » .

ب ــ العقيدة ونشاة علم التوحيد

لقد مر بنا أن العقيدة بمعناها الذي اصطلح عليه ، هي مجموع الأمور التي يجب أن يدين المرء بها في الدين الاسلامي ، ويؤمن بها ايماناً لا يشوبه أي شك مهما كان هذا الشك ضئيلا .

وعلم التوحيد ــ كما مر أيضاً ــ هو العلم الذي أنشىء لبيان هذه العقيدة ، وإقامة البراهين اليقينية على صدقها وصحتها .

وعلم التوحيد هذا هو ما يسمى بعلم العقيدة وبعلم الكلام وأصول الدين كما مرّ ذلك آنفاً .

---

(١) انظر ضحى الاسلام : (٣/٩ ــ ١٠) .
(٢) المواقف : (٨) .

ولكن لسائل أن يسأل متى كانت دراسة هذه الأمور علماً من العلوم ، وألفت فيه الكتب تحت هذا العنوان أو ما يشبهه ، وما هي الحاجة التي دعت الى إفراده في علم مستقل عن العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وما أشبه ذلك ؟

من المؤكد أنه لم يكن منذ فجر الاسلام علم يدعى « علم التوحيد » ولا علم يدعى « علم الكلام » لأن الأمة الاسلامية آنذاك لم تكن بحاجة الى مثل ذلك ، إذ إنهم كانوا يسمعون آيات الله تتحدث عن أمور العقيدة فيمرونها كما هي من غير تفلسف ولا تعمق ، ولا جدال ولا مناقشة .

لقد دخل الناس في عهد رسول الله ﷺ في الدين الاسلامي أفواجاً ، وسمعوا رسول الله ﷺ يصف ربه سبحانه بما وصف به نفسه في كتابه الكريم ، وبما أجراه على لسانه من سنته ، اذ قال الله جل وعز : « يد الله فوق أيديهم[1] » وقال سبحانه : « كل شيء هالك إلا وجهه[2] » وقال عز من قائل مخاطباً موسى عليه السلام : « فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا[3] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له[4] » وفي الحديث أيضاً : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها الى بعض ، وتقول : قط قط وعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر ، فيسكنهم في فضول الجنة[5] » . كانوا يسمعون ذلك فيؤمنون به ، ولم يبلغنا أن أحداً منهم قد سأله عن شيء من ذلك مع اختلاف عقولهم ومداركهم ، كما كانوا يسألونه عن أمور الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وأمور المعاملات مما علموا أن فيه أمراً ونهياً .

---

(١) الفتح : (١٠) . (٢) القصص : (٨٨) .
(٣) المؤمنون : (٢٧) .
(٤) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم .
(٥) اخرجه البخاري في كتاب التوحيد ومسلم واحمد والترمذي والنسائي . انظر روح المعاني (١٨٨/٢٦) .

لم يبلغنا أن أحداً منهم قد سأله عن شيء مما وصف الله به نفسه ، ولو سأله أحد عن شيء من ذلك لنقل الينا ، لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله .

أحد ولم ينقل الينا أن أحداً منهم التبس عليه فهم شيء من ذلك ، فأخذ يسأل ليكشف شبهته ، أو يزيل لبساً أو يشرح غامضاً ، كما نقلت الينا الأحاديث الكثيرة التي تتضمن السؤال عن أحكام الحلال والحرام ، وعن أحوال يوم القيامة وعن الملاحم والفتن ونحو ذلك .

فدلّ هذا كله على أنهم فهموا ذلك وعقلوه في يسر وسهولة ، ولم يروا بأنفسهم حاجة الى الفلسفة وقواعدها ، ولا الى مباحث الكلام التي تمتّ بأوثق الأسباب الى الفلسفة وقواعدها ، فكتاب الله تعالى حدثهم عن ربهم ، وفرض عليهم حقوقاً يؤدونها الى ربهم ، وحقوقاً يؤديها بعضهم الى بعض .

وهذا الكتاب عربي مبين ، وهم قد فهموا ما ذكره القرآن الكريم . ولو أنهم اشتبه عليهم شيء من ذلك فعلى اليقين كانوا — كما قلنا — قد سألوا عنه كما كانوا يسألون عن غيره .

قال المقريزي في كتابه « الخطط والآثار » :

« من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية ؛ علم أنه لم يرد قط — من طريق صحيح ولا سقيم — عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة ، في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام في الصفات ، ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام ، والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقاً .

وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك ، مع نفي مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى ، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ ، سوى كتاب الله تعالى ، ولا أحد عرف منهم الطرق الكلامية ، ولا مسائل الفلسفة[1] » .

توفي رسول الله ﷺ ، وانتقل الى جوار ربه عزّ وجل ، وأمر الأمة الاسلامية جميع ، ولم يكن بينهم أي اختلاف ، فلقد جمعهم الاسلام على رسول الله ﷺ ، وكان لهم المرجع الأوحد في شؤون العقيدة والدين .

إلا أنه قد نشأ بوفاته عليه الصلاة والسلام خلاف كبير بين المسلمين فيمن يتولى الأمر من بعده ، وهذا أول اختلاف حدث بينهم ـ كما حكاه الأشعري رحمه الله في كتابه « مقالات الإسلاميين » ـ . وهذا الاختلاف هو أعظم خلاف وقع بينهم ، وكان له في مستقبل الأمر أثر كبير في تفكك وحدة الأمة الاسلامية .

قال الشهرستاني : « وأعظم خلاف في الأمة خلاف الإمامة ، إذ ما سل سيفه في الاسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة في كل زمان[2] » .

وبيان ذلك أن رسول الله ﷺ لما قبض وانتقل الى جوار ربه عز وجل ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بمدينة رسول الله ﷺ ، وأرادوا عقد الإمامة لسيد الخزرج سعد بن عبادة ، وبلغ ذلك أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فقصدا نحو مجتمع الأنصار ، في رجال من المهاجرين ، فأعلمهم أبو بكر أن الإمامة لا تكون إلا في قريش ، واحتج عليهم بقول النبي ﷺ : « الأئمة من قريش[3] »

---

(١) الخطط والآثار : (٢/٣٥٦) .
(٢) الملل والنحل : (١/٢٤) .
(٣) رواه الإمام أحمد والحاكم .

فأذعنوا له منقادين ، ورجعوا الى الحق طائعين ، بعد أن قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، وبعد أن جرد الحباب بن المنذر سيفه وقال : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب ، من يبارزني ؟ وبعد أن قام قيس بن سعد بنصرة أبيه سعد بن عبادة ، حتى قال عمر بن الخطاب في شأنه ما قال ، ثم بايعوا أبا بكر رضوان الله عليه ، واجتمعوا على إمامته ، واتفقوا على خلافته ، وانقادوا لطاعته ، ما عدا علياً رضي الله عنه ، فانه قد تأخرت بيعته الى أن توفيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فهرع بعد ذلك الى مبايعة أبي بكر ، وتمّ إجماع المسلمين على خلافته بعد بيعة علي رضي الله عنهما[1] .

مضت خلافة أبي بكر وعمر ، وأمر المسلمين جميع ، بعد أن نامت هذه الفتنة ، فلم ينبت في عهدهما نابتة من اختلاف في أصول الدين ، ـ حاشا ما اختلفوا فيه من أمر الخلافة ـ ثم آل أمرهم الى الاتفاق والوحدة .

إلا أن فكرة الخلافة والإمامة لم تمت نهائياً ، بل أثير فيما بعد هذا الموضوع من جديد ، ونشأ عنه اختلافات في أمور تتعلق بالإمامة .

لقد اختلف الناس فيما بعد في الذي تكون به الخلافة ، أهو النص من صاحب الشريعة على من يكون خليفته من بعده ، أم هو اختيار أهل الحل والعقد من المسلمين لمن يلي أمرهم ؟

واختلف الناس أيضاً هل يجب على المسلمين أن يكون لهم خليفة يقيم الحدود ويسد الثغور ويجهز الجيوش للجهاد ، ويولي القضاة والحكام ، ويحمي بيضة المسلمين ، أم لا يجب عليهم ذلك مطلقاً ، أم يجب عليهم في حال دون حال ؟ وهكذا ترى أن فكرة الخلافة قامت بدور هام في حياة المسلمين ، مما جعلتهم يتفرقون الى كثير من الفرق .

---

(1) انظر مقالات الاسلاميين : (١/٣٩ فما بعدها) .

ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنــه ، وفي أواخر عهــده ثارت الفتنــة ، واستيقظت قضية الإمامة من جديــد ، وكان الباعث لها والمتولي كبرها عبــد الله ابن سبأ الذي سوف نتحدث عنه . وانتهى الأمر الى مقتل عثمــان ، وفتح بمقتله باب من الفتنة لا يزال مفتوحاً الى يومنا هذا .

ولقد قال الإمام أبو الحسن الأشعري عن عثمان رضي الله عنه : « ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضوان الله عليه وأيام عمر الى أن ولي عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، وأنكر قوم عليه في آخر أيامه أفعالا كانوا فيما نقموا عليه مــن ذلك مخطئين ، وعن سنن المحجّة خارجين ، فصــار ما أنكروه عليه اختــلافاً الى اليوم ، ثم قتل رضوان الله عليــه ، وكانوا في قتــله مختلفين ، فأما أهل السنــة والاستقامة فانهم قالوا : كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله ، قتله قاتلوه ظلمــا وعدوانا ، وقال قائلون بخلاف ذلك ، وهذا اختلاف بين الناس الى اليوم[1] » .

لقد صار أهل النحل في شأن عثمان رضي الله عنــه ثلاث طوائف : الطائفــة الأولى : وهم أهل السنة والجماعة ، ذهبت الى أن عثمان رضي الله عنه أحد الخلفاء الراشدين الذين أمر الرسول عليه الصلاة والسلام باتباعهم والاهتداء بهديهــم إذ قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ[2] » وأنه من العشرة المبشرين بالجنة على لسان رسول الله ﷺ ، وأن ترتيبه في الفضل كترتيبه في الخلافة ، وأنه ليس معصوما من الخطأ لأن العصمة غير ثابتة عندهم إلا للأنبيــاء ، ولكنه مع ذلك ــ إن أخطأ ــ فخطؤه لم يكن سبباً في تفسيقه فضــلا عن كفره ، لأنه مجتهد فيما يذهب اليه من الآراء ، وقد رفع الله الحرج عن مجتهدي هذه الأمة ، وجعل للمخطىء منهم أجراً ، وللمصيب أجرين ، إذ قال عليه الصــلاة والسلام : « إذا حكم الحاكم فاجتهــد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهــد ثم أخطأ فله أجر[3] » .

---

(١) المصدر السابق : (١/٤٩) .
(٢) أخرجه ابو داود والترمذي وابن ماجه .
(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام ومسلم وأصحاب السنن .

الطائفة الثانية : غالت في بغض عثمان رضي الله عنه وطعنت فيه ، وذكرت أنه أحدث أحداثاً لم يكن له أن يحدثها ، ولا تتفق مع الإيمان بالله ورسوله ، وأكفرته بهذه الأحداث ، كما أكفرت عائشة أم المؤمنين ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، بإقدامهم على قتال علي ، مع أن هذه الطائفة تذهب الى صحة إمامة عثمان وخلافته عن رسول الله ﷺ في أول أمره ، لأنها تذهب الى أن الإمامة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تسند الى المفضول مع وجود الفاضل الذي هو أفضل منه ، وتثبت إمامة أبي بكر وعمر حقا ، وتقول ـ مع ذلك ـ إن الأمة أخطأت في البيعة لهما مع وجود علي ، ولكنه خطأ لا يبلغ درجة الفسق .

وهذه الطائفة هي السليمانية أتباع سليمان بن جرير ، وهي فرع من فروع الشيعة .

الطائفة الثالثة : ذهبت في أمر عثمان مذهباً أقل مما ذهبت اليه السليمانية ، فقد وقعت فيه وخطأته ، وذكرت أحداثه ، غير أنها لم تر أن هذه الأحداث توجب كفراً ...

وهذه الطائفة هي النظامية أتباع إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهي فرع من فروع المعتزلة ، ولم تقف هذه الطائفة عند تخطئة عثمان رضي الله عنه والوقيعة فيه ، ولكنها تجاوزت ذلك الى النيل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ومن علي وعبد الله بن مسعود وغير هؤلاء من كبار الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

بعد مقتل عثمان بويع بالخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فاختلف الناس في شأنه ، فمن منكر لإمامته ، ومن قاعد عنه ، ومن قائل بإمامته معتقد لخلافته ، وهذا اختلاف بين الناس الى اليوم .

وفي عهد علي نشأت فرقتان مختلفتان كل الاختلاف ، ومتناقضتان كل التناقض :

إحداهما : غالت فيه حتى جعلته إلهاً ، وهم أتباع عبد الله بن سبأ ، ولقد أمر علي رضي الله عنه بإحراقهم ، فألقوا في النار ، فكان الواحد منهم يقول : الآن علمنا أنك إلهنا ، فانه لا يحرق بالنار إلا خالقها . وعندما بويع علي قال ابن سبأ له : أنت خلقت الأرض ، وبسطت الرزق[1] .

والثانية : الخوارج : خرجوا على علي رضي الله عنه عندما رضي بالتحكيم وقالوا لا حكم إلا لله ، وأصبح للخوارج فيما بعد آراء في أصول الدين ، نوجز أهمها فيما يلي :

أولاً : أجمع الخوارج على تكفير علي رضي الله عنه عندما رضي بالتحكيم . ثم اختلفوا هل يعد كفره شركاً أم لا ؟

ثانياً : أجمعوا على أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار ، إلا النجدات منهم .

ثالثاً : رأيهم في الخلافة أنها يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، واذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ، ولو كان عبداً حبشياً ، وكانوا قد استندوا في ذلك الى الحديث : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة[2] » وحديث « إن أمّر عليكم عبد مجدّع فاسمعوا له وأطيعوا ما قادكم بكتاب الله[3] » .

واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله ، وإلا وجب عزله وتولية غيره .

رابعاً : ومن آرائهم وأصولهم عند معظمهم الخروج على السلطان الجائر في

---

(1) انظر الأعلام للزركلي في ترجمة ابن سبأ .
(2) أخرجه البخاري في كتاب الأذان وابن ماجه برقم (٢٨٦٠) .
(3) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٨٦١) .

غير مواربة ، ومن غير نظر الى قوة الإمام وقوة الخارج عليه ، وهذا عكس ما ذهب اليه الشيعة من القول بالتقية .

ولقد أرسل علي رضي الله عنه الى الخوارج عبد الله بن عباس رضي الله عنه ليناظرهم فيما ذهبوا اليه ، عسى أن يرجع ذوو العقول منهم الى دائرة الحق وجادة الصواب .

ففي البداية والنهاية لابن كثير : « أن علياً بعث الى الخوارج عبد الله بن عباس حتى اذا توسط عسكرهم ، فقام ابن الكوا فخطب الناس فقال : يا حملة القرآن ، هذا عبد الله بن عباس ، فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه ، ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه ، هذا ممن نزل فيه وفي قومه « بل هم قوم خصمون » فردّوه الى صاحبه ، ولا تواضعوه كتاب الله ، فقال بعضهم : والله لنواضعنّه فإن جاء بحق لنتبعنّه ، وإن جاء بباطل لنكبتنّه بباطله ، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام ، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب ، فيهم ابن الكوا ، حتى أدخلهم على علي الكوفة[1] » .

ولقد نقل الينا أبو العباس المبرد في كامله صورة عن مناظرة جرت بين ابن عباس والخوارج ، قال :

« ذكر أهل العلم من غير وجه أن علياً رضي الله عنه ، لما وجه اليهم عبد الله بن عباس رحمة الله عليه ليناظرهم ، قال لهم : ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكّم في دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعدله .

فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر .

---

(1) البداية والنهاية : (٢٨١/٧) .

قالوا : إنه قد حكّم ، قال : إن الله عزّ وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد ، فقال عزّ وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة قد أشكلت على المؤمنين ؟

فقالوا : إنه قد حكم عليه فلم يرض .

فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما .

فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فان هذا من القوم الذين قال الله عزّ وجل فيهم : « بل هم قوم خصمون » وقال عزّ وجل : « وتنذر به قوماً لدا[1] » .

وفي الحلية لأبي نعيم عن ابن عباس قال : « لما اعتزلت الحرورية قلت لعلي : يا أمير المؤمنين أبرد عني الصلاة ، لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم ، قال : أتخوفهم عليك ، قال : قلت كلا ان شاء الله ، فلبست أحسن ما أقدر عليه من اليمانية ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، فدخلت على قوم لم أر قوماً أشد اجتهاداً منهم ، أيديهم كأنها ثفن إبل ــ جمع ثفنة وهي ركبة البعير وما مسّ الأرض من كركرته ــ ووجوههم مقلبة من آثار السجود ، قال : فدخلت عليهم فقالوا : مرحبا بك يا ابن عباس ، ما جاء بك ؟ قال : جئت أحدثكم . على أصحاب رسول الله ﷺ نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لا تحدثوه ، وقال بعضهم : لنحدثنّه . قال : فقلت أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به ؟ وأصحاب رسول الله معه . قالوا : تنقم عليه ثلاثاً ، قلت : وما هن ؟ قالوا : أولاهن أنه حكّم الرجال في دين الله ، وقد قال الله عزّ وجل : « إن الحكم إلا لله » قال : قلت وماذا ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، لئن كانوا كفاراً لقد حلّت له أموالهم ، وان كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ،

---

(١) رغبة الآمل : (٧٩/٧) .

قال : قلت ثم ماذا ؟ قالوا : ومحا نفسه عن أمير المؤمنين ، فان لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قال : قلت أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم ، وحدثتكم من سنة نبيكم ﷺ ما لا تنكرون أترجعون ؟ قالوا : نعم .

قال : قلت أما قولكم إنه حكم الرجال في دين الله فانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » وقال في المرأة وزوجها : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » أنشدكم الله أفحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق ، أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟ فقالوا : اللهم في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم ، قال : أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم .

قال : وأما قولكم إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الاسلام . إن الله عزّ وجل يقول : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فأنتم تترددون بين ضلالتين ، فاختاروا أيهما شئتم . أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم .

قال : وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين ، فان رسول الله ﷺ دعا قريشاً يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ، فقال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، اكتب يا عليّ محمد بن عبد الله ، فرسول الله كان أفضل من علي ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم ، فرجع منهم عشرون ألفاً ، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا[1] » .

---

(١) الحلية : (٣١٨/١ ـ ٣٢٠) .

وعن نشوء الخوارج والشيعة تحدث شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فقال : « والخوارج هم أول من كفر المسلمين ، يكفرون بالذنوب ، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ، ويستحلون دمه وماله ، وهـذه حال أهل البـدع ، يبتدعون بدعـة ويكفرون من خالفهم فيها ، وأهـل السنة والجماعة يتبعـون الكتاب والسنـة ، ويطيعون الله ورسوله ، فيتبعون الحق ويرحمو الخلق .

وأول بدعة حدثت في الاسلام بدعة الخوارج والشيعة ، حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فعاقب الطائفتين ، أما الخوارج فقاتلوه فقتلهـم ، وأما الشيعة فحرق غاليتهم ، وطلب قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه ، وأمر بجلد من يفضله على أبي بكر وعمر ، وروي عنه من وجوه كثيرة أنه قال : خير هذه الأمـة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، ورواه عنه البخاري في صحيحه[2] » .

وقال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل : « وظهر في زمانه الخوارج عليه مثل الأشعث بن قيس ، ومسعود بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي وغيرهم . وكذلك ظهر في زمانه الغلاة في حقه مثل عبد الله بن سبأ وجماعة معه ، ومن الفريقين ابتدأت البدعة والضلالة ، وصدق فيه قول النبي ﷺ : « يهلك فيه اثنـان : محب غالٍ ، ومبغض قالٍ[1] » .

لم يقتصر الفريق الأول على خروج هاتين الفرقتين ، بل انضم الى ذلك خروج فرق أخرى :

إحداها : الجبرية ، وأهم فرقها تدعي أن العبد ليس لـه فعل ولا قدرة عـلى الفعل . ومن زعماء هذه الفرقة الشاذة جهم بن صفوان ، ومن آراء صفـوان هذا أن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها ، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهـل

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣/٢٧٩) .
(٢) الملل والنحل : (١/٢٧) .

النار بجحيمها . ومنها قوله : إن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، ومنهـا قوله إن علم الله محدث ، وإن لعلم الله وقدرته غاية .

الثانية : المعتزلة ، ومن آرائهـم نفي الصفات المعنوية مـن العلم والقـدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام وسيأتي شرح ذلك .

ومنها أيضاً : نفيهم رؤية الله يوم القيامة وسيأتي بحث ذلك .

ومنها : أن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيراً ولا شراً .

ومنها : قولهم بالمنزلة بـين المنزلتين ، فالمسلم مرتكب الكبيرة ليس بمؤمـن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، وهـو مخلد في النار ، إلا أنه لا يعـذب كعـذاب المشركين .

ومنها : قولهم بوجوب الأصلح ، وأن على الله أن يختار الأصلح لعباده .

وكان من زعماء المعتزلة واصل بن عطـاء الغزال ، وقد كان تلميذاً للحسـن البصـري .

الثالثة : القدرية : فلقد ظهر في النصف الثاني من القرن الهجري الاول رجل يدعى « معبداً الجهني » أخذ ينشر بين الناس القول بنفي القـدر ويدعي أن الأمر أنف ، أي مستأنف من غير أن يكون سبق به سابق قضاء وتقدير ، وانما هـو على اختيارك ودخولك فيه .

وكان معبد قد أخذ هذا الشيء فيما أخذه عن رجل نصراني مـن أهل العراق يقال له « سوسن » وكان قد أظهر الاسلام ، فكان معبد أول من أظهر القول بنفي القدر ، وأصبحت الفرقة التي تنتسب اليه تسمى « القدرية » .

وعند ظهور هذا الرجل وأخذه في نشر دعوته ، شرع علماء المسلمين يحذرون

---

(١) انظر اليها في غريب الحديث..

الناس من الالتقاء به والاستماع اليه تطبيقاً لقول القائل : « لا تمكن زائغ القلب من أذنيك فانك لا تدري ماذا يعلقك من ذلك » .

جاء في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال : « أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوافق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام الي ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أنه لا قدر ، وأن الأمر أنف ، قال : فاذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم ملء أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر » . ثم ساق حديث عمر بن الخطاب ، وفيه سؤال جبريل عن الاسلام ثم عن الإيمان فقال رسول الله ﷺ : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره[1] » . ولقد ورد عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « القدرية مجوس هذه الأمة[2] » وقد أخذ عن معبد القول بنفي القدر جماعة منهم غيلان بن مسلم الدمشقي ، وقد صلب في دمشق عند باب كيسان لزندقته بعد فتوى أهل العلم بذلك .

ومن قبل معبد هذا ظهر في عهد عثمان رجل يدعى « عبد الله بن سبأ » كما ذكرنا ، وقد كان يهودياً ، غاظه نصرة الاسلام وغلبته على اليهودية ، وإزالته ما كان يتمتع به اليهود من الهيمنة والسلطان على عرب المدينة والحجاز عامة ، فأضمر الكيد للاسلام ، فأظهر أنه قد دخل في الاسلام زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم أخذ يتنقل في البلاد الاسلامية ينفث فيها سمومه ، الى أن أتى مصر فوجد فيها

---

(1) صحيح مسلم : (٣٦/١ – ٣٧) .
(2) اخرجه أبو داود والحاكم في مستدركه .

مرتعاً خصباً ، فاستقر بها ، وتحقق له ما أراد . وتتلخص شرور هذا الرجل في أنه أحدث في هذه الأمة ثلاثة أمور :

أحدها : أنه هو أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب بالإمامة ، فعليّ وصي الرسول عليه الصلاة والسلام وخليفته على أمته من بعده بالنص ، وكان مما قاله في ذلك :

« إنه قد كان لكل نبي وصي ، وان علي بن أبي طالب هو وصي محمد ﷺ ، وليس في الناس من هو أظلم ممن احتجز وصية رسول الله ولم يجزها ، بل هو يتعدى ذلك فيثب على الوصي ويقتسره على حقه ، وان عثمان قد أخذ حق علي وظلمه ، فانهضوا في هذا الأمر ، وليكن سبيلكم الى اعادة الحق لأهله الطعن على أمرائكم ، واظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فانكم تستميلون بذلك قلوب الناس » واتخذ لهذه الدعوة أنصاراً بثهم في الأمصار ، وما زال يكاتبهم ويكاتبونه، ويؤلبهم ويدفعهم نحو الثورة على عثمان ، حتى نفذ قضاء الله في عثمان رضي الله عنه ، فقتل في داره محاصراً .

ولا تنس أن علياً رضي الله عنه قد بايع عثمان بالخلافة ، فان كان له حق منصوص عليه فهو أسمى وأعظم من أن يتنازل عن هذا الحق ، ويرضى بالباطل ، ويقنع بأن لا ينفذ وصية رسول الله ﷺ ، ولكن ضعاف العقول ، سرعان ما تسري اليهم الأفكار الشاذة المنحرفة .

الأمر الثاني : أنه كان أول من أحدث القول بالرجعة ، برجعة رسول الله ﷺ، وبرجعة علي رضي الله عنه أيضا .

وكان مما قاله في ذلك :

« إني لأعجب كيف تصدقون أن عيسى بن مريم يرجع الى هذه الدنيا ، وتكذبون أن محمداً يرجع اليها » ثم قال : « إنه قد كان لكل نبي وصي وإن علي بن أبي طالب هو وصي محمد ﷺ » .

الأمر الثالث : أنه كان هو أول من أحدث القول بأن علياً لم يقتل حقيقة ، وأنه لا يزال حيا ، وأنه يسكن السحاب ، وأن الرعد صوته ، وأن البرق سوطه ، وأن فيه جزءاً إلهياً ، وأنه لا بد من أن ينزل الى الارض ، فيملأها عدلا كما ملئت جورا » .

هذا ومن اطّلع على عقائد اليهود يرى أن أكثر من هذه القضايا مأخوذة عن اليهودية التي كان يتعارفها قومه يومئذ ، بل انه كان يستدل لمن يخدعهم على صحة هذه القضايا ببعض ما عرف من أحوال موسى عليه الصلاة والسلام ، مع شيء من التمويه والتحريف[1] .

ومن الفرق التي ظهرت الى جانب ما ذكرنا « المرجئة » وهؤلاء يقولون : إن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، ولهؤلاء أفكار أخرى لا مجال لذكرها الآن .

هذا ولقد ذكر الإمام الأشعري في كتابه مقالات الاسلاميين ، أمهات الفرق التي يؤول اليها الخلاف بين المسلمين فقال : « اختلف المسلمون عشرة أصناف : الشيع ، والخوارج ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والجهمية ، والضرارية ، والحسينية ، والبكرية ، والعامة ، وأصحاب الحديث ، والكلابية أصحاب عبد الله بن كلاب القطان[2] » .

نشاة علم الكلام واسبابها :

مضى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم من بعدهم مضى عصر الأمويين ، ومع ما ظهر في ذلك من الآراء والمذاهب فيما يتعلق بالعقيدة ، فلم تتخذ مسائل العقيدة سبيلاً لأن تكون علماً ، فتدعى علم العقيدة ، أو علم أصول الدين ، أو علم التوحيد ، أو علم الكلام ، أو غير ذلك من الأسماء ، على الرغم من وجود مسائل

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني : (١٧٤/٢ و ٢١١/٢ فما بعدها) .
(٢) مقالات الاسلاميين : (٦٥/١) .

هامة في العقيدة جرى فيها الاختلاف ، وآلت بالمسلمين الى أن جعلتهم فرقاً متباعدة ، كما ألمحنا الى ذلك •

وعندما آل الأمر الى بني العباس ، كثر البحث في العقائد في عصرهم ، وتشعبت طرائق الكلام عنها ، واتخذ ذلك ألواناً جديدة لم تكن أيام النبي ﷺ ، ولا الأولين من صحابته ، وأخذت هذه البحوث تتركز ليتكون منها علم جديد يساير العلوم التي نشأت في هذا العصر ، ألا وهو « علم الكلام » •

وقد تعاون على نشوئه وارتقائه أسباب كثيرة ذكرها الأستاذ أحمد أمين في كتابه « ضحى الاسلام » وبين أن هناك أسباباً داخلية وأسباباً خارجية ، وعنى بالأسباب الداخلية الأسباب التي صدرت من طبيعة الاسلام نفسه والمسلمين أنفسهم ، وعنى بالأسباب الخارجية الأسباب التي أتت من الثقافات الأجنبية ، والديانات المختلفة غير الاسلام •

الاسباب الداخلية :

أما الأسباب الداخلية فأهمها ما يلي :

١ ـ عرض القرآن لأهم الأديان والفرق ، ورده عليهم ، ونقضه لما يقولون ، فالقرآن الكريم بجانب دعوته الى التوحيد والايمان بالنبوات وما يتصل بذلك ، عرض لأهم الفرق والأديان التي كانت منتشرة في عهد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ورد عليهم وناقش أقوالهم ونقضها ، فحكى عن قوم أنكروا الأديان والإلهيات والنبوات : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون • ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون • أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون • هيهات هيهات لما توعدون • إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين[1] » • « وقالوا ما هي إلا حياتنا

(١) المؤمنون : (٣٣ ـ ٣٧) •   (٢) الجاثية : (٢٤) •

الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر[1] » فرد عليهم قولهم بمختلف الأدلـة .

وعرض للشرك بجميع أنواعه ، فمن المشركين مـن أله الكواكب واتخـذها شريكة لله ، فرد عليهم بمثل ما حكى عن إبراهيم عليه السـلام : « فلما جن عليـه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين[2] » .

ومنهم من ألّه عيسى عليه السلام ، فناقشهم في ذلك وردّ عليهم في مواطـن كثيرة ، منها ما جاء في آخر سورة المائدة « وإذ قال الله يا عيسى أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقـول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ...[3] » .

وحمل على الذين قالوا بعبـادة الأوثان ، وأشركوها مـع الله ، فقال تعـالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقـوا ذباباً ولو اجتمعوا لـه وإن يسلبهم الذباب شيئـاً لا يستنقذوه منـه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز[4] » .

وحكى عن قوم أنكروا النبوات جميعاً إذ قالوا : « أبعث الله بشراً رسولا » فناقشهم وردّ عليهم في غير ما موضع .

وأنكر قوم نبوة محمد ﷺ « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض

---

(١) الانعام : (٧٤ ـ ٧٩) .
(٢) انظر من سورة المائدة الآتية : (١٦ فما بعدها) .
(٣) الحج : (٧٣ ـ ٧٤) .
(٤) الإسراء : (٩٤) .

ينبوعاً • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا[1] » •

فناقشهم القرآن في هذا في أكثر من موضع •

وأنكر قوم البعث بعد الموت فرد عليهم بقوله : « كما بدأنا أول خلق نعيده » وبقوله : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور [2] » وقال تعالى : « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم[3] » •

وعرض لمسائل التكليف والجبر والاختيار وأبان الحجة فيها ، فحكى عن طائفة من المنافقين يوم أحد أنهم قالوا : « هل لنا من الأمر من شيء » وقالوا : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » فرد هذه القولة وناقشها في أكثر من موضع ، وحكى مثل هذا عن المشركين فقال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا

---

(١) الحج : (٩٠ — ٩٣) •
(٢) الحج : (٥ — ٧) •
(٣) يس : (٧٧ — ٧٩) •

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون[1] »
وقال سبحانه : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين[2] » .

ولقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجهر بدعوته ويجادل مخالفيه ، فقال تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين[3] » .

فالقرآن الكريم اذ عرض كل ذلك كان طبيعياً أن ينهج علماء الملة هذا المنهج ، فيردوا على المخالفين ، ويتوسعوا في الدفاع توسع المخالفين في الهجوم ، ويجددوا الحجج في الرد كلما جدد المخالفون الحجج في الطعن ، فكان هذا من أسباب نشوء علم الكلام .

٢ـ فلسفة الدين : وذلك أن المسلمين لما فرغوا من الفتح ، واستقر بهم الأمر ، واتسع لهم الرزق ، ووجدوا فسحة من الزمان ، أخذ عقلهم يتفلسف في الدين ، فيثير خلافات دينية ويجتهد في بحثها ، والتوفيق بين مظاهرها ، ففي أول الأمر تكون العقيدة قوية لا تأبه لخلاف ، ولا تلتفت الى بحث ، ينفذ النظر فيها الى أسس الدين فتعتنقها الأمة ، وتؤمن بها إيماناً تاماً ، من غير ميل الى بحث وفلسفة ، ثم يأتي من بعد ذلك طور البحث والنظر ، وصبغ مسائل الدين صبغة علمية فلسفية ، واذ ذاك يلتجىء علماء الدين الى الفلسفة يستعينون بها في تدعيم حججهم وتقوية براهينهم .

ومن هنا نرى أنه ما كاد ينقضي العصر الاسلامي الاول ، في إيمان لا يعتوره

---

(١) الانعام : (١٤٨) .
(٢) النحل : (٣٥) .
(٣) النحل : (١٢٥) .

كثير من الجدل ، ويهدأ الناس بعد ذلك ، حتى أخذوا ينظرون ويبحثون ، ويتوسعون في النظر والبحث ، ويجمعون بين الأشباه والنظائر ، ويستخرجون وجوه الفروق والموافقات ، فكان ذلك حتماً مستتبعاً اختلاف وجهة النظر ، فاختلاف الآراء والمذاهب .

٣ـ اختلافهم في أمور دينية تتعلق بالسياسة :

تنصيب خليفة للمسلمين يرعى شؤونهم ، ويقوم على أمورهم الدنيوية والدينية ، ويدرأ عنهم كيد الأعداء ، ويحافظ على وحدتهم واجب ديني يتعلق بجانب من جوانب المجتمع الاسلامي ، ألا وهو الجانب السياسي . فلقد قال الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد :

واجب نصب إمام عدل   بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

ولقد علق شيخ الاسلام الباجوري على هذا الكلام بقوله : « ومن الوجوه الدالة على وجوبه بالشرع أن الشارع أمر باقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش ، وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون اليه في أمورهم ، وقد أجمعت الصحابة عليه بعد مفارقته الدنيا ﷺ ، واشتغلوا به عن دفنه ﷺ ، لأنه توفي يوم الاثنين عند الزوال ، فمكث ذلك اليوم وليلة الثلاثاء ، ودفن ﷺ في آخر ليلة الاربعاء ، وقال أبو بكر رضي الله عنه : « ولا بدّ لهذا الأمر ممن يقوم به ، فانظروا وهاتوا آراءكم رحمكم الله تعالى ، فقالوا من كل جانب من المسجد : صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة لنا الى إمام[1] » .

ولقد اختلف المسلمون بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في أمر الخلافة، فلقد توفي رسول الله ﷺ ولم يعين من يخلفه ، فتفرق الناس في ذلك أحزاباً ، فلأهل السنة رأي ، وللشيعة رأي وللخوارج رأي ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، وقد

---

(١) تحفة المريد : (١١٧) .

أصبحت هذه الفرق فرقاً دينية ، تؤيد ما ذهبت اليه بأدلة دينية ، ولقد قال الأستاذ أحمد أمين في ذلك : « ورأينا الخلاف خلافاً دينياً ، ورأينا كل حزب له أدلته الدينية ، ورأينا خلافاً في هذه الحروب حول الكفر والإيمان ، ورأينا أن تسجيل هذه الحوادث والحروب والنزاع ، لم يكن محلها فقط كتب التاريخ ، وهي التي تسجل الحوادث السياسية ، بل عني بتسجيلها أيضا كتب الفرق الدينية والملل والنحل ».

وأحياناً يحكى القول من أقوال الفرق المختلفة على أنه مذهب ديني بحت ، ومسألة عقيدة صرفة ، مع أنا لو دققنا النظر في أصلها لوجدناه سياسياً ، كمسألة مرتكب الكبيرة أكافر أم مؤمن ، فالظاهر أن بحثها لم يكن بحثاً لاهوتياً بحتاً ، وانما منشؤها حكم الاحزاب السياسية بعضها على بعض ، فالخوارج أثاروا المسألة من ناحية من اتبع علياً أكافر أم مؤمن ، ومن اتبع معاوية أكافر أم مؤمن ؟ كما تتساءل نحن اليوم : ما حكم من اتبع مذهب كذا السياسي أخائن لوطنه أم غير خائن ، ولكن طبيعة الزمن صبغت المسألة هذه الصبغة الدينية ، ثم تنوسي أصلها على مر الزمان ، ووضعت على أنها مسألة إيمانية مجردة من السياسة .

والسبب في هذا أن الدين الاسلامي كان في عنفوانه ، وقد امتلأت نفوس الناس به ، وكان سبب سعادتهم الروحية والدينية والدنيوية ، وهم قريبو عهد بالنبوة ، فنظرهم الى المسائل ــ وخاصة الهامة منها ــ لا بد أن يصطبغ اصطباغاً قوياً بالدين بحكم البيئة والجو ، أضف الى ذلك أنه كان في كل حرب مكرة مهرة رأوا أن الناس لا يستهويهم القول بالصالح العام كما يستهويهم القول بأنهم في دفاعهم انما يدافعون عن الدين ، ويجردون السيف باسم الدين ، فغرقت الأحزاب كلها في هذا البحر ، واستعملت هذا السيف ، وأثارت العواطف من هذا الباب ، واستغلت عقول العلماء ليمدوها بما لديهم من علم في هذه السبل ، وانضم اليهم من لا يخافون الله ، فاذا لم يجدوا في الدين شيئاً وضعوا له الحديث والأخبار الدينية ، وبذلك كله كان الخلاف السياسي سبباً كبيراً من أسباب الخلاف الديني ، وسبباً في العقائد والفرق ، واذا بنا نرى حزب علي فرقة دينية هي حزب

الشيعة ، يرون أن الدين نص على علي وذريته ، ونرى حزب الأمويين حزباً دينياً ، يرون أن إمامة معاوية وأولاده ثبتت باتفاق أهل الحل والعقد في الأمة ، ونرى حزب الذين لا يرضون عن هؤلاء جميعاً حزباً دينياً يسمى الخوارج ، له عقائده وتعاليمه ، ونرى حزب المحايدين حزباً دينياً يسمى المرجئة ، له خلافاته وآراؤه ، وساقهم هذا الخلاف السياسي الذي اصطبغ بالدين الى الخلاف في تعريف الإيمان والكفر ، والكبائر والصغائر وحكم مرتكب الكبيرة ونحو ذلك ، وانساقوا بعد الى الخلاف في الفروع حتى تكونت من كل منهم فرقة لها خلاف في الأصول والفروع على مرّ الزمان[1] » .

الأسباب الخارجية لنشوء علم الكلام :

أما الأسباب الخارجية فأهمها :

١ ـ كثرة من دخل في الاسلام من أرباب الديانات المختلفة ، وذلك أن كثيراً ممن دخلوا في الاسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة ، يهودية ، ونصرانية ، ومانوية ، وزرادشتية وبراهمة وصابئة ودهريين وغير ذلك ، وكانوا قد نشأوا على تعاليم هذه الديانات وشبوا عليها ، وكان ممن أسلم علماء في هذه الديانات ، فلما اطمأنوا وهدأت نفوسهم واستقرت في الدين الجديد وهو الاسلام ، أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم ، ويثيرون مسائل من مسائله ويلبسونها لباس الاسلام ، وهذا ما يعلل ما نرى في كتب الفرق من أقوال بعيدة كل البعد عن الاسلام ، فنرى أحمد بن حائط يقول في التناسخ شبه ما يقول البراهمة ، ويقول في المسيح عليه السلام قولاً يشبه قول النصارى ، الى كثير من أمثال ذلك .

٢ ـ الحرص على الدعوة الى الاسلام ، والرد على المخالفين : وذلك أن

---

(١) انظر ضحى الاسلام : (٦ ـ ٧) .

الفرق الاسلامية الأولى ، وخاصة المعتزلة ، جعلت من أهم أغراضها الدعوة الى الاسلام والردّ على المخالفين ، وما كان يتسنى لهم الردّ إلا بعد الاطلاع على أقوالهم وأدلتهم ، فدفعهم ذلك الى الإحاطة بالفرق الاجنبية وأقوالها وحججها ، فأصبحت البلاد الاسلامية ساحة تعرض فيها كل الآراء وكل الديانات ، ويتجادل فيها ، ولا شك أن الجدل يستدعي النظر والتفكير ، ويثير مسائل تستدعي التأمل ، وتحمل كل فريق على الأخذ بما صح عنده من قول يخالفه .

وكان بعض الأديان ، وخاصة اليهودية والنصرانية ، قد تسلح بالفلسفة اليونانية ، وقد أدى هذا الى أن يلجأ المعتزلة الى مثل السلاح الذي لجأ اليه خصومهم ، ومن هذا الاحتكاك بين المعتزلة وأمثالهم ، وبين الملل الاخرى ، نشأت بين المسلمين أقوال مختلفة ، فكان ذلك سبباً من أسباب تضخم علم الكلام .

٣ ـ حاجة المتكلمين الى دراسة الفلسفة : وهذا سبب ثالث نشأ عن السبب الثاني ، وهو أن حاجة المتكلمين الى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم ، يجادلونهم بمثل حججهم ؛ اضطرتهم الى أن يقرأوا الفلسفة اليونانية ، وينتفعوا بالمنطق اليوناني ، فنرى النظام ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ يقرأ أرسطو ويرد عليه ، ونرى أبا الهذيل العلاف ـ وهو من شيوخ المعتزلة أيضاً ـ كذلك ، ونرى كثيراً من المعتزلة يتكلمون في الطفرة والتوالد والجوهر والعرض والجوهر الفرد ، ونحو ذلك من المسائل التي تعدّ من صميم الفلسفة اليونانية ، وتدخل في بحوث المتكلمين .

فهذه الأسباب كلها من داخلية وخارجية ، هي التي كونت علم الكلام وجعلته فناً قائماً بنفسه[1] .

هذا ولا بدّ في نهاية هذا البحث من بيان لمسالك علماء الاسلام في صدد هذه

---

(١) انظر المصدر السابق : (٣/٧ ـ ٩) .

التيارات الجانحة ، والنزعات المختلفة ، فتقول : ان مسالك المسلمين تنحصر في ثلاثة مسالك :

المسلك الاول : استثارة نوازع الفطرة الأصيلة في الانسان ، وازالة الغواشي والحواجز التي تصده عن الشعور بها والخضوع لها •

المسلك الثاني : تحكيم موازين العقل والمنطق ، مما ائتلفت واجتمعت عليه عقول الناس أجمع ، وهذه الموازين العقلية والمنطقية يدعو القرآن الى استخدامها والى مواجهة الجاحدين بها ، بل ربما لقن القرآن الكريم بأسلوبه المعجز طريقة الاحتجاج بها •

المسلك الثالث : وهو مسلك الفلاسفة والمتكلمين الاسلاميين ، فقد اعتمدوا على منهج الفلاسفة وطريقتهم ، وقد أشرنا الى شيء من ذلك فيما سبق •

ج ـ مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية

١ ـ التفريق بين عالم الغيب وعالم الشهادة :

العالم الذي نعيش فيه ، والعالم الذي يحيط بنا ، والعوالم التي تخرج عن هذا العالم الذي نعيش فيه ، كل ذلك ليس على نمط واحد •

بيان ذلك أن الكون مشحون بأشياء كثيرة منها ما يدرك بالحواس ، ومنها ما لا يدرك بالحواس ، فالأشياء التي اتصلت بها حواسنا هي في عرفنا أشياء مادية ، لأننا شهدنا ها شهوداً حسياً ، ولا يشك بوجودها إلا فاقد الحس ، وهذه الأشياء تسمى « عالم الشهادة » •

إلا أن هناك أشياء كثيرة عجيبة لا تتصل بها حواسنا ، وهي موجودة ومن الخطأ أن لا نقرّ ونعترف بوجودها • وان كانت غائبة عن حواسنا وشهودنا ،

فالأمور التي هي غائبة عن شهودنا وعالم الحس فينا تسمى « عالم الغيب » وقد تكون في واقعها أشياء مادية من نوع آخر ، ويمكن شهودها من قبلنا لو تهيأت لنا شروط مشاهدتها والإحساس بها ، أو لو وجدت لدينا الحاسة المناسبة التي تتمكن بواسطتها من كشف صورها وإدراك ذواتها .

وأقرب مثال على هذه الأمور الموجودة المغيبة ، أرواحنا التي تسري في أجسامنا ، لا نسمعها بآذاننا ، ولا نراها بأبصارنا ، ولا نلمسها ولا تتذوقها ولا نشمها ، ونحن مع ذلك كله نؤمن بوجودها ، ونحرص عليها ، ونحكم بحلولها ، كما نحكم بخروجها وذهابها .

ونحن وان لم نحس بأرواحنا احساساً ظاهراً ، فاننا قد آمنا بها استدلالا بآثارها فينا ، بل علمنا بها أمر بدهي لا يحتاج الى برهان .

وهناك قوى كثيرة منبثة في عالمنا انما ندركها من آثارها كالكهرباء والجاذبية وما أشبه ذلك .

هذا ولقد نبه القرآن الى هذه الحقيقة ، وهي انقسام العالم بالنسبة للمخلوقات الى قسمين :

١ ــ عالم الغيب .　　　　٢ ــ عالم الشهادة .

قال الله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم[1] » . وقال جل جلاله : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار[2] » .

---

(١) سورة الحشر : (٢٢) .
(٢) الرعد : (٨ ــ ١٠) .

وقال عزّ وجل : « الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستـة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون • يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنـة مما تعدون • ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم • الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين[1] » •

٢ ــ طريق معرفة كل منهما :

أمـا عالم الغيب فطريق الوصول الى معرفته معرفة حقيقية هو الوحي الإلهي الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ويصل الينا ذلك الوحي عن طريق الخبر الصادق المتواتر ، غير أن الانسان قد يصل الى معرفة شيء من ذلك عن طريق التأمل والتفكر والنظر العقلي •

وأما عالم الشهادة فطريق الوصول الى معرفته التأمل والتفكر والنظر العقلي والتجربة والمشاهــدة •

وستجد في البحث التالي منهج المعرفة عند المسلمين ، أي المنهج الذي رسمه العلماء المسلمون للوصول الى الحقائق ســواء أكانت من عالم الغيب أم مــن عالم الشهادة ، ستجد هذا المنهج مقارنا بالمناهج الاخرى •

د ــ منهج المعرفة عند المسلمين مقارناً بالمناهج الأخرى :

العلم الضروري والعلم النظري :

قسم العلماء ما يحدث في نفس الانسان من الأحكام الى خمسة أقسام :

الأول : العلم وهو الحكم الجازم الذي لا يقبل تغيراً ، بأن كان لموجب مــن حس أو عقل أو عادة ، ويكون مطابقاً للواقع •

---

(١) السجدة : (٤ ــ ٨) •

الثاني : الظنّ ، وهو الحكم غير الجازم المرجح للواقع عن دليل ٠

الثالث : الشك ، وهو ما تساوى فيه طرف الإثبات وطرف النفي من غير ترجيح ٠

وقد عبّر الإمام الغزالي عنه بقوله : « الشك اعتقاذان يتقاوم سببهما » ٠

الرابع : الوهم ، وهو الحكم المرجوح ، لمرجوحية المحكوم به ، وهو يقابل الظن ٠

الخامس : الجهل ، وقد قسمو الجهل الى قسمين : جهل بسيط ، وهو انتفاء العلم بالمقصود ، ومركب ، وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو به في الواقع ٠

وقد أضاف قوم الى ذلك قسماً سادساً هو الاعتقاد ، وعرفوه بأنه الحكم الجازم الذي يقبل التغير بأن لم يكن لموجب من حس أو عقل أو عادة ، وجعلوه في المرتبة الثانية عن العلم ٠ وقسموه الى اعتقاد صحيح واعتقاد فاسد ، فالاعتقاد الصحيح ما طابق الواقع ، والاعتقاد الفاسد ما خالفه ٠ والاعتقاد الصحيح ان كان عن دليل يفيد القطع ترقى الى مرتبة العلم ٠

هذا ومن المعروف في العقيدة أنها لا يكتفى فيها بالأدلة الظنية ، بل لا بدّ من أن يكون هناك دليل يفيد اليقين ، فالأدلة الظنية لا مجال لها في علم العقيدة وأصول الدين ٠

اذا علمت هذا كله ، وأدركت أن العلم هو الحكم الجازم الذي لا يقبل تغيراً ، لأنه حصل لموجب من حس أو عقل أو عادة أو غير ذلك ، ويكون مطابقاً للواقع أدركت أن هذا العلم ينقسم الى قسمين :

أحدهما : العلم الضروري ، وهو ما لا يحتاج في تحصيله الى نظر وتأمل واستدلال وذلك كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وكعلم العالم منا بوجود نفسه ، وكالذي يدرك إدراكاً صحيحاً من جهة الحواس ،

ومن العلم الضروري ما يدرك بالبديهة ، غير أن فريقاً من العلماء قسموا العلم الضروري الى قسمين : أحدهما : علم بديهي كالعلم بما يجد الانسان في نفسه من ألم ولذة وجوع وعطش ، والثاني : علم حسي ، وهو ما يدرك من جهة الحواس الخمس : البصر ، والسمع ، والذوق ، والشم ، واللمس .

الثاني من أقسام العلم : العلم النظري ، ويسمى العلم الاكتسابي . وهو ما يحتاج في تحصيله الى نظر وتأمل واستدلال ، كالعلم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين ، وكالعلم بحدوث العالم وقدم صانعه ووحدانيته وما الى ذلك .

مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية « منهج البحث عند علماء المسلمين »

ولسائل أن يسأل : العلم الجازم في العقيدة الاسلامية من أين يحصل الانسان عليه ، وما هي مصادره التي تورث اليقين . وما هو المنهج الصحيح للوصول اليه ؟

للاجابة عن هذا السؤال يجدر بنا أن نتحدث أولاً عن مصادر المعرفة بشكل عام ، ثم نتحدث عن مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية .

١ ـ مصادر المعرفة :

لقد قسم العلماء العلوم النظرية الى أربعة أقسام :

أحدها : ما يكون عن طريق الخبر المتواتر كعلمنا بأن مكة موجودة ، وعلمنا بأن الله قد أرسل رسولاً اسمه محمد عليه الصلاة والسلام وما أشبه ذلك .

الثاني : ما يكون عن طريق العقل بالنظر والقياس ، وذلك كالعلم بحدوث العالم ، والعلم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين ، والعلم بأن الخطين المتوازيين لا يتلاقيان ما داما متوازيين .

الثالث : ما يكون من جهة التجارب والعادات وذلك ما يعرف في الطب من منافع الأدوية ومضارها وما أشبه ذلك ، وهذا النوع من المعرفة خاص بالماديات .

الرابع : ما يكون من جهة الإلهام في بعض الناس ، وقد مثل له أبو منصور البغدادي فقال :

« وأما المعلوم بالإلهام على التخصيص فكالعلم بذوق الشعر وأوزان أبياته في بحوره ، وقد يعلم هذا الوزن أعرابي بوّال على عقبيه ، ويذهب عن معرفته حكيم يعرف قوانين أكثر العلوم النظرية ، وقد احتال أهل العروض في استنباط أصول عرفوا بها أوزان بحور الشعر ، غير أن الشعر قد طبع على ذوق من لم يعرف العروض ولا القياس في بابه ، وما ذاك إلا تخصيص من الله تعالى له به ، وكذلك العلم بصناعة الألحان غير مستنبط بالقياس ، ولا مدرك بالضرورة التي يشترك فيها العقلاء ، ولكنها من الخصائص التي يعلمها قوم دون قوم[1] » .

وبعد فأي هذه الطرق يكون سبيلاً الى المعرفة في العقيدة الاسلامية ؟

لا شك أن سبيل الإلهام لا مجال لإثبات شيء عن طريقه في أمور العقيدة إلا اذا صدر من الرسول ، لأنه قد علم صدقه ، وأخبر أنه قد ألهم ذلك أو أوحي اليه به ، فينتقل هذا عند ذلك الى قسم ما يثبت بالخبر وهو ما نتحدث عنه عما قريب ، قال في شرح جمع الجوامع ما ملخصه :

« مسألة : الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر ، يخص به الله تعالى بعض أصفيائه ، وليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره خلافاً لبعض الصوفية في قوله : إنه حجة في حقه ، أما المعصوم كالنبي ﷺ فهو حجة في حقه وحق غيره اذا تعلق بهم كالوحي[2] » .

فاذا أسقطنا من حسابنا هذا الدليل دليل الإلهام بقي لدينا ثلاثة طرق للوصول الى الحقيقة وهي : الخبر الصادق ــ التجربة ــ العقل .

---

(١) أصول الدين لأبي منصور الإسفراييني : (١٥) .
(٢) شرح الجوامع : (٢/٢٩٠) .

فما هو المنهج الذي سلكه علماء الاسلام للوصـول الى الحقيقة عن طريـق هذه الأدلة الثلاثة ؟

المنهج الذي سلكه علماء الاسلام للوصول الى الحقيقة :

إن المنهج الذي وضعه علماء المسلمين ، قد صاغوه في قاعدة عظيمة هي : إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل اذ إن القضيـة التي يراد اثباتهـا والتي هي موضوع البحث ، لا تخلو مـن أن تكون إما خبراً منقـولاً ، أو دعوى يدعيهـا الانسان من عنده من غير أن ينقلها عن قوم آخرين .

فان كانت القضية خبراً فينبغي أن يكون البحث محصوراً في تحقيق النسبـة بين الناقل وبين مصدر الخبر . فاذا ما ثبت صحة النقل ، وزال الشك تحقق لدينـا مضمون الخبر ، وأصبح لدينا حقيقة علمية معينة ، بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية.

وإن كانت القضية المدعاة دعوى يدعيها الانسان من عنده ، فان البحث ينبغي أن يتجه الى الأدلة العلمية المنسجمة معها ، والتي من شأنها أن تكشف عن مـدى صدق هذا الادعـاء .

ولكل نوع من الدعاوى نوع من الأدلة يتناسب معه ، لا يستدل بغيره عليه ، فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء الماديـة لا تثبت إلا بالبراهين العلميـة التجريبية المحسة ، والدعاوى المتعلقة بالمجردات كالنفس والعقل والمنطق ، لا يقبـل معها إلا براهينها القانونية المسلمة ، والدعاوى المتعلقة بالحقوق والأحوال المدنية لا ينفـع معها إلا البينات والحجج المتفق على ضرورة ارتباطها بها ، وهكذا لا تصبح الدعوى حقيقة علمية ثابتة إلا بعد أن يقترن بها دليلها الـذي يناسبها ، فالدليل الذي قـد يساق الى الدعوى ، ليست له أية قيمة علمية ما لم يكن بينه وبين الدعوى انسجام في الطبيعة والنوع .

اذا عرفت هذا فما هو المنهج العلمي الذي وضعه علماء الاسلام لتحقيق النسبة بين الخبر ومصدره ، ولتحقيق القيمة العلمية في الدعوى على النحو الذي مرّ ؟.

اولا ـ المنهاج الذي اتخذه علماء الاسلام للتحقق من صدق الخبر :

لقد وضع العلماء المسلمون لتحقيق ذلك فنوناً ثلاثة :

أحدها : فن مصطلح الحديث

الثاني : فن الجرح والتعديل

الثالث : فن تراجم الرجال •

حيث تلتقي هذه الفنون الثلاثة على وضع ميزان دقيق يتضح فيه الخبر الصحيح من غيره • والفرق بين الخبر الصحيح الذي يورث الظن ، والخبر الصحيح الذي يورث اليقين •

لقد قسم علماء المصطلح الخبر من حيث الصحة وعدمها الى أربعة أقسام :

القسم الاول : الخبر الصحيح وهو الخبر الذي يرويه العدل الضابط عن مثله حتى يصل الى المصدر الأول لهذا الخبر بشرط أن لا يكون فيه شذوذ ولا علة•

والشذوذ هو أن يخالف الثقة في الرواية من هو أوثق منه •

والعلة : هي مرض خفي في السند لا يطلع عليه إلا جهابذة الأطباء في علم الحديث •

القسم الثاني : الخبر الحسن ، وهو الخبر الذي عرفت طرقه وصحت وتناقله العدل الضابط عن مثله ، إلا أن رجاله لم يشتهروا اشتهار رجال الخبر الصحيح •

القسم الثالث : الخبر الضعيف ، وهو الخبر الذي لم يستجمع شروط الصحة ولا شروط الحسن • بأن فقد وصفاً أو أكثر من أوصاف الحديث الصحيح أو الحسن •

القسم الرابع : الخبر الموضوع ، وهو ما نسب الى مصدره كذباً واختلاقاً • وهو في الحقيقة ليس نوعاً من أنواع الحديث •

وبناء على هذا فما كان موضوعاً أو ضعيفــاً فلا يلتفت اليه في بنــاء الأحكام عليه ، وما كان حسناً فانه يستفاد منه في استنباط الأحكام الفقهية الفرعية ، وأمــا في ميدان العقيدة فلا يصلح أن يكون دليلاً فيها ، لأن مبني العقيدة على اليقــين والحديث الحسن لا يفيد ذلك .

وأما الخبر الصحيح فهو الذي يكون مجالاً لأن يستدل به في ميدان العقيدة. إلا أن الخبر الصحيح ليس كله على درجة واحدة ، فان من الخبر الصحيح ما يفيد الظن ، وهو الخبر الصحيح في أول درجاته فهذا أيضاً لا يصح الاســتدلال به في شؤون العقيدة ، بل يستفاد منه ويعتد به في نطاق الأحكام العمليــة كما ذكرنــا في الحديث الحسن . ومنه ما يفيد اليقين ، وهو الخبر الصحيح في أعلى درجاتــه وهو ما يسمى عند علماء المصطلح بالحديث المتواتر . فما هو الحــديث المتواتر ، وما هي شروط قبوله ؟

الخبر المتواتر وشروط قبوله :

الخبر المتواتر : هو نوع من أنواع الصحيح بل هو أعلى أنــواع الصحيح ، ولذلك يعرفه العلماء بأنه ، ما يرويه جمع عن جمع عن جمع وهكذا الى أصل الخبر بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب ، ويكون مستندهم في كل طبقة الحس مــن سماع أو مشاهدة . وهذا النوع من الأخبــار موجب للعلم اليقيني ، ولقــد ذكر الإمام الغزالي في المستصفى شروطاً أربعة للمتواتر :

أحدها : أن يخبروا عن علم لا عن ظن

الثاني : أن يكون علمهم ضرورياً مستنداً الى محسوس .

الثالث : أن يستوي طرفاه وواسطته في هذه الصفات ، وفي كمال العدد

الرابع : العدد . وقد ذكرنا في تعريف المتواتر أنــه يشترط فيه العــدد الــذي يستحيل تواطؤهم على الكذب .

وبناء على هذه الشروط قال الإمام الغزالي : « فاذا نقل الخلف عــن السلف ، وتوالت الأعصار ، ولم تكن الشروط قائمة في كل عصر ، لم يحصل العلم بصدقهم ، لأن خبر أهل كل عصر خبر مستقل بنفسه ، فلا بدّ فيه من الشروط ، ولأجل ذلك لم يحصل لنا العلم بصدق اليهود مع كثرتهم في نقلهم عن موسى صلوات الله عليــه تكذيب كل ناسخ لشريعته ، ولا بصدق الشيعة والعباسية والبكرية في نقل النص على إمامة علي أو العباس ، أو أبي بكر رضي الله عنهم ، و إن كثر عدد الناقلــين في هــذه الأعصار القريبة ، لأن بعض هذا وضعه الآحاد أولا ، ثم أفشــوه ، ثم كثر الناقلون في عصره وبعده ، والشرط انما حصــل في بعض الأعصار فلم تستو فيــه الأعصــار . ولذلك لم يحصل التصديق ، بخلاف وجود عيسى عليه السلام وتحديه بالنبوة ، ووجود أبي بكر وعلي رضي الله عنهما ، وانتصابهما للإمامة ، فان كــل ذلك لما تساوت فيه الأطراف والواسطــة ، حصل لنا علم ضروري لا نقــدر على تشكيك أنفسنا فيه ، ونقدر على التشكيك فيما نقلوه عن موسى وعيسى عليهمــا السلام ، وفي نص الإمامة[1] » .

هذا ولقائل أن يقول : من أين للباحث أن يعلم شروط الخبر الصحيح ، فانــه قد يرى سلسلة الرواية ، فكيف يستطيع أن يعــلم اتصال هــؤلاء الرواة بعضهم ببعض ، وأنهم جميعاً عدول ثقاة ضابطون ؟

والجواب عن هذا أن نقول : إن كلاً من علمي الجرح والتعديل ، وتراجــم الرجــال إنما وضعــا تذليــلا لسبيل هذا البحث ، وتيسيراً للاطلاع على الواقــع الذي ينبغي الوقوف عليــه .

وفي المكتبة الاسلامية مؤلفات كثيرة تعنى بهــذا الشأن كتهذيب التهــذيب لابن حجر ، وميزان الاعتدال للحافظ الذهبي . وكتاب الثقات للإمام أبي حاتــم محمد بن حبان البستي ، وتــذكرة الحفاظ للحافظ الــذهبي ، وكتــاب الضعفاء

---

(١) المستصفى : (١/٨٦ ـ ٨٧) .

للبخاري ، ولسان الميزان لابن حجر ، والجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي والكمال في أسماء الرجال للحافظ المقدسي ، وتهذيب الكمال للحافظ المزي ، الى غير ذلك من الكتب الكثيرة التي لا يحصيها العدّ .

والغريب في ذلك أن هؤلاء الأئمة المؤلفين في هذه الفنون ، والذين عكفوا على جمع تراجم الرجال ــ وهم أئمة ثقات ــ لم يبالوا في سبيل البحث عن الحقيقة واحترام الميزان العلمي ، أن يضعوا النقاط على حروفها في وصف الرجال وصفاً دقيقاً ، سواء انتهى بهم البحث الى الجرح والتحذير من المجروح ، أم الى التعديل والتوثيق ، ومن الجدير بالذكر أن الفقهاء لم يعدوا هذا التجريح من الغيبة المحرمة ، بل عدوه واجباً صيانة للدين ، وحفاظاً على الحقائق ، واحتراماً لمنهج العلم الصحيح .

ثانيا ــ المنهاج الذي رسمه علماء الاسلام للتحقق من صحة الدعوى :

الدعوى التي يدعيها المدعي إما أن تكون أمراً يتعلق بموجود مادي وإما أن يتعلق بأمر تجريدي أو غيبي .

أما ما يتعلق بأمر موجود ماديّ فلا بدّ من الاعتماد فيه على شواهد وبراهين من التجربة والمشاهدة ، اذ هو الوسيلة الطبيعية الى الإدراك اليقيني في مثل هذه الأمور .

وعلماء الاسلام بل الاسلام نفسه لا يتردد مطلقاً في الأخذ بما يثبت تحقيقاً عن طريق التجربة .

والاسلام عندما بين للانسان أن هذا الكون بما فيه مسخر لمنفعته ومذلل للاستفادة منه ، كان هذا أعظم دافع لأن يبحث في أي شيء في هذا الكون لينتفع به ، وهذا لا يتم إلا عن طريق التجربة والمشاهدة . قال الله تعالى : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك

مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون[1] » .

وقال سبحانه : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون[2] » .

وقال جل جلاله : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة[3] » .

فالنصوص القرآنية الآنفة الذكر وغيرها من النصوص التي تتحدث عن التسخير تحمل في طياتها دعوة صريحة الى التجربة والاستفادة من هذا الكون ، اذ ان الاطلاع على ما أودع في هذا الكون لهو أعظم دافع الى الإيمان بخالقه جل وتعالى .

ولقد أثنى الله سبحانه على العلماء الذين يتعمقون في معرفة هذا الكون ويطلعون على مكنوناته وخباياه ، ويصلون الى معرفة أسراره وخفاياه ، وعدّهم أنهم وحدهم هم الذين يخشون الله حق خشيته ، قال تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها كذلك إنما يخشى الله من عبادة العلماء إن الله عزيز غفور[4] » .

إن القرآن الكريم أشار الى حقائق كونية ، ولم يفصل القول فيها ليدفع هذا الانسان الى الوصول اليها عن طريق التأمل والتفكر والتجربة ليكون نهاية مطافه الايمان بخالق هذا الكون ومبدعه ، ثم الايمان بقدرته وحكمته . قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد[5] » .

---

(١) النحل : (١٤) .
(٢) النحل : (١٢) .
(٣) لقمان : (٢٠) .
(٤) فاطر : (٢٧ ــ ٢٨) .
(٥) فصلت : (٥٣) .

هذا ومع أن القرآن الكريم قد تحدث عن بعض الحقائق الكونية وطلب من الناس أن يفكروا ويتأملوا ويجربوا حتى يصلوا الى معرفة هذه الحقائق ، لم نر الى الآن أنه قد ظهرت حقيقة علمية ثابتة تخالف وتعارض أي قضية من القضايا التي نص عليها القرآن ، سواء أكان ذلك في ميدان العقيدة أم غيرها . لأن من القواعد العقلية الثابتة « أن الحقائق لا تتعارض » .

ولئن بدا عند بعض الباحثين أن هناك تعارضاً بين ما جاء به العلم وما جاء به الدين فان مرد ذلك الى واحد من ثلاثة أسباب :

أحدها : أن يكون الشيء الذي يدعى صاحبه أنه علم ، لم يصل بعد الى مرحلة العلم المقطوع به الثابت بالأدلة اليقينية ، كالنظريات التي لم تتأكد بعد ، والتي ما زالت رهن البحث والنظر ، أو التي لا سبيل الى اثباتها بأدلة علمية يقينية وإن اعتقد بعض العلماء أنها علم ، لعدم وجود ما هو الأقوى منها في نظرهم .

الثاني : أن يكون هذا الشيء الذي نسب الى الدين ، لم يصل بعد الى درجة القطع ، في نقل النص الذي تضمن هذا النوع .

الثالث : أن يكون الفهم الذي فهم به النص الديني فهماً مخطئاً ، وهذا النوع لا يتحمل النص الديني وزره ، وانما يعبر عن رأي من فهمه على هذا الوجه المخالف للحقيقة العلمية التي توصلت اليها الوسائل الانسانية . وذلك كمسألة كروية الارض ، ودورانها حول نفسها وحول الشمس وما الى ذلك .

هذا فيما يتعلق بأمر مادي من الدعاوى .

وأما ما يتعلق من الدعاوى بأمر تجريدي أو عيني غير خاضع لشيء من الحواس الظاهرة فمنه ما نجد في القرآن الكريم أو السنة المتواترة نصاً واضحاً فيه ، ومنه ما لا نجد في شيء منهما نصاً واضحاً عنه .

فاما المنصوص عليه في احدهما : فهو داخل بذلك في المدركات اليقينية ، وسبيل اليقين فيه أنه من حيث نقل الكتاب أو السنة له يرجع الى الخبر اليقيني المتواتر ، اذ ان القرآن الكريم هو اللفظ الموحى به الى محمد ﷺ والواصل الينا عن طريق التواتر ، فلا شك أن قرآنية ألفاظه متواترة مقطوع بها . ومثل القرآن في ذلك السنة المتواترة .

وأما من حيث صدق ما تضمنه القرآن نفسه فتلك مسألة أخرى مردها الى التحقيق في ظاهرة الوحي ، واقامة البراهين العلمية اليقينية ، وهذا ما نتحدث عنه عند التحدث عن النبوات .

ومعنى هذا أن النصوص القطعية الثابتة في الكتاب أو السنة تعطينا يقيناً بمضمونها عندما نتحقق بالبرهان القطعي صدق النبي بأن هذه الاخبار وحي من عند الله عزّ وجل .

هذا ولا بد من التنبيه هنا على أن هذا القسم الذي ورد فيه نصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة لم يهمل علماء المسلمين البحث فيه عن طريق العقل والفكر المجرد ، لا لأنهم يشكون في صدق هذا الطريق ، بل انما فعلوا ذلك من أجل أن يشقوا الى اليقين طريقاً آخر من البحث ، الى جانب ثبوت ذلك عن طريق الخبر الصادق المتواتر .

وهكذا يسلك الفكر الاسلامي الى الايمان بوجود الله ووحدانيته وما يتعلق بذلك مسلكين ، كلاهما منهج علمي صحيح .

أما المسلك الاول : فيبدأ بمرحلة البحث عن ظاهرة الوحي ، فاذا تجاوزها ، ثنى بمرحلة البحث في صحة النقل وتوافر مقومات اليقين فيه ، فاذا تجاوزها استيقن الأمر وصدقه لصدق كل مقدماته .

وأما المسلك الثاني : فيستعجل الطريق ، فيبحث في الأمر على هدي من الفكر المجرد والبراهين العقلية المحضة ، دون أن ينطلق بذهنه الى النبوة وحقيقتها ، والقرآن وصدقه .

وكلا المسلكين ينتهيان بالباحث الى اليقين ، بل انهما ليلتقيان أخيراً ليشد كل منهما من إزر الثـاني .

واما ما لم يتعرض له الخبر المتواتر اليقيني باي نص واضح صريح :

فسبيل معرفة الحق فيه منحصرة بالنظر العقلي وحده ، وقبل أن نتحدث عـن ذلك يجب علينا أن نبين الحقائق التالية :

اولا : معنى العقل والفكر والنظر :

يولد الانسان وليس عنـده شيء مـن المعرفـة والعـلم ، فهـو من هـذه الناحية صحيفة بيضاء لم يكتب عليها معلوم ما .

ويولد وليس لديه سوى مجموعة من الغرائز كالخوف وحب البقاء ، وسوى مجموعة من الحواس التي هي : السمع والبصر والذوق والحس والشم . ولكنـه الى جانب ذلك مزود بقوة عظيمة مدركة ــ هي العقل ــ تلك القـوة التي اختص الله بها الانسان من بين مخلوقاته ، وفضله بها على كثير من خلقه تفضيلا .

ولقد أوضح الله ذلك في كتابه العزيز ، قال الله تعالى : « والله أخرجكم مـن بطون أمهاتكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[1] » . وقال سبحانـه : « ذلك عالم الغيب والشهـادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شـيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون[2] » .

إن قوة العقل تبدأ عملها بإدراك الأشياء عن طريق الحواس ، وتختزن صورها في خزانة خاصة الى وقت الحاجة اليها ، وعندما يتطلب معرفة مجهول يأتي الى هذه

---

(١) النحـل : (٧٨) .
(٢) السجدة : (٦ ــ ٩) .

المعلومات المختزنة ، فيرتبها ترتيباً خاصاً ، ويتوصل بها الى معرفة ذلك المجهول مفرداً كان ــ وهو التصور ــ ، أو نسبة ــ وهو التصديق ــ • فهذا الترتيب هو التفكير •

فالتفكير اذاً هو ترتيب أمور معلومة للتوصل بها الى مجهول تصوري أو تصديقي •

وإرادة العقل وتطلبه لاستخراج هذا المجهول هو ما يسمى « النظر » ولهذا قيل للعلوم التي تستخرج عن طريق التفكير والبحث « العلوم النظرية » • ومن هذا نفهم أن أي مجهول تتوصل الى معرفته ، فمنطلق البحث فيه عن طريق الحواس التي جعلها الله سبيلاً للمعرفة عند الانسان •

قال ابن حزم ما ملخصه : « لا طريق الى العلم أصلاً إلا من وجهين :

أحدهما : ما أوجبته بديهة العقل وأوائل الحس ، والثاني مقدمات راجعة الى بديهة العقل وأوائل الحس ، ذلك أن الطفل حين يولد يكون لا علم عنده ولا تمييز لديه ، إلا ما يشارك فيه الحيوان والنوامي جميعاً ، مما ليس حيواناً من طلب الغذاء لبقاء جسمه على ما هو عليه ، ولنمائه ، فيأخذ الثدي ويميزه بطبعه غريزياً من سائر الأعضاء بفمه دون سائر أعضائه ، كما تأخذ عروق الشجر والنبات رطوبات الارض والماء لبقاء أجسامها ، على ما هي عليه ولنمائها •

ثم يتحدث رحمه الله عن إدراك الحواس : فيقول : « أول ما يحدث لها من التمييز الذي ينفرد به الناطق من الحيوان فهم ما أدركت بحواسها الخمس ، كعلمها أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها ، والرائحة الرديئة منافرة لطبعها • وكعلمها أن الأحمر مخالف للأخضر والأصفر والأبيض والأسود ، وكالفرق بين الخشن والأملس ، والمكتنز والمتهيل ، واللزج والحار والبارد والدافيء ، وكالفرق بين الحلو والحامض والمر والمالح ، والعفص والزاعق ، والتفه والعذب والحرّيف ، وكالفرق بين الصوت الحادّ والغليظ والرقيق والمطرب والمفزع (قال أبو محمد) : فهذه

إدراكات الحواس لمحسوساتها ، والإدراك السادس علمها بالبديهيات ، فمن ذلك علمها بأن الجزء أقل من الكل ، فان الصبي الصغير في أول تمييزه اذا أعطيته تمرتين بكى ، واذا زدته ثالثة سرّ ، وهذا علم منه بأن الكل أكثر من الجزء ، وان كان لا ينتبه الى تحديد ما يعرف من ذلك ، ومن ذلك علمه بأنه لا يجتمع المتضادان ، فانك اذا وقفته قسراً بكى ونزع الى القعود ، علماً منه بأنه لا يكون قائماً قاعداً معاً ، ثم أخذ رحمه الله يضرب أمثلة على البديهيات ، من ذلك أن الجسم لا يكون في آن واحد بمكانين ، وأن المكان الواحد لا يكون فيه جسمان ، وعلمه بأن الغيب لا يعلمه أحد ، وهكذا .

ثم قال رحمه الله : « فهذه أوائل العقل التي لا يختلف فيها ذو عقل ، وههنا أيضاً أشياء غير ما ذكرنا ، اذا فتشت وجدت وميزها كل ذي عقل من نفسه ومن غيره ، وليس يدري أحد كيف وقع العلم بهذه الأشياء كلها بوجه من الوجوه ، ولا يشك ذو تمييز صحيح في أن هذه الأشياء كلها صحيحة لا امتراء فيها » .

ثم قال رحمه الله : فصح أنها ضرورات أوقعها الله في النفس ، ولا سبيل الى الاستدلال البتة إلا من هذه المقدمات ، ولا يصح شيء إلا بالرد اليها ، فما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة فهو صحيح متيقن ، وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط[1] » .

ثانياً : موقف الاسلام من الفكر والنظر :

ان الاسلام هو الدين الذي أعظم من شأن العقل ، وعدّه أداة صالحة لتعرف الحقائق ، وفي رأسها الإيمان بالله وقدرته ووحدانيته ، وهو الدين الذي طلب من الانسان أن لا يؤمن بشيء إلا اذا دعمه الدليل والبرهان ، ولذلك دعا الى إعمال العقل والتفكير به ، وذم الذين يهملون عقولهم ، ويعطلون نعمة الله فيهم ، ويلوذون بتبعية أو تقليد من غير تفكير ولا نظر ، وانك لتجد ذلك واضحاً في الأمور التالية :

---

(١) انظر الفصل لابن حزم : (١/٤ — ٧) .

آ ـ لقد طلب القرآن الكريم من الانسان أن يفكر فيما يدعى اليه ، إما منفرداً بنفسه ، وإما مجتمعاً مع أناس آخرين . قال الله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد[1] » .

ب ـ لقد امتدح القرآن الكريم المفكرين ، ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول، قال تعالى : « إن في خاق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك[2] » .

جـ ـ لقد عدّ القرآن الكريم الذين لا يفكرون فيما يلقى اليهم ، ولا يعملون فيه عقولهم ، عدّهم كالبهائم . قال الله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون[3] » .

وقال سبحانه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون[4] » .

د ـ لقد ذم القرآن الكريم التقليد الأعمى ـ وهو أن تتبع غيرك من غير وعي ولا تفكير ، فقال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون[5] » . وقال سبحانه : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير[6] » .

---

(١) سبأ : (٤٦) .
(٢) آل عمران : (١٩٠ ـ ١٩١) .
(٣) البقرة : (١٧١) .
(٤) الأعراف : (١٧٩) .
(٥) البقرة : (١٧٠) .
(٦) لقمان : (٢١) .

وفي الحديث : « لا تكونوا إمّعة تقولـون إن أحسن الناس أحسنـا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا فلا تظلموا[1] » والإمعة الذي يتابع كل ناعق ، ولا رأي له .

هـ ـ لقد نهى القرآن الكريم الانسان أن يتبع شيئاً ويؤمن به مـن غير أن يكون له على صحته دليل ساطع وبرهان مقنع ، يصل به الى درجة العلم واليقين ، قال الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا[2] » .

مسالك النظر العقلي فيما لم يتعرض له الخبر اليقيني :

بعد أن علمنا موقف الاسلام من التفكير والنظر نقول : ما هي مسالك النظر العقلي في الأمور الغيبية أو التجريدية مما هو غير خاضع للحس والمشاهدة والتجربة ولم يتعرض له الخبر اليقيني ؟

إن مسالك النظر العقلي تتحقق في مسلكين اثنين :

المسلك الاول : ما يسمونه بدلالة الالتزام .

ودلالة الالتزام هي أن يطرد ترابط بين شيئين بحيث عندما تتصور أحدهمـا تتصـور الآخر .

وسبيل الاستفادة من هذا البرهان يكون : بأن تتأمل في ظاهرة ما تشاهدهـا أمامك ، فان رأيت عن طريق الاستقراء أن تلك الظاهرة تستلزم حقيقة معينة ، كان من الطبيعي في ميزان العقل أن تؤمن بها ، ولو لم تجدها ماثلة أمام عينيك ، فـان الذي يشاهد مقاعد مصفوفة على شكل معين ، لا بـدّ وأن يعلم أن هناك صافـاً

---

(١) اخرجه الترمذي برقم : (٢٠٠٨) .
(٢) الإسراء : (٣٦) .

وضعها على هدا الشكل ، ولو لم يبـ [illegible] • إلا أن دلالة الالتزام لا تفيد اليقين دائماً ولذلك قسم العلماء دلالة الالتزام الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول : اللازم البين بالمعنى الأخص ، وهـو ما يلزم فيه مـن تصور الملزوم تصور اللازم والجزم به وذلك كدلالة اللفظ المنبعث من شخص في الظلام أو من وراء حاجز على وجود كائن حي ، فان قوة اللزوم بينهما تجعل العقل يتصور الكائن الحي بمجرد سماع اللفظ ، دون حاجة الى التفكير في الرابطة بينهما •

القسم الثاني : اللازم البين بالمعنى الأعم ، وهو ما يلزم فيه تصور الملزوم واللازم الحكم باللزوم ، وذلك كدلالة الانسان على قابلية العلم وصنعة الكتابة ، فانه يحكم باللزوم من بعد تصور كل من الملزوم ــ الانسان ــ واللازم ــ قابليـة العلم وصنعة الكتابة •

وقد مثل الخبيصي في شرحه على تهذيب السعد بانقسام الأربعة بمتساويـين فانه لا يلزم من تصور الأربعة فقط تصور الانقسام ، لكن يلزم من تصور الأربعة وتصور الانقسام جزم العقل باللزوم بينهما •

القسم الثالث : اللازم غير البين ، وهو ما لا يكفي فيه تصور الملزوم وتصور اللازم للحكم باللزوم ، بل لا بـد من فيه من دليـل آخر على هـذا الترابط ، وذلك كالحكم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين ، فان العقل لا يجزم بتلك الملازمـة لكل مثلث ، ما لم يطلع على برهان آخر مثبت له •

فأقوى الأقسام في الدلالة وقوة البرهان القسم الاول « الـلازم البين بالمعنى الأخص » ويليه القسم الثاني ، حتى ان بعضهم لا يعده دليلاً مستقلاً •

أما القسم الثالث « اللازم غير البين » فهو باستقلاله لا يعد برهاناً ، لأنه هو نفسه يحتاج الى برهان ودليل عليه ، ولكنه يعـد جزءاً من دليل يتكامل بضـم برهانـه اليـه •

المسلك الثاني : القياس ، وهذا القياس الذي هو برهان يقيني ينقسم الى قسمين :

القسم الاول : القياس المنطقي :

والقياس المنطقي : قول مؤلف من قضايا يلزم من الإذعان اليها الإذعان بشيء آخر ، ولا يكون هذا القياس مفيداً لليقين إلا اذا كانت مقدماته يقينية ٠ فاذا قلت العالم متغير ، وكل متغير حادث ، لزم أن تذعن يقيناً أن العالم حادث ، واذا قلت : اذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود ، لكن الشمس ليست بطالعة ، لزمك أن تذعن يقيناً بأن اليهار ليس بموجود ٠

واليقينيات التي تتألف منها الأقيسة عدّ لها العلماء أصولاً ستة :

الأصل الأول : الأوليات ، وهي القضايا التي يحكم فيها العقل بمجرد تصور الطرفين ولا يتوقف على واسطة ، كقولك : الواحد نصف الاثنين ، والكل أعظم من الجزء ، فان هذين الحكمين لا يتوقفان على واسطة ٠ ولقد ذكر الامام الغزالي أن هذه القضايا الأولية تصادف مرتسمة في العقل منذ وجوده ، حتى يظن العاقل أنه لم يزل عالماً بها ، ولا يدري متى تجدد ، ولا يقف حصوله على أمر سوى وجود العقل ٠

الأصل الثاني : المشاهدات والمحسوسات ، وهي القضايا التي يحكم بها الحس ، كقولنا الشمس مشرقة ، والنار محرقة ٠

الأصل الثالث : التجريبيات ، وهي التي يحتاج العقل في الجزم بها الى تكرير المشاهدة مر ةبعد أخرى ، ويعبر عنها « باطراد العادة » وذلك كقولك : الخبز مشبع ، الحجر يهوي الى أسفل ، النار صاعدة الى فوق ، السقمونيا[1] مسهل للصفراء ٠

---

(١) في القاموس : السقمونيا نبات يستخرج من تجاويفه رطوبة دبقة وتجفف وتدعى باسم نباتها أيضا مضادتها للمعدة والاحشاء أكثر من جميع المسهلات .

الأصل الرابع : الحدسيات : وهي التي يحكم فيها العقل بواسطة ، لا بمجرد تصور الطرفين ، كقولنا : نور القمر مستفاد من نور الشمس ، فان هذا الحكم بواسطة مشاهدة تشكلاته المختلفة ، بحسب اختلاف أوضاعه من الشمس قرباً وبعداً ، والحدس سرعة انتقال الذهن من المبادىء الى المطالب •

الأصل الخامس : المتواترات • وهي التي يحكم فيها العقل بواسطة السماع عن جمع كثير لا يجوز العقل توافقهم على الكذب وذلك كقولنا : سيدنا محمد ﷺ ادّعى النبوة ، وأظهرت المعجزة على يده ، وقد تحدث الامام الغزالي عن هذا الأصل فقال : « فان هذا أمر وراء المحسوس ، اذ ليس للحس إلا أن يسمع صوت المخبر بوجود مكة ، وأما الحكم بصدقه فهو للعقل ، وآلته السمع ، ولا مجرد السمع بل تكرر السماع ، ولا ينحصر العدد الموجب للعلم في عدد ، ومن تكلف حصر ذلك فهو في شطط ، بل هو كتكرر التجربة ، ولكل مرة في التجربة شهادة أخرى ، الى أن ينقلب الظن علماً ، ولا يشعر بوقته ، فكذلك التواتر[1] » •

الأصل السادس : النظريات ، وهي القضايا المجهولة المكتسبة من المعلومات بطريق الكسب والنظر ، كحكم العقل بحدوث العالم المكتسب من قولنا : العالم متغير وكل متغير حادث[2] •

هذا ولأن مرجع الأصل السادس الى الأصول الخمسة السابقة ، لم يعده الامام الغزالي ، إلا أنه قد أضاف الى ما ذكر أصلا آخر وهو « المشاهدات الباطنية » • قال : « وذلك كعلم الانسان بجوع نفسه وعطشه وخوفه وفرحه ، وجميع الأحوال الباطنة التي يدركها من ليس له الحواس الخمس ، فهذه ليست من الحواس الخمس ، ولا هي عقلية ، بل البهيمة تدرك هذه الأحوال من نفسها بغير عقل[3] •

وهذا الذي ذكره الامام الغزالي وان كان من مدارك اليقين ، إلا أنه لا يمكن

---

(١) المستصفى : (١/٣٠) •
(٢) انظر حاشية العطار على الخبيصي : (٢/٢١٠ فما بعدها) •
(٣) المستصفى : (١/٢٩) •

أن يدخل في بناء الأقيسة التي تقام لإثبات الدعوى لدى الخصم ، لأن المشاهدات الباطنية أمور قاصرة على من يحس بهـا ، ولا يمكن جعلهـا جزءاً من دليل يقـام عـلى الخصـم •

والقياس المنطقي : أنواع :

أحدها : القياس الحملي ، وهو ما تركب من الجمل الحملية أي التي تألفت من موضوع ومحمول ، وذلك كقولك :كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف محدث ،

الثاني : القياس الشرطي : وهو ما كانت المقدمتان فيه شرطيتين أو احداهما ، تقول : إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود ، وكلما كان النهار موجوداً فالارض مضيئة ، ينتج : إن كانت الشمس طالعة فالارض مضيئة •

الثالث : القياس الاستثنائي : وهو ما كانت النتيجة أو نقيضها مذكورة فيـه بمادتها وهيئتها ، وذلك كقولك : إن كانت الشمس طالعـة فالنهار موجـود لكن الشمس طالعـة ، فالنهار موجـود ، لكن الشمس ليست بطالعة ، فالنهـار ليس بموجود • وكقولك : هذا العدد إما زوج وإما فرد ، لكنه ليس بزوج فهو فرد •

هذا ولكل هذه الأقيسة كي تنتج نتيجة صحيحـة أشكال وشروط تذكر في كتب المنطق[1] •

القسم الثـاني : القياس الاصولي : وهو القيـاس الذي اصطلح عليه علمـاء أصول الفقه الاسلامي ، وعلماء أصـول الدين ، بعـد أن استلهموه من كتـاب الله عزّ وجـل •

وقد عرف في كتب أصول الفقه بأنه : إلحـاق أمر بأمر في الحكم لاشتراكهما في عـلة الحـكم •

---

(١) أنظر كتاب الخبيصي على التهذيب وحاشية الباجوري عليه ، وانظر المستصفى للإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

وهذا المنهج القياسي يتلخص في استخراج علة الشيء أو سببـه ، ثم تلمس ذلك فيما يشبهه من الأشياء المجهولة ، حتى اذا استيقن الباحث اشتراك كل من المعلو موالمجهول في علة واحـدة ، قاس الثاني على الاول في حكمـه المنبثق من من تأثير هذه العلة .

وتقوم فكرة القياس على مبدأين اثنين ، كـل منهمـا من المسلمات العقليـة التي لا تحتاج الى برهان عليها .

المبدأ الأول : قانون العلية ، أي إن لكل معلول علة ، ولكل أثر مؤثراً .

المبدأ الثاني : قانون التناسق والنظـام في العالم ، أي إن المظاهر الجزئيـة للكون وإن اختلفت أشكالها ، فانها ترتبط بعلل كلية من شأنها أن تثبت التناسق والانسجام فيما بينها ، ومهما أوغلت في التدقيق بطبائع هذه العلل رأيتها تتجمـع أخيراً في أقل عدد من العلل والأسبـاب .

وإنما ينقدح القياس من هذين المبدأين أيضاً بواسطة الاستقراء ، اذ هو يبصر الباحث بحقيقة العلة ، ثم هو الذي يمكن بواسطته إدراك العلاقات الثابتة الكلية بين الاشياء المتناثرة أو المختلفة في الظاهر ، وهكذا نلاحظ أن الاستقراء التام شرط أساسي لا بدّ منه لكل من برهاني التلازم والقياس .

والاستقراء هو تتبع جزئيات ما ادعيت أنه علة لأمر معين ، فتجده لا ينفـك عن إنتـاج معلولـه .

وذلك بأن تتأمـل العلاقة بـين العلة والمعلول فترى بينهمـا ظاهرة الاطراد والانعكاس ، أي كلما وجدت العلة وجد المعلول ، وكلما فقدت العلة فقد المعلول ، ثم تمعن النظر بعـد ذلك في العلة فتراها مـؤثرة في المعلول « أي هي سبب لـه » بالبرهان اليقيني ، اذ قـد يكون هـذا الاطراد أو الانعكاس لمحض المصادفـة أو لعامـل آخر .

وبهذا نعلم أن شرط هذا القياس « أي في بناء العقيدة والقضايا اليقينية » هو

أن تكون العلة مؤثرة « أي مسببة » في المعلــول ، وأن تكون مطردة ومنعكسة ، وأن تكون منضبطة واضحة غير مضطربة[1] .

قال الامام الغزالي رحمه الله بعد كلا مطويل : « فثبت بهذا أن الاستقراء إن كان تاماً رجع الى النظم الأول ، وصلح للقطعيات » ويعني بالنظم الأول ما ذكره سابقاً من أن العلة فيه تكون أخص من الحكم أو مساوية له[2] .

منهج البحث عند الغربيين :

فيما مضى تحدثنا عن منهج البحث عند المسلمين ، وفيما يلي نتحدث عن منهج البحث عند الغربيين . ونحن نسير في بحثنا هذا على نفس الطريقة التي تحدثنا بها عن منهج البحث عند المسلمين .

فنقول : إن المراد إثباته إمــا أن يكون خبراً يراد تحقيقه ، وإمــا أن يكون دعوى يراد التأكد من اثباتهــا . ونبدأ بالأول منهما فنقول :

آ ـ منهج تمحيص النقول والأخبــار :

لا بدّ لنا من التساؤل ما هو المنهج الذي وضعه الغربيون لتمحيص الأخبار ؟

وللاجابة عن هذا التسؤل نقول : إننا لسنا بحاجة الى أن نجهد الفكر كثيراً بالتأمل في الجواب ، فالواقع أن المنهج الغربي خال الى الآن من أي ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلق بالرواية والنقل .

هنالك ما يسمونه بالمنهج الاستردادي أو منهج التوسم ، عمدته الاولى ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة ودقة الوجدان واتساع دائرة الخيال ، والأداة التي يستخدم بها الباحث ملاحظته ووجدانه وخياله ، كل ما قد يقع عليه من آثار

---

(١) انظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان ، (٣٩) .

(٢) انظر المستصفى : (١/٣٢ ـ ٣٣) .

وأحداث ووثائق ، وكيفية البحث هي أن يعكف الباحث على ما تجمع لديه من هذه الآثار أو الأحداث ، فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ، ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن اليه من مبادىء وأحكام ووقائع . وهو كما ترى منهج لا يملك أخيراً مهما جمع من العدة والوثائق إلا سبيلاً واحداً وهو سبيل الاستنتاج الفكري ، بل الغيبي المجرد ، وما كان الاستنتاج المجرد عن التجربة والمشاهدة والاستقراء التام والرواية الصادقة إلا رديف الوهم أو الشك أو الظن المتقلقل الضعيف . وذلك باستثناء الاعتماد على وثائق تاريخية تحمل في طيها دلالة اليقين ، نظراً لما بينها وبين مصدرها من علاقة العلة بالمعلول ، أو اللازم بالملزوم[1] .

وإن الباحث ليسأل : ففيم عجز الفكر الغربي الى اليوم عن اتخاذ منهج علمي بصدد تحقيق التقول ، على الرغم من أهمية الأمر في ذلك ، وعلى الرغم من أنه يشكل نصف المسافة الى تحقيق كثير من القضايا العلمية المختلفة ؟

والجواب أن القيام بأعباء تحقيق التقول والروايات ، يكلف جهداً شاقاً وعنيفاً ، دون أن يوجد في الظاهر مردود من الكسب المادي له ، وتحمّل جهد من هذا القبيل لا يكون إلا اذا وجد من ورائه دافع يتغلب في قوته على شدة هذا الجهد .

ولقد توفر هذا الدافع عند علماء المسلمين ، على حين لم يتوفر شيء منه عند غيرهم . لقد آمن المسلمون بوجود الله عزّ وجل ، وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبأنهم مكلفون باقامة حياتهم على المنهج الذي بينه لهم كتاب الله وسنة رسوله ، فلا جرم أنهم مكلفون إذاً بالوقوف على كل ما قد تركه الرسول عليه الصلاة والسلام وراءه من تعاليم وارشادات ، وبالحرص كل الحرص على أن لا يمتزج الواقع اليقيني المتعلق بحياته وسيرته وأقواله ، بما قد يندس اليه من وهم أو كذب أو افتراء .

وهكذا فقد أوصلهم يقينهم هذا الى المنهج الشاق الدقيق الذي وضعوه ميزانا لصدق كل رواية وتاريخ ، وكان عليهم أن يستهينوا بكل ما قد يكلفهم

(١) انظر مناهج البحث العلمي للدكتور عبد الرحمن بدوي : (٢٠٠ فمابعدها) .

تطبيق هذا المنهج من أعباء جسام ، ولولا هـذا اليقين والدافع لما رأيت واحـداً من علماء الحديث يقطع مئـات الأميال متغرباً عـن وطنه ، متعرضاً للأخطـار ، في ظروف عسيرة شاقة ، لا لشيء إلا ليلتقي بشيخ يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ ، قد يعلمه ويحفظه هذا الذي هو قادم عليـه ، ولكنه يريد أن يتلقاه منـه أيضاً ، ويستأذنه بروايته عنه ، لكي تزداد طرق هذا الحديث عنده ، ويقف على كل ما قـد يتوافر له من أسانيـد •

إن من السهل عليك جداً أن تقرأ إسناد حديث ما مـن أحاديث رسـول الله ﷺ ، في كتاب كصحيح البخـاري ، وأنت متكيء عـلى فراشك أو جالس وراء مكتبك ، ولكن من المهم أن تتبين صورة ذلك الجهد العجيب الذي بذل سخيـاً في سبيل هذين السطرين فقط من الإسناد الذي قد لا تأبه له اليوم •

من هنا نلاحظ أن كثيراً مـن الموضوعات العلميـة ، تناوله كل مـن الفكر الاسلامي والغربي بالبحث من طريقتين مختلفتـين ، اذ كان منهج تحقيـق الرواية مصدراً من مصادر تفسيرها عند المسلمين ، على حين كان المنهج المقابل لذلك عنـد الآخرين هو محض الاستنتاج •

ولنضرب مثلا لذلك « ظاهرة الوحي » في حياة النبي ﷺ ، لقد كان المنهـج الذي سلكه علماء المسلمين في هذه المسألة هو :

أولا : تحقيق الرواية وضبط اللفظ والسند ، ولقد انتهى علماء المسلمين كلهم الى أن حـديث الوحي صحيح ، ورد بطـرق مختلفـة كثـيرة ، تجاوزت حـد التـواتر المعنـوي •

ثانيا : الاستقراء التام الذي وضعهم أمـام كل من دليلي الالتزام وقيـاس الاولى •

وكانت النتيجة التي توصل اليهـا الفكر الاسلامي هي : اعتقـاد أن الوحي إنما هو استقبال منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانـه وشعوره الداخلي ، وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العلمي •

أما المنهج الذي سلكه الغربيون في ذلك فهو :

أولا : أخذ « الوحي » على اعتبارها أثراً أو حادثة مبهمة خلفها التاريخ •

ثانيا : إعمال الحدس والتخمين في استنتاج ما قد يدركه التوسم والوجدان والخيال من هذه الكلمة •

وكانت النتيجة التي توصلوا اليها في أمر الوحي على أعقاب ذلك ، أن اختلفوا فيه على مذاهب متفرقة • فمنهم من انتهى الى أن الوحي انما هو حركة فكرية داخلية ، أو نوع من الإلهام النفسي ، ومنهم من زعم أنه إشراق روحي جاء عن طريق الكشف التدريجي ، ومنهم من لم يجد أي غضاضة في أن يقرر أن الوحي لم يكن أكثر من نوبات صرع كانت تنتاب الرسول عليه الصلاة والسلام بين الحين والآخر•

وليس ثمة مطمع في أن يلتقي هؤلاء ومفكرو الاسلام على صراط واحد من الفهم في الأمر ، اذ إن هؤلاء قد أسقطوا من اعتبارهم أمر الرواية والخبر وقيمتهما العلمية سلباً وايجاباً ، أي إنهم استجازوا لأنفسهم تجاهل الرواية الصحيحة المتواترة، كما استجازوا في نفس الوقت اختراع تفسير لا يدعمه أي خبر أو رواية صحيحة •

كما إنهم لم يلتزموا إطلاقاً بمنهج الاستقراء وما يثبته قانون الالتزام وقياس الأولى ، ولذلك جاز لهم أن يصوروا من محمد عليه الصلاة والسلام منذ اللحظة التي أوحي فيها اليه ، شخصية تتناقض كلياً مع شخصيته السابقة ، بل مع وقائع حياته المستمرة أيضاً ، وجاز لهم أن يجعلوا منه عليه الصلاة والسلام أعظم كذاب على الله ، بعد أن كان أعظم أمين وصادق مع الناس ، وأن يجعلوا منه أعظم ممثل ومخاتل ومدجل يصطنع الخوف وصفرة الوجه أما مخديجة ، من أمر ما قد رأى من الوحي ، مع أنه لم يكن يمارس في الواقع إلا بعض أفكار وإلهامات داخلية مجردة •

ب ــ منهج تمحيص الدعاوى العلمية :

ولننتقل بعد هذا الى الجانب الآخر من الموضوع العلمي ، فنتساءل ما هو

المنهج العلمي الذي يلبي التحقيق في دعوى من الدعاوى ، أو فرضية من الفرضيات ، فيما تواضع عليه علماء الغرب ؟

فنقول : أما تلك الفرضيات المتعلقة بالعلوم الطبيعية ، فقد استطاعت أوربا بدءاً من عصر النهضة ، أن تبدع له منهجاً من التجربة والمشاهدة ، تتوافر فيه كل مقومات الروعة والدقة ، وليس هذا فقط ، بل إن الفكر الأوربي استطاع أن يستخدم سير الاكتشافات والاختراع ، وسيلة لدعم التجربة العلمية وشد أزرها ، والاستفادة العظيمة منها .

غير أن أوربا بمقدار ما تقدمت صعداً في ميدان العلوم الطبيعية ومناهجها التجريبية ، تخلفت في ميدان المدركات اليقينية الأخرى ، مما يدخل تحت اسم المجردات والغيبيات .

ولقد كان على علمائها ومفكريها أن يسلكوا حيال هذه المدركات أحد سبيلين: إما إغلاق باب البحث والتأمل بينهم وبينها إغلاقاً تاماً محكماً ، وعدّ ما وصلوا اليه من الكسب الذي نالوه من العلوم المادية الأخرى ، مغنياً لهم عن إنفاق أي أي جهد فكري فيما سواه .

وإما أن يشقوا اليها منهجاً من الموضوعية والنظر العلمي المجرد ، اذا كانوا لا يملكون انصرافاً عنها .

ولكي لا نظلم قلة من الباحثين ، تجردوا عن أمانيهم ، واستقبلوا بأفكارهم شطر بحوث حرة مجردة ، ينبغي أن نقول : إن هذا الوصف إنما ينطبق على العقلية التي تمثل أغلبية المفكرين الغربيين ، وفي أغلب القضايا العلمية ذات الطابع المذكور[1] .

---

(١) هذا البحث ماخوذ من كتاب (كبرى اليقينيات) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

هـ ـ دراسة العقيــدة الاسلامية

لقد اتخذت دراسة العقيدة الاسلامية منهجين :

أحدهما : منهج القرآن الكريم ، وهذا ما يمكن أن نسميه « مذهب السلف ».

الثاني : منهج الأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، وهذا ما نستطيع أن نسميه « مذهب الخلف » أو « منهـج المتكلمـين » ولكلٍ من هذيـن المنهجين أسلوبه وطريقته ، واليك توضيح ذلك فيما يلي :

١ ـ طريقة القرآن الكريم :

القارىء للقرآن الكريم والمتأمل في أسلوبه ومراميه ، يرى أن القرآن الكريم اعتمـد في دعوته الى الايمان بالله وما يتصـل بذلك ، على أسـاس فطري ، فكل انسان يكاد يكون مفطوراً على الاعتقاد بوجـود إله خالق لهذا العـالم ومدبر له وقائم على تسييره ، كما سترى ذلك عند الكلام على وجود الله سبحانه ،

فالناس جميعاً يكادون بفطرتهم يجمعون على ذلك ، مهما اختلفت أسماء هذا الخالق عندهم ، ومهما اختلفت صفاته بينهم ، يستـوي في ذلك الممعن في البداوة والمغرق في الحضارة ، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي ، اذ يرى اجماع القبائل ـ حتى التي لم تتصل بغيرها أي اتصال ، والتي لا تعرف من العالم إلا رقعتها من الارض ، وغطاءها من السماء ـ يرى اجماع القبائل على إله خالق لهـذا الكون ، وان اختلفوا في شيء من ذلك فخلافهم في الأسماء والاختصاص .

فالقرآن الكريم اعتمد على هذه الفطرة الكامنة في النفس الانسانية ، وخاطب الناس بما يوقظ هذه الفطرة ، ويبعث هذه العاطفة الدينية وينميها ويقويها ، ويصلح ما اعتورها من فساد الإشراك ، وانحراف في تصور الصفات لهذا الخالق العظيم ، وأدار الدعوة على هذا الاساس .

فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الانسان وعني به ، وأحاطه ببيئته ، فهـو ينتفع بها في تسيير شؤونه من أرض وسماء ، وليل ونهار ، وماء وهواء ، وشمس وقمر ، وحيوان ونبات .

والله سبحانه هو الذي خاق الوجود والكون كله ، ما ندرك منه وما لا ندرك ، وما نعلم منه وما لا نعلم ، وهو واجب الوجود لها كلها ، وواهب الحياة لما كان فيه حياة منها ، وواضع نظام هذا الكون الذي لا تحيد عنه ، « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خاق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون[1] » .

وغير الله لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، مهما كان هذا الشيء حقيراً ، « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز[2] » .

ثم إنه غذّى هذه الفطرة بطلب التأمل والنظر والتفكر الى كل ما حولنا من أشياء ، فذلك يسلم الى قوة في دين ، وإيمان في يقين ، « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر[3] » . « فلينظر الانسان الى طعامه ، أنّا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا

---

(١) يس : (٣٣ ــ ٤٠) .
(٢) الحج : (٧٣) .
(٣) الطارق : (٥ ــ ٨) .

فيها حبا • وعنبا وقضبا • وزيتونا ونخلا • وحدائق غلبا • وفاكهة وأبا • متاعا لكم ولأنعامكم[1] » • « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت • والى الارض كيف سطحت[2] » « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون[3] » « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[4] » •

هذا الى كثير من الآيات القرآنية التي تحث على النظر والتفكر ، مما تجده مبثوثاً في معظم الصور ، وخاصة السور المكية التي تغنى بقضايا الإيمان والعقيدة •

ولقد سلك في الدعوة الى التوحيد هذا المسلك ، فاستدل على ذلك بالمألوف من تنازع ذوي السلطة ، وما يؤدي اليه هذا النزاع من فساد « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون • لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون[5] » « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون[6] » •

كما استدل على وحدانية الخالق سبحانه بوحدة النظام ووحدة الخلق ، وخضوع المخلوقات جميعاً لنظام واحد لا تغيير فيه ولا تبديل « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً[7] » « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن

---

(١) عبس : (٢٤ — ٣٢) .
(٢) الغاشية : (١٧ — ٢٠) .
(٣) يونس : (١٠١) .
(٤) البقرة : (١٦٤) .
(٥) الانبياء : (٢١ — ٢٢) .
(٦) المؤمنون (٩١) .
(٧) الاسراء : (٤٤) .

في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء[1] » .

وهكذا سار أسلوب القرآن الكريم على هذا النهج في إثبات قدرته وعلمه ووحدانيته ، وهذا الأسلوب يساير الفطرة ويغذيها ، ويشعر كل انسان في أعماق نفسه بالاستجابة له والإصغاء اليه . حتى الملحد بعقله ، وهو منهج يوافق العامة وهم السواد الأعظم في كل أمة وكل جيل ، كما يناسب الخاصة وهم الأقلون دائما ، فطبقتا المجتمع يستويان في الاستفادة من هذا المنهج القرآني .

فنظرة العامي الى قوله تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق » تثير إيماناً ساذجاً بعجيب قدرة الله تعالى ، كما إن نظرة « البيولوجي » « عالم الحياة » الى منشأ الانسان وخلقه ، تثير عجبه وإعجابه وحيرته دائماً وإيمانه العميق ، إلا قليلا .

ونظرة العامي الى السماء وتلألؤ نجومها وسطوع شمسها وأقمارها ، تبعث عنده الإيمان بمدبر هذا الكون وعظمته ، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها ، أقدر على معرفة العظمة ، وأشد اعجابا بخالقها ومدبرها .

وهكذا الشأن في العامي والفسيولوجي ، والعامي والسيكولوجي ، والعامي والفيلسوف ، كلهم صالح لأن يتأثر بهذا المنهج على اختلاف في استعدادهم ومداركهم ، وحياة عقولهم وحياة عواطفهم .

ومن هنا لفت القرآن الكريم أنظار الناس كافة الى أن يتأملوا ويتفكروا فيما أودع الله في هذا الكون من المظاهر الدالة على وحدانيته وقدرته ، غير أنه سبحانه جعل للعلماء مزية على غيرهم بما أودع فيهم من المعرفة والعلم ، ونبه الى أنهم

---

(١) الحج : (١٨) .

هم الذين يخشون الله حق خشيته ، قال سبحانه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور[1] » .

فالقرآن الكريم لا يتألف برهانه من حيث الظاهر كما يتألف البرهان المنطقي من مقدمة صغرى وكبرى ونتيجة ، ولا يتعرض لألفاظ الفلسفة من جوهر وعرض وكيف وكم ، وما أشبه ذلك ، ولا يحاول أن يثير المشاكل العقلية ويفصلها ويبني عليها ، لأن القرآن لم يأت للفلاسفة وحدهم ، ولا للعلماء وحدهم ، فالفلسفة والعلم حظ أقل عدد من الناس ، وانما اعتمد كما ذكرنا على الفطرة والعاطفة ، وهما قدر مشترك بين الناس جميعاً ، فمن ثم كان ممن آمن علماء وجهلاء وفلاسفة وغيرهم ، ولو اتبع القرآن سبيل « علم المنطق » الذي اصطلح عليه المناطقة ، لما آمن من الناس إلا القليل .

ولكن جاء في القرآن آيات فيها غموض على الباحث ، فآيات تدل بظاهرها على الجبر ، وآيات تدل على الاختيار ، فكيف التوفيق بينها ؟ وما الرأي الحق الذي ترمي اليه هذه الآيات ؟

وجاءت آيات تثبت لله تعالى يداً ووجهاً ، وآيات تدل على أنه في السماء « أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور[2] » وآيات تذكر أن لله عرشاً ، وأنه سبحانه قد استوى على العرش ، كما وردت آيات تدل على تنزيه الله أن يتصف بصفة من صفات المخلوقين « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[3] » ، فكيف وقف المسلمون الأولون من هذه الآيات التي تسمى « المتشابه » ؟

---

(١) فاطر : (٢٧ — ٢٨) .
(٢) الملك : (١٦) .
(٣) الشورى : (١١) .

لقد كان موقف المسلمين الأولين من ذلك أنهم نزهوا الله سبحانه عما لا يليق به من الصفات ، وآمنوا بهذه الآيات فهماً اجمالياً ، ووكلوا تفصيل ذلك الى علم الله سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل .

وكان كثير من العلماء ذوي العقول الراجحة في العصر الاول ، يرى أن الدخول في تفصيل هذه المتشابهات والجدال فيها ليس من مصلحة المسلمين ، ولا يستطيع فهمه جمهورهم ، فأولى أن يكتفى فيها بالمعنى الاجمالي ، فقد قبل رسول الله ﷺ قول الجارية التي كانت تعتقد أن الله في السماء من غير استفصال ، لأن عقلها لا يقوى على أكثر من ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي قال : « كانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية ، فاطلعت ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها ، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون ، لكني صككتها صكة ، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي ، قلت يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال ائتني بها ، فأتيته بها فقال لها : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : أعتقها فانها مؤمنة [1] » .

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : « حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ ! » .

وجاء من بعدهم قوم ساروا على هذا المنهج ، فقد روي عن الوليد بن مسلم أنه قال : « سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد عن الأخبار التي جاءت في الصفات ، فقالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف » .

وسئل ربيعة الرأي عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » .

---

(١) اخرجه مسلم في كتاب المساجد برقم : (٥٣٧) .

وروي عن مالك بن أنس أنه سئل : كيف استوى ؟ فأطرق برأسه ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

فهؤلاء رأوا الوقوف عندما جاء في الدين من غير تفسير ، لأن ما يتعلق بالله وصفاته شيء وراء العقل ، لا يمكن أن يصل اليه الانسان إلا بأن يقيس الله على نفسه ، وعالم الغيب على عالم الشهادة ، وذلك خطأ ما بعده خطأ .

فالأولى أن نقف على ما ورد فيه النص من غير سؤال بكيف ولا أين ، وقد استمرت هذه المدرسة الى العصر العباسي وبعده ، ولا تزال قائمة الى اليوم ولو على نطاق ضيق ، فكان زعيم هذه المدرسة في عهد العباسيين الإمام أحمد بن حنبل، وفي العصور بعده الإمام أبو العباس ابن تيمية .

وهذه المدرسة هي الأحكم والأسلم كما سنبين ذلك عند البحث عن صفات الله جلّ وعلا .

ب ـ طريقة المتكلمين :

وأما طريقة المتكلمين وشيوخهم فتغاير طريقة السلف الذين اعتمدوا طريقة القرآن الكريم طريقة لهم ، فهم آمنوا بالله تعالى وبما جاء به رسوله الكريم ، إلا أنهم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية ، فنقلوا الوضع من فطرة وعاطفة ومخاطبة لهما بالنظر في آيات الله في الكون ، فنقلوا ذلك الى دائرة العقل والنظر ، ومن فن جميل الى علم ومنطق ، ومن قلب الى رأس ، فبدلاً من أسلوب القرآن في قوله تعالى : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض[1] » وضعوا طريقتهم في بيان حدوث العالم ، واضطر بعضهم ذلك الى القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ ، واقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها ، الى أن يصلوا الى اثبات وجود الله تعالى ، وهكذا سلكوا هذا السبيل في اثبات وحدانيته وسائر صفاته

---

(١) ابراهيم : (١٠) .

سبحانه ، وكانت كـل خطوة من هذه الخطوات تثـير أسئلة وجدلاً ، وتفتـح موضوعات جديدة ، فساروا فيها الى نهايتها •

هذه ناحية ، والناحية الاخرى أنهم لم يقنعوا ــ كما قنع غيرهم ــ بالايمـان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل ، فجمعوا الآيات التي قـد يظهر بينها خـلاف ، كالجبر والاختيـار ، وكالآيـات التي ذكر فيها اليـد والوجه والجهـة والرؤيـة وما أشبه ذلك ، وسلطوا عليها عقولهـم ، وجرؤوا على ما لم يجرؤ عليـه السلف الصالح ، فأداهم النظر في كل مسألة الى رأي ، فاذا وصلوا اليه عمدوا الى الآيات التي يظهر لهم أنها تخالف الأولى فأوّلوها ، فكان التأويل من أهم مظاهر المتكلمين، فاذا أداهم البحث الى أن نفي الجهة عن الله تعالى ، يستلزم أن أعين الناس لا يمكن أن تراه تعالى ، لأنها ركبت تركيباً خاصاً ، بحيث لا ترى إلا ما كان في جهة ، أوّلوا الأخبار الواردة في رؤية الناس لله ، وهكذا فالتأويل عنصر مـن أهم عناصرهم ، وأكبر مميز لهم عن السلف •

وطبيعي أن هذا المنحى في التأويل ، واعطاء العقل حريتـه في البحث والنظر ، واتجاهه الى أية جهة يراها ، يستلزم اختلافاً كبيراً ، فان أدى النظر قوماً الى الاختيار وتأويل آيات الجبر ، قد يؤدي النظر غيرهم الى اثبات الجبر وتأويل آيات الاختيار•

وهذان الأمران ــ أي الاعتماد في البراهين على العقليات وتأويل النصوص ــ هما اللذان يعللان ما استفاض في عصور المتكلمين من خلاف ومن أقوال لا عـداد لها ، ومن براهين لا حصر لها ، مما لم يكن معروفاً في عهد النبي ﷺ ولا الصـدر الاول • وستدرس بعض ذلك ان شاء الله تعالى في مقررات السنة الثالثة •

والذي يظهر أن الذي دعا المتكلمين الى سلوك هذا المسلك ما تحدثنا عنـه سابقاً في مبحث « نشأة علم الكلام » من أن أوائل المتكلمين قد دخلوا في حـوار عميق مع أقوام من الملل الأخرى من يهودية ونصرانية ووثنية ، وكانت قد تفلسفت عقولهم ، وهؤلاء لم يكفهم في الإقنـاع أن تذكر لهم آية من القرآن الكريم ، أو حديثاً من السنة المطهرة ، بل يريدون الرجوع الى قضايا تستند الى القدر المشترك

من العقل ، فاضطر ذلك المتكلمين أن يدخلوا في منهجهم ، ويسلكوا سبيلهم ، ويؤلفوا الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ، ويؤلفوا ـ كما فعل الجاحظ ـ الكتب في اثبات النبوة على العموم ، وفي اثبات نبوة محمد ﷺ على الخصوص ، مما يدل على وجود قوم بينهم كانوا ينكرون الألوهية يسمون الطبيعيين أو الدهريين ، وقوم لا يعترفون بنبوة ما ، وقوم يعترفون بالنبوة ولكن يجحدون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فدخلوا معهم في جدال حاد ، وفلسفوا أدلتهم كما فلسف المخالفون أدلتهم[1] .

وبعد فأي المنهاجين هو الأولى والأقوى في الدلالة على الأمور الاعتقادية وأقرب الى السلامة ؟

لا شك أن ما ذهب اليه السلف من اعتماد على الأسلوب القرآني والمنهج الرباني هو الأفضل والأحكم ، وحسبنا في ذلك أن نورد لك ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته حيث قال رحمه الله بعد كلام طويل :

(فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب ، وأمرنا بالتوحيد المطلق « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفه رأي من يرى ذلك ، وأعلمه أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى

---

(١) اخذ هذا البحث بتصرف من كتاب « ضحى الاسلام » لاحمد امين : (٣/١ ـ ١٧) . وانظر الكتابين اللذين اشار اليهما المؤلف « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الادلة من عقائد الملة » وهما لابن رشد .

أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم ، والكافـة لما أقروا به ، لكنهـم يتبعون الكافة في اثبات هـذه الأصناف ، لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية ، فاذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن ادراكاتنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله أكثر من خلق الناس ، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتبـع ما أمرك الشارع بـه مـن اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمـع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طـوره ، فان ذلك طمع في محـال .

ومثـال ذلك رجـل رأى الميزان الذي يوزن به الـذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه صادق ، لكن العقل قـد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون لـه أن يحيط بالله وبصفاته ، فانه ذرة مـن ذرات الوجود الحاصل منه ، وتفطن في هذا الغلط ومن يقدم العقل على السمع في أمثال هـذه القضايـا ، وقصور فهمه واضمحـلال رأيه ، فقـد تبين لك الحـق في ذلـك[1]) .

(١) مقدمة ابن خلدون : (٤٥٩ ــ ٤٦٠) .

القسم الثاني

الله والكون والانسان

في الالهيــات

صفات الله تعــالى

يذكر علماء العقيدة الاسلامية أن لله عزّ وجل عشرين صفة هي : الوجود ــ الوحدانية ــ القدم ــ البقاء ــ قيامه تعالى بنفسه ــ المخالفة للحوادث ــ العلم ــ الإرادة ــ القدرة ــ السمع ــ البصر ــ الكلام ــ الحيــاة ــ كونه حياً ، كونــه عيلماً ــ كونه مريداً ــ كونه قادراً ــ كونه سميعاً ــ كونه بصيراً ــ كونه متكلماً . ويذكرون أن لله صفات أخرى غير هذه الصفــات كالرحمة والعدل ، ولكن هــذه الصفــات العشرين الآنفــة الذكر هي التي يجب على كل مكلف أن يعلمها علمــاً تفصيليــاً ، ويقيم عليها البرهان ، كل على حسب طاقتــه ، قال الإمــام السنوسي رحمــه الله :

« ويجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف ما يجب في حق مولانا جلّ وعزّ ، وما يستحيل وما يجوز ، وكذلك يجب عليــه أن يعرف مثل ذلك في حق الرســل عليهم الصــلاة والســلام ، فمما يجب لمولانا جــلّ وعزّ عشرون صفــة ، وهي الوجود ... » ثم سرد الصفات العشرين مع شرح موجز لها[1] .

وقد درج العلماء على تقسيم هذه الصفات الى أربعة أقسام :

١ ــ نفسية : وهي الوجود ، وسميت نفسية لأنها تدل على الذات دون شيء زائــد عليهــا .

---

(١) حاشية السنوسية للامام ابراهيم البيجوري (١٢ فما بعدها) .

٢ ــ سلبيــة : وهي ما كان مدلولها سلب صفة لا تليق به سبحانه وتعالى ، وهي خمس : الوحــدانية ــ القــدم ــ البقاء ــ المخالفــة للحوادث ــ **قيامــه** تعــالى بنفســه •

٣ ــ صفات المعاني : والمراد بها كل صفة قائمة بذاته سبحانه ، تستلزم لــه حكماً معيناً ، فمثلاً القــدرة صفة معنى لأنهــا تستلزم حكماً معيناً ، وهو **كونــه** قــادراً ، وهكذا[1] •

وصفات المعاني سبع هي : القدرة ــ الإرادة ــ العلم ــ الحياة ، السمع ــ البصر ــ الكلام •

٤ ــ الصفات المعنوية : هي الأحكام التي تترتب على اتصافه بصفات المعاني ، وهذه الصفات سبع ، كما أن صفا تالمعاني سبــع ، لأنها مترتبة عليهــا ، وهي : كونه عالماً ، قادراً ــ مريداً ــ حياً ــ سميعاً ــ بصيراً ــ متكلماً ــ •

ونحن فيما يلي نتحدّث عن صفات الله تعالى على وفق هذا التقسيم •

اولا ــ الصفة النفسية : الوجود :

آ ــ معنى الوجــود :

لقد بينا آنفاً أن المراد بالصفة النفسية الصفة الثبوتية التي يدل الوصف بهــا على الذات دون معنى زائد عليها • ككون الجوهر جوهراً وكونه شيئاً موجوداً •

والصفة النفسية صفة واحدة كما أسلفنا ، وهي « الوجود » •

هذا ولا بدّ من بيان أن الوجود ينقسم الى قسمين : وجود ذاتي ، ووجود تبعــي •

---

(١) حاشية الباجوري على الجوهرة : (٣٨) •

فالوجود الذاتي : ما كان المتصف به غير مفتقر في الاتصاف به الى علة تؤثر فيـه الوجـود .

والوجود التبعي : ما كان المتصف بـه مفتقراً في الاتصاف بـه الى علة تؤثر فيـه الوجـود .

ووجود الله تعالى من القسم الذاتي ، أي إنه سبحانه لا يفتقر في وجوده الى علة تؤثر فيه الوجود ، وهذا الوجود هو الوجود الكامل ، وهـو لا يكون إلا لله وحده سبحانه ، وأما ما عداه فوجوده من القسم التبعي ، فما من موجود غير الله تعالى ، إلا وهناك علة لوجوده ، ويفتقر في وجوده الى شيء آخر .

ب ـ ادلة وجوده سبحانه :

الإيمان بوجود الله عزّ وجل أساس مسائل العقيدة كلها ، وعنه تتفرع بقيـة الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل بها ثم الإيمان بها .

إن ما تراه من حقائق الكون كلها انما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى ألا وهي ذات الله عزّ وجل ، ومن المحال أن تدرك ما هية الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تدرك أصلها ومنبعها الاول ، فكان لا بدّ اذاً لكي تستطيع التعرف على الكون من التعرف على خالقه أولاً .

ولما للإيمان بوجود الله من الأهمية ـ كما أسلفنا ـ عني العلماء باقامة الأدلة المتنوعة ، والبراهين القاطعة على ذلك ، فأتوا من الأدلة على ذلك بما لا يحصى ، ونحن فيما يلي نذكر بعض هذه الأدلـة .

الدليل الاول ـ دليل الفطرة والبداهة :

١ ـ الايمان بالله فطرة :

الإيمان بوجود الله ، والاعتقاد به رباً خالقاً لهذا الكون ومدبراً له ومتصرفاً

فيه ، هو فطرة عند معظم الناس ، لا يحتاج الى اقامة برهان عليه ، كما لا يحتاج الى برهان على وجود الغرائز الانسانية •

بل هو شعور يشرق في أعماق الانسان ، اذا تأمل في نفسه وفي الكون حوله ، إنه ليشعر شعوراً أكيداً بوجود سلطة كبرى تهيمن على هذا الكون ، تمنحه التنظيم ، وتتصرف فيه بالحياة والموت ، والبناء والفناء ، والتغيير والتطوير • والحركة والسكون ، وجميع أنواع التغييرات الحكيمة فيه •

والشعور الفطري في الانسان بوجود هذه السلطة الكبرى ، هو من أقوى الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه ، اذ إن كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها ، ومهما تقدمت العلوم والمكتشفات فانها لا تزيدنا شيئاً غير ما توصلنا اليه بفطرتنا •

إن الأم لتشعر بعاطفة الأمومة ، دون أن تتطلب البرهان على وجودها ، وسواء أعلمت أن السرّ في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه أم لم تعلم •

وإننا نحس بالجوع فنأكل ، سواء علمنا أن الأكل وسيلة من وسائل حياتنا أم لم نعلم • ونحس بالبرد فنتخذ الوقاية منه ، سواء أعرفنا أن البرد عامل من عوامل الهدم في بناء جسدنا أم لم نعرف •

وإننا نشعر بوجود روح فينا فندافع عنها ، ونحرص على بقائها ، دون أن نحس بها باحدى حواسنا الظاهرة ، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها ، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها ويعتقد بوجودها •

ثم ألسنا نشعر في قرارة نفوسنا بالعواطف والوجدانيات ، كالحب والبغض والرغبة والكراهية ؟ !

فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا ؟

هل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها ، وهي حق لاشك فيه؟!

إن إحساس الانسان بوجود الخالق ، وتلهفه دائماً لمعونته وامداده وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير الى قدرته وعلمه وحكمته هـو احساس فطري صادق ، وهو من أكبر الأدلة على وجوده سبحانه •

إنه إحساس ليس خاصاً بفرد من الناس ، بل هو إحساس وشعور تشترك فيه جميع الخلائق المدركة ، على اختلاف نزعاتهـا ومستويات ثقافتها ، تجـد ذلك في البيئات البدائية ، وفي المدن المتحضرة ، وفي منتديات المثقفين ، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات •

إنه شعور مشترك بين جميع الناس ، يقوم في نفس الطفل الصغير ، والانسان البدائي ، والانسان المتحضر ، والجاهل والعالم ، والباحث والفيلسوف ، والعبقري والمفن ، والخبير في المعمـل ، والمرأة في عقر دارها ، كل هـؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق ، وأنـه القابض على ناصية كل شيء • ألا يكفي ذلك دليـلاً عـلى وجـوده ؟ !

هذا ولقد أشار القرآن الكريم الى هذا الدليل ــ دليل الفطرة ــ بقولـه : « قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السمـوات والأرض يدعوكـم ليغفر لكم[1] » • وقال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديـل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[2] » • وقال جـل وعز : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون[3] » •

وفي ذلك يقول ديكارت : « إن الله مبدأ العلم كما إنه مبدأ الوجود ، وهـو

(١) ابراهيم : (١٠) •
(٢) الروم : (٣٠) •
(٣) البقرة : (١٣٨) •

مبنى اليقين النظري ، فنحن نعرف وجود الادراك ووجود الله الذي يستنتج منه بلا واسطة معرفة بديهية ، وأما وجود العالم فانما نعرفه بالصدوقية الإلهية[1] » .

ب ـ كمون هذه الفطرة وتجليها عند الشدائد :

من المعلوم أن فطرية الايمان بالله لا تعني بالضرورة أن يكون الانسان متوجها الى الله دائماً ، ملتفتاً اليه ، متذكراً إياه في جميع حالاته وآناته ، إذ رب عوامل تتسبب في اخفاء هذ االاحساس في خبايا النفس وحناياها ، وأما عندما يرتفع ذلك الحجاب المانع عن الفطرة ، اذا بالانسان يسمع نداء فطرته بوضوح ، ومواجهة الانسان للمخاطر والشدائد من أبرز العوامل على ازالة ما حجب الفطرة عن الايمان بوجود الله ، والى هذا أشار القرآن بقوله : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين[2] » .

ج ـ انحراف الفطرة :

غير أن انحراف الفطرة التي فطر الله الناس عليها قد يصيبها بعض الآفات والعاهات والصوارف كالسمع والبصر ، فتشوهها وتخرجها عن طبيعتها ، كما يحدث ذلك في الحواس كالسمع والبصر ، فقد يلد المولود سليم الحواس والاعضاء ، إلا أنه قد يعترضه عارض يفقده سمعه أو بصره أو حسّه أو شيئاً من أعضائه .

والى هذه الحقيقة قصد رسول الله ﷺ بقوله : « ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة

---

(١) انظر كتاب موقف العقل والعلم لمصطفى صبري : (١/٢١٢) وقد شرح مراد ديكارت بقوله : يقول : ان لنا ميلا لا قبل لنا برده الى التصديق بوجود الاجسام ، فهذا الميل فينا من الله ، فلو لم تكن الاجسام موجودة في نفس الامر لكان الله قدخدعنا .
(٢) يونس : (٢٢) .

جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقـول أبو هريرة راوي الحـديث : واقرؤوا إن شئتم : « فطرة الله التي فطر الناس عليهـا لا تبديل لخـلق الله[1] » .
و في الحديث القدسي : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهـم أتتهم الشياطـين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لـم أنزل به سلطانـاً[2] » .

ودليل الفطرة هذا هو الدليل الذي اعتمده الإمام الغزالي مضافا الى الأدلة القرآنية التي توقظ الفطرة ، ولم يعرج على غيره مـن الأدلة الا اقتـداء بالعلماء النظار ، فقد قال رحمه الله في كتابه « إحياء علوم الدين » :

« الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى ، وأول ما يستضاء به مـن الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار ، ما أرشد اليه القرآن ، فليس بعـد بيان الله سبحانـه بيان » ثم ساق آيات تلفت نظر الانسان الى ما في هذا الكون من عجائب الخلق ، ليتأمل بها ويذعن لوجود خالقها ، ثم قال :

فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل اذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات ، وأدار نظره على عجائب خلـق الله في الأرض والسموات ، وبدائـع فطرة الحيوان والنبات ، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عـن صانع يدبره وفاعل يحكمه ، ويقدره ، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ، ومصرفة بمقتضى تدبيره ، ولذلك قال تعالى : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » ولهذا بعث الأنبيـاء صلوت الله عليهم لدعوة الخلـق الى التوحيد ، ليقولوا : لا إله إلا الله . وما أمروا أن يقولوا : لنا إله وللعالم إله ، فان ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوئهم . وفي عنفوان شبابهم ، ولذلك قال الله عزّ وجل : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » وقـال

---

(١) رواه البخاري ، والبهيمة الجمعاء : مجتمعة الاعضاء لم يذهب من بدنها شي.
(٢) رواه مسلم . اجتالتهم : استخفوا بهم وذهبوا بهم وازالوهم عما كانوا عليه.

تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » . فاذاً في فطرة الانسان وشواهد القرآن ما يغني عن اقامة البرهان ، ولكنا على سبيل الاستظهار ، والاقتداء بالعلماء النظار نقول » . ثم ساق رحمه الله الأدلة العقلية على وجود الله جل جلاله[1] .

فاذا انحرفت الفطرة وتشوهت كان لا بد من اقامة برهان بل براهين ، لتدل على وجود الله تعالى ، لتعود الفطرة الى سلامتها وصحتها وأصالتها .

ومما سبق ندرك أنه لو ترك الانسان وشأنه من غير أن يعترض سبيله معترض ، ما نشأ إلا مؤمناً بوجود خالقه ، ومعترفاً بحاجته اليه ، يحس بهذا في أعماق نفسه ، من غير أن يكون بحاجة الى دليل وبرهان ، بل يتحقق ذلك بداعي الفطرة السليمة الصافية .

الدليل الثاني بطلان الرجحان بلا مرجح « دليل الإمكان » :

معنى الرجحان بلا مرجح : أن يكون الشيء جارياً على نسق معيّن ، ثم يتغير عن نسقه ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقاً ، وذلك ككفتي الميزان المتساويتين ترجح إحداهما على الأخرى بدون أي سبب من الأسباب ، فهذا من الأمور الواضحة البطلان ، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه ، ولا بدّ لتحويله عن حاله السابقة من سبب محوّل ، ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد ، وينسخ عنه تلك الحال القديمة .

اذا عرفت هذا فلنطبق هذا البرهان على مسألة وجود الله عزّ وجل .

إن جميع الأمور والأشكال المفروضة في الذهن ، لا تعدو أن تكون متصفة

---

(1) احياء علوم الدين (١/ ١٠٥ــ ١٠٦) .

بأحد أوصاف ثلاثة : الوجوب ــ الاستحالة ــ الإمكان : « الجواز » . فما اتصف بالوجوب هو ما يحيل العقل عدمه ، ومـا اتصف بالاستحالة هو ما يحيل العقـل وجوده ، وما اتصف بالإمكان هو ما لا يحيل العقل وجوده ولا عدمه .

وهذا الكون الذي نراه في جملته ، انما هو من نوع الممكن ، أي إن العقـل يجزم بأنه لا يترتب أي محال على فرض انعدامه ، ويرى أن من الممكن أن توجـد أسباب تعدمه من أصله ، دون أن يستلزم ذلك محالاً لا يقبله العقل ، إذاً فوجـود الكون بحد ذاته ليس ضرورياً ، وليس ضربة لازب ، وكـل ما كان هذا شأنـه ، فلا بدّ له من مؤثر خارجي يرجح فيه أحـد جانبي الإمكان ويبعد عنـه الجانب الآخر ، وهذا يعني أنه لا بدّ لهـذا الكون الذي كـان في أصله قابلاً لكل مـن الوجود والعدم على حدّ سواء ، لا بدّ له من قوة خارجة عنـه مؤثرة فيه خصصته لجانب الوجود ، وتلك القوة هي قوة الله تعالى .

فان قلت إنني أفرض أنه وجد بذاتـه دون أية قوة مؤثرة فيه مـن الخارج ، استلزم فرضك هذا القول برجحان الشيء من دون مرجح له ، وهو باطل كما علمت، فبطلت الفرضية التي استلزمها أيضاً .

ونزيد المسألة ايضاحاً فنقول : لا ريب أنه قد أتى حين من الدهر لم يكن هذا الكون فيه شيئاً مذكوراً ، اذ كان العدم المطلق هـو المنبسط في مكان الوجـود اليوم ــ كما أثبتنا ذلك سابقـا ــ ومعنى ذلك أن كفة العـدم كانت اذ ذاك هي الراجحة ، وكان الأمر مستمراً على ذلك ، ثم إن الأمر انعكس بعدئذ فترجحت كفة الوجود على كفة العدم المطلق ، فان قلت إن العالم وجد بقوة ذاتية فيه دون حاجـة الى موجد ، فمعنى ذلك أنك تقول برجحان كفة الوجود على كفة العدم ، وانعكاس الأمر الـذي كان مستمراً دون أن يوجد أي عامـل لهذا الرجحـان أو الانعكاس الطارىء ، وهذا أمر يعرف الانسان بطلانه بمحض الفطرة والبداهة .

انك لو ذهبت تزعم بأنك قـد أمسكت الميزان من حلقه الدقيـق ، وتركت الكفتين فيه بوزن واحد ، دون وجود أي ثقل اضافي في إحداهما ، وبينما الكفتان

متساويتان اذا بواحدة منهما ترجح والأخرى تطيش دون أي مؤثر خارجي يتصوره الذهن ، إنك لو زعمت ذلك ، لتركت الناس كلهم يشفقون على فكرك وعقلك ، كيف لو قلت لهم : إنك قد وضعت ثقلاً في احدى الكفتين ، وبينما أنت تمسك الميزان من حلقه ، والكفة الثقيلة راجحة تنوء بحملها ، اذا بالأمر يختلف ، فتطيش الثقيلة بثقلها ، وتهبط الخفيفة رغم خفتها هكذا من غير سبب ٠

إن القول بأن العدم المطلق المستمر ، تحول فجأة الى وجود يتفاعل ويتوالد دون أي مسبب خارجي لهذا التحول ، ليس بأقل استحالة وغرابة من دعوى صاحب الميزان الآنف الذكر ٠

فاذا ثبت لدينا أن هذا الكون العظيم لا بدّ من مرجح رجح وجوده على عدمه ، وأن هذا الكون قد وجد على أبدع طراز وأحسن نظام ، ثبت لنا أن أن صانع الكون هو الخالق العظيم الواجب الوجود ، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ٠

ولقد أشار القرآن الكريم الى هذا الدليل في آي كثيرة ، فقال تعالى : « ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً[1] » وقال جلّت قدرته :

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون[2] » ٠ وقال تعالى : « ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد[3] » ٠ وقال عزّ وجل : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ٠ أفرأيتم ما تمنون ٠

---

(١) الفرقان : (٤٥) ٠
(٢) القصص : (٧١ ــ ٧٢) ٠
(٣) ابراهيم : (١٩) ٠

أ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون • نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين • على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون • ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون • أفرأيتم ما تحرثون • أ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون • إنا لمغرمون • بـل نحر محرومـون • أفرأيتم الماء الـذي تشربون • أ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون • لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون • أفرأيتم النار التي تورون • أ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون • نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين • فسبح باسم ربك العظيم[1] » •

هذا ولا بدّ هنا من بيان أن الترجيح من غـير مرجح غير الرجحان من غـير مرجح • اذ الأول جائز ، والثاني مستحيل ، ولنضرب مثالاً على الأول وجـوازه فنقول : اذا كنت ظمآن ، وطلبت ماءً لتشرب ، فأتي اليك بطبق عليه عدة كؤوس ، فمددت يدك فأخذت كأساً منها ، فهنا قد رجحت كأساً على آخر وأخذته لتشربه ، وهنا نتساءل : ما هـو الداعي لك الى أن تختار هـذا الكأس بعينه عن سـائر الكؤوس ؟ لا شك أنك قد تجيب بأنه لا سبب ، بل رجحت دون أن يكون هنـاك مرجح ، واخترت هذا الكأس دون أن يكون هنا كسبب لاختياره ، وهذا أمر جائز ممكن يقع كثيراً في حياتنا اليومية ، أما انتقال الكأس بنفسه الى يـدك من غير أن يكون هناك سبيل لانتقاله فهذا من الأمور المستحيلة •

الدليل الثالث : بطلان التسلسل :

بعد أن قدمنا دليل بطلان الرجحان بلا مرجح ، لو أن الانسان كابر وقـال : أنا أفرض أن العالم قديم في وجوده هذا ، فهو لا أول له ، ولا سبق للعـدم عليه ، وبذلك لا توجد إلا كفة واحدة ، فما هو الدليل على وجود الله ؟

هنا لا بدّ من الانتقال الى حقيقة أخرى وهي بطلان التسلسل •

---

(١) الواقعة : (٥٨ ــ ٧٤) •

إن هذا القائل يدعي أن هذا العالم مستمر بحكم التوالد الذاتي الذي لا أول له ، وهذا الادعاء يستلزم إمكان التسلسل ، ولقد قرر العقلاء كلهم بحكم البداهة أن التسلسل محال ، فيتبين بذلك استحالة الادعاء الذي أدّى اليه •

ومعنى التسلسل : أن يفرض أن المخلوقات كلها متوالدة بعضها عن بعض الى ما لا نهاية ، بحيث يكون كل واحد معلولاً لما قبله ، وعلة لما بعده دون أن تتصل هذه السلسلة أخيراً بعلة واجبة الوجود ، هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات •

إن هذا الفرض باطل ، يحكم العقل باستحالته بالضرورة ، إذ إن سلسلة المخلوقات الممكنة مهما طالت وطالت ، فان استمرار طولها لا يخرجها على كل حال عن كونها ممكنة ، والممكنات لابدّ لرجحان أحد طرفي الإمكان فيها من مرجح كما قلنا •

فهذه السلسلة الطويلة التي تقول : إنها ماضية في غور سحيق لا تنتهي ، مكونة من حلقات كل منها لم يكن يوجد لولا أن الحلقة السابقة عليها أعطتها الحياة والوجود • وتلك التي أعطتها الحياة كذلك ، إذاً فحلقات السلسلة كلها لا تأثير ذاتي في واحدة منها مهما طالت ، وإذاً فلكي نصدق أنها موجودة لا بدّ أن تنتظر ظهور المؤثر الخارجي الذي أمد السلسلة بالحياة التي راحت بدورها تنتقل من حلقة الى حلقة وإلا كان لا بدّ من الجزم بأحد أمرين : إما أن السلسلة مفقودة ، إذ لم يثبت وجود ذلك الذي قذف فيها الحياة ، وإما أنها موجودة ولكنها تنبع أخيراً من ذات وجبة الوجود تؤثر فيها • ولا تتأثر هي بشيء ، فأما الاول فظاهر البطلان ، لأن الحس والمشاهدة يكذبانه ، والعالم موجود ، وتوالد العلل أمر مرئي ومحس • بقي الأمر الثاني ، وهو تيقن أنه لا بدّ من مصدر ذاتي وهبه الحياة والقدرة على الحركة والتطور والتوالد ، فبطل التسلسل المذكور •

ولنضرب للمسألة أمثلة أقل صغراً من حجم العالم ، كي يزداد الأمر بداهة ووضوحاً :

١ً ــ لو وقفت أدعي أمامك حقيقة علمية استيقنها ، ولما سألتني الدليــل على ذلك ذكرت لك برهاناً هو نفسه دعوى تحتاج الى برهان ، ولما سألتني عن برهان هذا البرهان جئتك ببرهان مثله في التوقف على برهان آخر ، وهكذا الى ما لانهاية. أي : دون أن تنتهي هذه البراهين كلها الى حقيقة ضرورية معروفة بالبداهة ، فانك تكذبني في دعوى اليقين بهذه الحقيقة ، بل تكذبني في وجودها أصلا ، إذ لم يقـم عليها أي برهان بعد ، وكل البراهين المتسلسلة التي فرضنا أنها لا نهاية لهـا ليست إلا ظلالاً تنتظر أصلها الأول ، فان لم يوجد ذلك الأصل ، فهذه الظلال نفسها غير موجودة ، ومن ثم فان الحقيقة المدعاة أيضاً تكون غير موجودة .

٢ً ــ أبصرت في دار صديقك نباتاً ذا زهر جميل ورائحة زكية ، ولما سألتـه من أين وقع على هذه الزهرة الجميلة ، قال إنهـا فرع أخـذه من أصل عنـد دار جـاره ، ولما سألت الجار أجابك هو الآخر : بأن الذي عنده ليس إلا فسخاً حصل عليه من بيت أحد أصدقائه ، ثم أجابك الثالث أيضاً بمثل جـواب الثاني ، وهكذا أجاب الرابـع فالخامس فالسادس ... ونفرض أن السلسلة استمرت على هـذه الشاكلة ، كل منهم يجيبك بأن الذي عنده ليس إلا فسخاً من غـيره ، وعبثاً رحت تسير مع هذه السلسلة لتبحث عن أصل هـذا النبت ومولده الذي أعطاه الظهـور والتكوين ، وقابليـة التفرع ، فما الذي يحكم بـه عقلك على هذا الكلام عنـد أدنى تفكـير ؟

لا ريب أنه يحكم بكذب هذا الكلام ، لأن التفرع مهما توالد وتكاثر فانـه لا يكون إلا نتيجة وجود أصل ثابت بنفسه ، يمدّ تلك الفروع بالوجود أو الحياة ، وإذ قيل إنه لا يوجد له أصل ، وفرضنا أن القائل صادق ، فمعنى ذلك أنه لم يولد بعد ، وإذاً فلا وجود لشيء من هذه التفرعات المزعومة أيضا ، أما اذا كنت تجـد فروع النبات بعينك ، فمعنى ذلك أن له أصلاً ذاتياً أمدّ هذه الفروع كلها بالوجود، مهما كان هذا الأصل بعيداً ، ومهما كنت لا تتذكره أو تقف عليه .

إن أي عاقل يدرك أن تسلسل العلل التي تكتسب القدرة على العلية من العلة

التي قبلها ، مثل تسلسل الأصفار ، وتسلسل فروع النبات ، وتسلسل البراهين المذكورة .

ولذا فان أي عاقل لا يستطيع أن يزعم أن وجود العالم كله ليس قائماً إلا على سلسلة متوالدة من غيرها دون أن يكون قبلها مؤثر ذاتي خارج عن حقيقتها ، واجب الوجود ، إلا إذا صح له أن يزعم بأن قيمة المليون لم تتكون إلا من أصفار تتعاور القيمة فيما بينها ، دون أن تستند الى رقم ذاتي قبلها ، أو أن يزعم بأن الورد المتوافر في الحدائق والبيوت ، ليس في أصله إلا فروعاً مأخوذة من بعضها دون أن ترجع الى نواة كانت قد أمدتها بأصل الوجود .

ولقد قال العلامة الشيخ مصطفى صبري عليه رحمة الله ، في كتابه : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » في موضوع بطلان التسلسل : « فاذا قلت للخصم الملحد الذي يدعي كون جميع الموجودات محتاجة الى علة موجدة ، ولا يعترف بموجود واحد واجب الوجود ، أي غير محتاج الى موجد ، اذا قلت له : ماذا علة هذ االموجود الذي يحتاج الى علة موجده ، فأجاب بأنها وجود موجود آخر يتقدمه ، ويحتاج مثل الموجود الذي سألت عن علة وجوده الى علة موجده ، ثم قلت له : وماذا علة وجود ذلك الموجود المتقدم فأجاب : بأنها موجود ثالث أقدم في الوجود ، ومثل الثاني في الحاجة الى العلة الموجدة ، ولم يقطع سلسلة الجواب على هذا المنوال ، مهما أطلت وتوغلت في السؤال ؛ فاعلم أن هذا الخصم يخدعك ويغالطك ويعللك في أجوبته بما ليس من الجواب في شيء ، كما يخدع نفسه قبلك ويغالطها ويعللها ، أعني أنه يعجز عن إرادة علة لوجود ذلك الموجود الذي سألته أولاً عن علة وجوده ، فيفر من الجواب على سؤالك ، غير شاعر أنه يفر ، ثم يحاول أن يستتر فراره من الجواب بإحالة الأمر على ظلمات ماض لا بداية له ، والذي يريكه علة قبل علة ، ويستمر في الإرادة حتى تحصل سلسلة من العلل لا بداية لها ، فليس شيء من ذلك بعلة ، إذ لا أصل له ولا وجود[1] » .

(١) الكتاب المذكور : (٢/١٨٢ ـ ١٨٣) .

هذا وقد أقام المتكلمون على إبطال التسلسل برهاناً ، أسموه برهان التطبيق ، وقد ذكر الشيخ الباجوري رحمه الله في حاشيته على الجوهرة هذا البرهان فقال : « وتقريره أنك لو فرضت سلسلتين وجعلت احداهما من الآن الى ما لا نهاية له ، والاخرى من الطوفان الى ما لا نهاية له ، وطبقت بينهما بأن قابلت بين أفرادهما من أولهما ، فكلما طرحت من الآنية واحداً طرحت في مقابلته من الطوفانية واحداً ، وهكذا ، فلا يخلو إما أن يفرغا معاً ، فيكون كل منهما له نهاية ، وهو خلاف الفرض ، وان لم يفرغا لزم مساواة الناقص للكامل ، وهو باطل ، وان فرغت الطوفانية دون الآنية كانت الطوفانية متناهية والآنية كذلك ، لأنها انما زادت على الطوفانية بقدر متناه ، وهو ما من الطوفان الى الآن ، ومن المعلوم أن الزائد على شيء متناه بقدر متناه يكون متناهياً بالضرورة[1] » .

هذا ونختم هذ االدليل بما قاله « رونويه » مؤسس الفلسفة الانتقادية الحديثة ، في كتابه الذي ألفه انتقاداً لفلسفة « كانت » :

« نحن نقول مع أرسطو واضع دليل المحرك الأول في اثبات الواجب ، والذين جاؤوا من بعده ممن لا يحصى عددهم من الفلاسفة ، وحتى مع « كانت » نفسه أيضاً بالنظر الى أقواله في غير هذا الموضع ، وهو موضع نقده لأدلة اثبات الواجب « إن احتياج الفكر الى الوقوف في مرحلة ما عند رجوعه من علة الى علة ، قانون من قوانين العقل[2] » .

الدليل الرابع : بطلان الدور :

معنى الدور الباطل : أن يتوقف الشيء في وجوده المطلق أو تكييف معين له على شيء آخر ، بينما يكون هذا الشيء الثاني متوقفاً وجوده أو تكيفه على الشيء

---

(١) حاشية الجوهرة للباجوري : (٣٢) وانظر المواقف في ... هذا البرهان : (٩٠) .
(٢) موقف العقل : (١٧٨/٢) .

الأول ، إذ إن كل واحدٍ من الأمرين يتوقف وجوده على وجــود الآخر ، فيترتب على ذلك عدم وجود واحدٍ منهما ، وهذا الدور باطل ، لأنه يستــدعي أن يكون الشيء متقدماً على نفسه متأخراً عنها في آن واحد ، وهذا محال فما يترتب عليــه فهو محــال .

ولقد وضّح الدكتور محمد سعيــد رمضان البوطي استحالة الدور بمثــال مادي فقال : « مثال ذلك ما لو فرضنا أنك حاولت الانتساب الى كلية التربيــة ، فقيل لك : إن ذلك متوقف على أن تكون موظفاً في سلك التدريس الرسمي ، ولما حاولت أن تدخل في سلك التدريس قيل لك : إن ذلك متــوقف عــلى أن تكون متخرجاً من كلية التربية ، إن من البــدهي أنك لن تستطيع أن تحقــق لنفسك أي الغرضين ما دام الأمر كذلك » .

وعلى هذا فلو ادّعى مدعٍ أن العالم حادث ، ولكن حدوثــه لم يكن لشيء خارج عنه ، بل إنه تفاعل مع ذاته ، فهــذا الكلام يقتضي أن يكون وجود العــالم مبنيا على وجوده ، وهذا دور والــدور مستحيل ، لأنه يقتضي تقدم الشيء عــلى نفسه وتأخره عنها ، وهذا مستحيل ، فما ترتب عليه فهو مستحيل ، فثبت أن وجود العالم حادث لا بدّ من أن يكون على شيء ذاتي خارج عنه . قال الشيخ الباجوري في حاشيته على الجوهرة :

« والدليل على وجوب الوجود له تعالى أن تقول : يجب افتقار العالم اليه ، وكل من وجب افتقار العالم اليه فهو واجب ، ينتــج : الله واجب الوجود ، دليــل الصغرى ما تقدم من أن العالم حادث ، وكــل حادث يجب افتقاره الى محــدث . ودليل الكبرى : أنه لو لم يكن واجب الوجود لكان جائزه ، فيفتقر الى محدث ، ويفتقر محدثه الى محدث ، فان رجــع الأمر الى الأول لمباشرة ، أو هو بواسطــة فالدور ؛ لأنه دار الأمر ورجع الى مبدئه ، وان تتابعت المحدثون واحداً بعد واحد الى ما لا نهاية فالتسلسل ، لأنه تسلسل الأمر وتتابع ، وكل من الدور والتسلسل محال فما أدى اليه ــ وهو افتقاره الى محدث محال ، فما أدى اليه وهو كونــه ليس واجب الوجود محال ، واذا استحال كونــه ليس واجب الوجود ثبت كونــه

واجب الوجود وهو المطلوب ، وحقيقة الدور توقف الشيء على ما توقف عليه إما بمرتبة أو أكثر ، وحقيقة التسلسل ترتب أمور غير متناهية ، وانما كان الدور مستحيلاً ، لأنه يلزم عليه كون الشيء الواحد سابقاً على نفسه مسبوقاً بها ، فاذا فرضنا أن زيداً أوجد عمراً ، وأن عمراً أوجد زيداً ، لزم أن زيداً متقدم على نفسه متأخر عنها ، وأن عمراً كذلك[1] » .

الدليل الخامس ــ دليل العلة الغائية :

هذا الدليل يسمى عند الأشعرية بدليل الحكمة ودليل نظام العالم ، وذلك لأنهم لا يرون تعليل أفعال الله بالعلل الغائية المسماة بالأغراض ، وذلك لملاحظة سامية ، وهي أن تعليل أفعال الله بالعلل « الأغراض » يوهم نقصاً في حقه تعالى ، فيستكمل بتحصيل تلك الأغراض ، ولذلك عدلوا عن التسمية بدليل العلة الغائية الى دليل الحكمة والنظام . وخلاصة هذ االدليل أن هذا العالم من أصغر جزء فيه الى أكبر جرم فيه ، اذا تأملته وجدت أنه قد وضع ليحقق غاية معينة ، وهذا لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، بل لا بدّ من أن يكون وراء ذلك موجد لهذا الكون ، أتقن صنعه وأحسن نظامه .

وتفصيل ذلك أنك لو نظرت الى بناء هذا الكون العجيب وهندسته ، رأيت في تراكيب أجزائه بعضها مع بعض ، وتركيب أجزاء أجزائه ، وفي تراكب ذراته الدقيقة التي لا تتجزأ تطابقاً على أدق ما يمكن أن يتصور من معاني الدقة ، ورأيت الاجزاء الصغيرة فيه مندفعة الى تحقيق غايات معينة بالتآلف مع الأجزاء الأخرى ، ورأيت بعد ذلك مجموع الأجزاء والجزئيات مندفعة الى تحقيق غايات نوعية سامية ضمن ظروف وشروط ، لو تخلف بعض منها قل أو كثر ، لما تحققت تلك الغايات ، بل سرى الفساد الى جميعها .

ولو رحت تسرد وتصف مظاهر التنظيم والتناسق بين شتى المكونات التي

---

(1) حاشية الجوهرة : (١ ٣ــ ٣٢) .

تراها أمامك لضاق العمر كله عن استقصاء ذلك وتجليته • ولارتد اليك الفكر خاسئاً حسيراً من روعة هذا التدبير العجيب الذي يسري بدءاً من كهارب الذرات ، الى الارض وشتى ما عليها من مكونات ، الى السماء وشتى ما فيها من أفلاك ، ولرأيت أنها كلها تسير وفق نظام رتيب لا يتخلف ، وكلها يطوف حول غايات رائعة عجيبة ينتهي معظمها من قريب أو بعيد الى خدمة هذا الانسان ومصلحته •

تتأمل في الارض ، فتجد أن لها وزناً معيناً ، يمدها بمقدار من الجاذبية ، وتتأمل في هذه الجاذبية فتجدها مقدرة بالقدر الذي يقيم الانسان في حياة منتظمة عليها •

فلو زاد وزن الارض ، لزادت جاذبيتها ، ولو زادت جاذبيتها لما استطاع الانسان أن يتنقل عليها ، ولالتصق بها فما يملك إلا أن يجر نفسه عليها جراً •

ولو قل وزن الارض لقلت الجاذبية ، ولما أمكن الانسان ، أن يستقر عليها كما يريد ، ويدلك هذا بوضوح على أن للارض غاية هي أن تكون قراراً ومهاداً للانسان ، يجد عليها مستقره الآمن •

وتتأمل في عينك الباصرة فتجدها في جملتها وتفصيلها قائمة على أذق قوانين الرؤية التي لا يزال يحار العلماء في فهمها ، ثم تنظر فتجد قوانين الضياء في الكون قد مهدت لها وعبدت لها الطريق من قبل ، فلا تشك في اجتماع هذه وتلك على غاية معينة ، هي أن ترى بهذين الثقبين العالم المرئي أجمع •

ويتجسد أمامك هذا المعنى عندما تستمع الى أي عالم ، وهو يصف لك دقائق العين مثلاً وكيفية تركيبها ، فتجده لا يفتأ يستعمل لام التعليل الدالة على الغاية في كل جملة من جمله ، فتراه يقول : إنما كان كذا لكذا •

وتتأمل في رئتك فتجد أنها منسجمة مع نسبة مولد الحموضة في الجو ، حتى لو ازدادت أو نقصت لما تهيأ لك الشرط الكامل للحياة ، فلا تشك أن هذين المظهرين يلتقيان لتحقيق غاية متعلقة بتحقيق كامل الأسباب لحياتك •

وتتأمل في ذاتك وما أودع فيها من القوى المدركة ، وأنت جزء من هذا الكون فتجد أنك قد أعطيت سلاحاً لا ينتهي العجب من شأنه ، ولا يقف عقل العالمين كلهم على حقيقته ، وتتأمل فتعلم أن لوجود هذه القوة غاية معينة هي أن تسخر بها كل ما تراه حولك من مظاهر المكونات ، وأن تمتلك بها مقاليد الاستفادة منها ، وأن تسبر أغوارها وتصل الى جذورها وقوى الفاعلية فيها .

أليس من الاتقان البديع المحير هذه المجموعات الكبرى في عالم الحيوان ، سواء منها الطائر والسابح ، والماشي والزاحف ، المتقنة في أشكالها وأوضاعها ، وألوانها وخواصها ، وطبائعها وطرق عيشها ، وكبيرها وصغيرها ؟ !

سل عالم الحيوان عن عجائب الحيوانات وغرائبها ، واتقان تكوينها ، يبد لك من أمرها عجباً يسلمك الى الدهشة والحيرة في مدى حكمة صانعها .

أليس من الاتقان البديع المدهش هذه المجموعات الكبرى في عالم النبات سواء فيها أشجارها وزرعها ، هوائيها ومائيها ، بثمارها وأزهارها ، وأوراقها وأخشابها ، ولدنها وصلبها ، بألوانها وأشكالها ، وطعومها وروائحها وخواصها ؟ !

سل عالم النباتات عن النبات ، يشرح لك من أمرها ما يفجر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم الذي أتقن كل شيء صنعا .

أليس من الاتقان البديع تكوين الارض ببحرها ويابسها ، بجبالها وأغوارها ، وأوديتها وسهولها ، بصخورها ورمالها ، وأتربتها ومعادنها ، بينابيعها وأنهارها ، بألوانها وطرقها وما الى ذلك ؟ !

سل عالم الجغرافية وعالم الكيمياء وعالم طبقات الارض ، سل عالم الطبيعة أياً كان اختصاصه ، يظهر لك هؤلاء من اتقان تكوين الارض عجباً يهديك الى رشدك ويعرّفك بوجود الصانع الحكيم ووحدته .

إنه كلما تقدم العلم وازدادت المعارف التجريبية ، تعرّف الانسان على دقائق جديدة من اتقان الصنع في هذه الموجودات الكونية ، وازداد إيماناً بالصانع الحكيم .

ومن هنا أثنى القرآن الكريم على العلماء بعد أن لفت نظرهم الى ما في هـذا الكون من مظاهر الإبداع والإتقان ، قال الله تعالى في سورة فاطر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها كذلك ، وغرابيب سوء . ومن الناس والدواب والأنعـام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور[1] » .

هذا ولقد ضرب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أمثلة تقرب هذا الدليل مع أنه غاية في الوضوح والظهور فقال :

« ١ ــ افرض أنك نظرت الى وعاء أمامك ، فوجدت فيـه نثاراً من الآلات المختلفة الدقيقة ، ولما تأملتها جيداً بدأت تدرك صلة انسجام وتآلف بين جزئيـات هذه الآلات ، واكتشفت أن لكل واحدة منها مكانـاً تركيبياً دقيقاً مـن الأخرى ، فأخذت تجمع هذه الأجزاء الى بعضها وتؤلف بينها وفق هذا التركيب المصممة على أساسه ، وعندما فرغت من وضع آخر آلة منها في موضعها ، فوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات التي انقلبت الى جهاز متكامل ، وتأملت فاذا هي ساعة زمنيـة ، تضبط سير الزمن وحركتـه . فما الذي تدركـه عقب هـذا كله ؟

إنك تدرك بدون ريب أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقة غاية جزئية معينة قد هيئت لتحقيقها ، وأن لمجموعها غاية نوعية واحدة هي ضبط الزمن .

وتدرك مع هذا ــ بدون ريب أيضاً ــ أن هناك مدبراً وراء دفع هذه الآلات الدقيقة الى تحقيق هذه الغاية النوعية العظيمة .

٢ ــ افرض أنك دخلت أحد المطارات العالمية الفخمـة ، ومعك حقائبك التي شغلت بها كلتا يديك ، ولما دنوت من الباب الزجاجي المغلق فوجئت بكلا مصراعيه ينفتحان أمامك في حركة تلقائية مجردة .

---

(١) فاطر : (٢٧ ــ ٢٨) .

حتى اذا دخلت وتجاوزته عاد مغلقاً كما كان ، وبينما أنت تشكر هذه المصادفة العجيبة التلقائية ، ملتفتاً الى الباب في دهشة واستغراب ، اذا به ينفتح مرة أخرى في استقبال قادم آخر مثلك ، وعندئذ وضعت حقائبك تتأمل ، فرأيت أن المسألة تتكرر بانتظام كلما جاء قادم ودعت الحاجة .

ولما رحت تبحث عن حقيقة الأمر بدافع التطلع الفكري لديك ، أدركت أن الباب يرتكز على جهاز خفي من تحته ، سرعان ما يتأثر عند اجتياز شخص من فوقه ، على نحو يدفع مصراعي الباب الى التجافي والانفتاح .

وينقدح في ذهنك بحكم البداهة لهذا الجهاز وحركته هذه علة غائية ، هي تسهيل المرور على المسافر الذي قد لا تساعده يده ـ لما يحمل معه من أمتعة ـ على دفع الباب ، ولما كانت هذه الغاية الانسانية الرائعة مما لا يمكن أن تسند الى الآلات الجامدة التي لا تحس ولا تعقل ، فقد كان لا بدّ أن يكون هذا التصميم من تدبير بعض المفكرين .

فهذا المعنى الذي ظهر لك في هذين المثالين ينطبق على كل الأمثلة المشابهة ، فما من مجموعة تركيبية تتناسق في سبيل تحقيق غاية تطرد في تحقيقها ، إلا ومن وراء هذه الجملة عقل مدبر . واضرب مثلا لذلك جميع الاجهزة المتنوعة المختلفة ، وجميع ما يسمى بالمصنوعات من ألبسة وأثاث وفرش ودور وغير ذلك .

فهذه الحقيقة البدهية التي يطلق عليها اسم « دليل العلة الغائية ، أو دليل الحكمة والنظام في الشيء ، هي أصل في مسألة الدليل على وجود الله ، يقوم على علة مؤثرة ثابتة بالاستقراء التام[1] » .

هذا ولقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الدليل أكثر من غيره من الأدلة ، حتى إنه لقد أمكن أن نسميه دليل القرآن ، وذلك لأن كثيراً من آياته طافح به ، فمن ذلك قوله تعالى في سورة فاطر :

---

(١) كبرى اليقينيات : (٧٥ ـ ٧٦) .

« والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » وفي السورة نفسها يقول سبحانه : « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذ املح أجاج ومن كلٍ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر لكم الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » •

وفيها يقول أيضاً سبحانه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود[1] » • وقال تعالى في سورة الروم :

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون • وله الحمد في السموات والارض وعشياً وحين تظهرون • يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون • ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون • ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون • وله من في السموات والارض كل له قانتون[2] » •

وقال تعالى في سورة النبأ :

« ألم نجعل الارض مهاداً • والجبال أوتادا • وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا

(١) انظر سورة فاطر (من الآية ٩ الى الآية ٢٨) .
(٢) الروم : (١٧ ــ ٢٦) .

نومكم سباتا • وجعلنا الليل لباسا ـ وجعلنا النها معاشاً • وبنينـا فوقكم سبعـاً شدادا • وجعلنا سراجاً وهاجا • وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا • لنخرج به حبـاً ونباتا وجنات ألفافا[1] » •

وقال تعالى في سورة عبس : « فلينظر الانسان الى طعامـه أنا صببنا المـاء صبا • ثم شققنا الارض شقا • فأنبتنا فيها حبا • وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخـلا • وحدائق غلبا • وفاكهة وأبا • متاعاً لكم ولأنعامكم[2] » •

وقال جلّت قدرته في سورة النحل :

« خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركـون • خلق الانسان مـن نطفة فاذا هو خصيم مبين • والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلـون • ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون • وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم • والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون • وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهـداكم أجمعين • هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر الليل والنهار والشمس والقمر والنجـوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقو ميعقلون • وما ذرأ لكم في الارض مختلفاً ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكّرون • وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريـا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون • وعلامـات وبالنجم تهتدون[3] » •

---

(١) النبأ : (٦ ــ ١٦) .
(٢) عبس : (٢٤ ــ ٣٢) .
(٣) النحل : (٣ ــ ١٦) .

هذا الى كثير من الآيات التي تجلى دليل العلة الغائية أو دليل الحكمة والنظام، والتي تجدها منبثة في كثير من السور القرآنية ، سيما السور المكيـة ، حيث كانت الآيات القرآنية تعنى أكثر ما تعنى بتوضيح العقيدة الاسلامية وتثبيتها .

ولظهور هذا الدليل وبداهته أو قربه من البداهة عجب حجة الاسلام الإمـام أبو حامد الغزالي ، ممن يرى هذا الكون بأم عينيـه ويطلع على ما فيه مـن نظام وابداع ثم لا يدعوه ذلك الى الايمان بوجود خالقه .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى :

« والعجب كل العجب ممـن يرى خطاً حسنـاً أو نقشاً حسناً عـلى حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه الى التفكير في النقاش والخطاط ، وأنه كيف نقشه وخطه ؟ ! وكيف اقتدر عليه ؟ ! ولا يزال يستعظمـه في نفسه ويقول : ما أحذقـه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ؟ ! ثم ينظر الى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ، ثم يغفل عن صانعه ومصوره ، فلا تدهشه عظمته ، ولا يحيره جلاله وحكمته[1] » .

دعوى وردّهـا :

لقائل أن يقول : إن هذا الكون بتنظيمـه وترتيبه يحتمـل أن يكون بمحض المصادفة ، فمن المحتمل أننا لو نثرنا كمية كبيرة مـن الحروف المطبعيـة على سطح فسيح أملاً في أن يتشكل منها ديوان شعر لمثل « هومـيروس » أو « فيكتـور هوجو » أو قـل « المتنبي » أو « الفردوسي » وتكررت هـذه المحاولة سنـوات طويلة ، فمن المحتمل أن يحصل في كل مرة أو مرات مـن نثر تلك الحروف تشكل جزء من تلك القصائد ثم جزء آخر الى أن يكتمل الديوان .

ولقد ذكر هذا الافتراض الـذي يحتج به بعضهم ذكر هـذا الشيخ مصطفى صبري ، ثم ردّ عليه بردود منها قوله :

---

(١) إحياء علوم الدين : (٤٣٩/٤) .

« فيردّ عليهم أن عدم الانتظام **لا** يتحول بنفسه الى نظام ، ولو دام ألف ألف ألف عام ، بل يزيده الدوام تشوشاً وارتباكاً ، وهكذا الحال في مثال ديوان شعر ، ولا يجديهم نفعاً احتمال تشكل جزء من قصائد الديوان في كل نثرة ، اذ لا يكون من حقهم أن يفرضوا حفظ الجزء المتشكل ونثر ما عداه في المرة الثانية، حتى يتشكل جزء آخر ، وهكذا الى أن يتم تشكل القصائد ، بل يلزم أن يفرض في كل مرة نثر جميع الحروف المنثورة في المرة الاولى الشاملة لحروف الجزء المتشكل ، فينفضّ في المرة الثانية ما انتظم في الاولى ، وان كان في الامكان تشكل جزء آخر ينفضّ هو أيضاً في المرة الثالثة ، فلو لم نفرض هكذا يكون حفظ الأجزاء المتشكلة في أيّ مرة وحصر تكرار النثر في الباقي بعد تلك الأجزاء ، نظاماً مقصوداً فيلزم خلاف المفروض الذي هو عدم النظام ، حتى انه لو سومح فلم يمنع حفظ الأجزاء المتشكلة في كل نثرة الى أن اكتملت الأجزاء الكافية للقصائد ، والقصائد الكافية للديوان ، فلا بدّ هناك من نثرة نهائية بل نثرات للحصول على ترتيب الأجزاء المتشكلة بعضها مع بعض ، وترتيب القصائد المتشكلة بعضها مع بعض ، وعند ذلك تنفضّ تلك الأجزاء المتشكلة ويعود الارتباك العام[1] » .

هذا ولقد ردّ بعضهم هذه الدعوى بقوله : « ولا شيء أدل على فساد هذا الفرض كالمثل الذي أوردوه لدعمه والتدليل عليه ، لأن الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللفظ ، وينشأ منها الكلام والمفهوم ، لا يكون قبل وجود كلمة تشتمل على هذه الحروف ، فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماثلة ترتبط بينها علاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية ؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء ؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم ؟ !

ثم إنهم بدون أن يشعروا قدّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنضيد ، وأن يكون وجودها موافقاً للجمع والتنضيد ، وليس موافقاً للبعثرة

---

(1) موقف العقل والعلم : (٢/٣٢٧ ـ ٣٢٨) .

والتفريق ، وليس كل هذا بلازم من لوازم العقل ، وأيهما أقرب في ميزان هـذا العقل ، أن تتولى المادة نفسها ــ وهذه حالها ــ هذا التنظيم والإحكام عن طريق المصادفة ، أم يكون ذلك بإرادة مريد يعلم ما يريد ؟

وأيضاً : فانهم فرضوا في هذه القوة الجامعة أنها تعيد تنسيق الحروف على كل احتمال ، كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات ، فلم تستنفد هذه القوة جميع الاحتمالات الى آخرها ، ولم تتخبط في بعضها قبل انتهائها ، ثم تعيدها أو تكررها بشيء من الاستئناف ، وشيء من التجديد في جميع المرات ، الى غير انتهاء .

وأخيراً ــ وهذه ملاحظة دقيقة وهامة ــ فان الوصول الى تنضيده مفهومه منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها ، فلماذا تماسك النظام في الكون بعد أن وجد مصادفة ولم يسرع اليه الخلل ، ولماذا بقيت التنضيدات تقوم وتقعد وتنعقد وتنفرط حتى وصلت الى تنضيدة معينة ثبتت عندها اتفاقا ؟ ما الذي قرر هذا الوضع وجعله مفضلاً على الخلل والفوضى ، وهما مثله ونظيره في كل احتمال ؟ ! » .

ولقد كتب الشيخ نديم الجسر في كتابه « قصة الإيمان » فصلاً يرد فيه على القائلين بالمصادفة ، وأتى بأمثلة يبين فيها استحالة المصادفة في وجود هذا الكون ، لقد ذكر في ثنايا كلامه قانون المصادفة فقال :

« إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الامكانيات المتكافئة المتزاحمة » فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح ، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة .

ثم ذكر مثالاً على ذلك على طريقته الحوارية فقال : لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها ، فجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف على بعضها وبعثرتها وخلطتها ، ثم جاءك منضد الحروف يخبرك

أنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني ، فهل كنت تصدق ؟ يقول حيران : نعم أصدق .

فيقول الشيخ : ولكن لو قال لك : إن الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة ، فهل كنت تصدق ؟

فيجيب حيران : أستبعد ذلك جداً ولكن لا أراه مستحيلا .

فيقول الشيخ : ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت عند اختلاطها ، بالمصادفة كتاباً كاملاً من (٥٠٠) صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها ، فهل كنت تصدق ذلك يا حيران ؟

فيجيب حيران : أبداً لا أصدقه يا مولاي .

فيسأله الشيخ : ولماذا لا تصدقه يا حيران ؟

فيجيب حيران : لأني هنا أجد الاستحالة بديهية حقاً .

فيسأله الشيخ : ولماذا يا حيران ؟

فيجيب حيران : لا أدري يا مولاي .

فيقول الشيخ : السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه ، فالتزاحم بين حروف الكتاب يجري بين (٥٠٠) ألف حرف على تكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريباً ، بأشكال وترتيبات لا تعدّ ولا تحصى أبداً ، وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جداً جداً ، لو قلت عنه : إنه مليار مليار مليار مليار لكان قليلا .

ثم يقول الشيخ : هذا في كتاب المطبعة وكلماته المحدودة يا حيران ، فما قولك في كتاب الله الأعظم وكلماته التي يقول فيها : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » ثم يقول : انما عنيت بكتاب الله هنا العالم كله ، وعنيت بكلمات الله ـ كما أراد الله ـ كل ما في

ملكوت السموات والارض من شيء محسوس من عالم الخلق ، أو معقــول مــن عــالم الأمر[1] » .

جـ ــ اقوال لبعض الفلاسفة والعلماء في وجود الله سبحانه :

نذكر فيما يلي جملة من أقوال الفلاسفة والعلماء يعترفون فيها بوجــود الله تعالى ، نذكر ذلك لا لنقيم البرهان على وجــوده سبحانه ، ففيما مرّ وفيمــا ذكره العلماء المسلمون ما هو فوق الكفاية ، بل لنبين أن العقلاء من هــؤلاء اذ تجردوا عن الأهواء والنزعات ، وصلوا الى معرفة الحقيقة فآمنوا بها وأعلنوها . وأن العلم الحقيقي لا يبعد عن الإيمان بالله تعالى ، بل هو سلم طبيعي الى معرفة الله والإيمان به ، اذا صعده العالم بروح التجرد وطلب الحقيقة ، فاذا ما أكمل الانسان صعوده في هذا السلم انتهى الى الإيمان بالله ، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم بقولــه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمــاً بالقسط لا إلــه إلا هو العزيز الحكيم[2] » وقوله بعدما لفت نظر الانسان الى ما أودع في هذا الكون من دلائل على وجود الله وقدرته : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وها نحن نذكر أقوال هؤلاء بشيء من التصرف في بعضها .

قال ديكارت : « أنا موجود فمن أوجدني ومن خلقني ؟ إنني لم أخلق نفسي فلا بدّ لي من خالق ، وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود ، وغــير مفتقر الى من يوجده ،أو يحفظ عليه وجوده ، ولا بــدّ أن يكون متصفاً بكل صفــات الكمال ، وهذا الخالق هو الله بارىء كل شيء[3] » .

وقال باسكال : « فإنه كان يمكن أن لا أكــون لو كانت أمي ماتت قبــل أن أولد حيا ، فلست إذاً كائناً واجب الوجود ، ولست دائما أو لا نهائيا ، فلا بد مــن

---

(١) انظر قصة الإيمان : (من ٢٩٣ ــ ٢٩٦)

(٢) آل عمران : (١٨) .

(٣) قصة الإيمان : (١٢٧) .

كائن واجب الوجود دائم لا نهائي يعتمد عليه وجودي ، وهو الله الذي ندرك وجوده إدراكاً أولياً بدون أن نتورط في جدل البراهين العقلية ، ولكن على الذين لم يقدر لهم هذا الإيمان القلبي ، أن يسعوا للوصول اليه بعقولهم[1] » .

وقال فرانك ألن في مقالة كتبها تحت عنوان « نشأة العالم هل هي مصادفة أو قصد » وهو عالم في الطبيعة البيولوجية :

« إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هناك احتمالات أربعة للاجابة على هذا السؤال :

الأول : فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهذا يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود .

الثاني : وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، وهذا مرفوض بداهة .

الثالث : وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ، ليس لنشأته بداية ، وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة لأزلية الخالق ، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذاً حدث من الأحداث ، ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظّم البديع الى المصادفة عقلاً ، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضا .

الرابع : وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه ، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض ، وليس يرد على اثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلاً ، فوجب الاعتماد عليه » .

وقال روبرت موريس بيدج عالم الطبيعة وأول من اكتشف الرادار في العالم في مقالة تحت عنوان « اختبار شامل » .

---

(١) المصدر السابق : (١٣١) .

« وجدنا أناساً موهوبين يحدثوننا عن الغيب ، يقولون : إنهم رسل الله ، وما حدثونا به قسمان :

١ ــ قسم يقولون فيه : إن لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به ٠

٢ ــ وقسم يخبروننا به عن بعض أمور الغيب التي ستحدث ٠

أما القسم الثاني فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين ، وأيدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعاً ، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً ، فدل ذلك على صحة رسالتهم ، وصدق أخبارهم ، ووجب أن نصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته ، وهو القسم الأول ، لأن عقولنا لا تمنع منه ، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبته ٠

إن الإيمان بوجود الله من الأمور الخاصة التي تنبت في شعور الانسان وضميره ، وتنمو في دائرة خبرته الشخصية » ٠

وقال جون كليفلاند كوثران ، وهو من علماء الكيمياء والرياضيات ورئيس قسم العلوم في جامعة « دولث » في مقالة تحت عنوان « النتيجة الحتمية » بعد أن بدأ مقالته بكلمة « لورد كليفن » وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم ، وهي : « إذا فكرت تفكيراً عميقاً ، فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد في وجود الله » قال :

« فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ ! أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها ؟ ! لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً ٠

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ، إذ إن لها بداية ٠

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم ، على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية •

وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد ، وعلى ذلك فان كونيته محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان •

فاذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بــدّ أن يكون الخلق قد تم بقــدرة كائن غير مــادي ، متصف بالعــلم والحكمــة » •

وقال ادوارد لوثر كيسيل ، وهو أستاذ الأحيــاء ، ورئيس القسم بجامعــة سان فرانسيسكو :

« لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجــود الخالق ، بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به الى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهــم وانفعالاتهم ؛ فانهــم سوف يسلمون ــ دون شك ــ بوجود الله • وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يفسر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتح ، سوف يقودنا ــ دون شك ــ الى ادراك وجود السبب الأول الذي هو الله » •

وقال ألبرت أنيشتين ، صاحب النظرية النسبية :

« إن أصحاب العبقريات الدينية في جميع العصور قد عرفوا بهذا النوع مــن الشعور الديني الذي لا ينتمي الى نحلة ، ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية ، إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي : أن يوقظا هذا الشعور ، وأن يستبقياه حياً في الذين تهيأوا له » •

وقال سبنسر : « إننا مضطرون الى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدر[illegible]ائقة متعالية عن الإدراك ، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنها » •

وهناك أقوال كثيرة في هذا الصـــدد لمشاهير من الفلاسفة والعلمـــاء في شتى ميادين العلم ، قد استنبطوا من علومهم التي تخصصوا بها وجود الله ، وآمنوا بـــه إيماناً علمياً بما تجمع لديهم من أدلة[1] .

ولو دققت النظر في أدلتهم لوجدتها كلها ترجع الى ما أسلفناه من الأدلة العلمية التي اعتمد عليها العلماء المسلمون .

على أن كثيراً من العلماء اعتقدوا أن الإيمان بوجود الله لا يحتاج الى دليل ، إذ إنه سبحانه بقدرته وحكمته ظاهر في كل شيء وهو من البدهيات ،

وكيف يصح في الأذهـــان شيء   اذا احتاج النهار الى دليـــل
وفي كـــل شـــيء لـــه آيـــة   تـــدل عـــلى أنـــه الواحـــد

هذ اوأختم كلامي بقطعة من مقال للدكتور أحمد أبو زيد نشر في مجلة العربي عدد « ٢٨٤ » تحت عنوان : « هل مات داروين حقاً ؟ » . قال الكاتب : « وبعـــد فمنذ شهور قليلة ، وفي أواخر عام ١٩٨١ ظهر في انكلترا كتاب يحمل عنواناً طريفـــاً هو « التطور من الفضاء » قام بتأليفه عالم الفلك الشهـــير سير فريد هويل الـــذي سبقت الاشارة اليه ، وعاونه في ذلك أستاذ هنـــدي يدرس الرياضيات في جامعـــة « كارديف » .

ويعترف الأستاذان بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحـــدان ، ولا ينتميـــان لأي دين أو عقيدة ، وأنهمـــا يعالجان أمور الفضاء وحركـــات الكواكب بأسلوب علمي بحت ، ومن زاوية عقلانية خالصة ، لا تخضع ولا تتأثر بأي موقف ديني .

ويدور الكتاب حـــول مسألة احتمال وجود حياة عـــلى الكواكب الأخرى ،

---

(1) انظر في ذلك كتاب « الله يتجلى في عصر العـــلم » وكتاب « الله » لعبـــاس محمود العقاد ، وكتاب « العلم يدعو للإيمان » تأليف : أ. كريستي موريسون ترجمة محمود صالح الفلكي ، وكتاب « قصة الايمان » للشيخ نديم الجسر ، وكتاب « عقيدة المسلم » للاستاذ الشيخ محمد الغزالي .

ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عند ظهور الحياة تلقائيا من الوحل الأولى ، نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية ، ومع أن هناك نظريات معارضة لهذا الاتجاه ، وهي نظريات ترى أن احتمال ظهور الحياة من هذا الوحل أو الطين الأولى ، لا تزيد على ١ : ١٠ فان هويل يرى بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة ، أن هذا الاحتمال لا يزيد بحال عن ١ : ١٠ أمامها أربعون ألف صفر ، مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة لظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين ، وبالتالي فان الحياة لا يمكن أن تكون نشأت عن طريق الصدفة البحتة ، وأنه لا بدّ من وجود عقل مدبر يفكر ويبدع لهدف معين .

وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح ـ كما قلنا ـ بإلحادهما ، فانهما لا يجدان أمامهما مفراً من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان « الله » .

ثانيا ـ الصفات السلبية :

قد قدمنا أن الصفات السلبية هي خمس صفات : الوحدانية ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وقيامه تعالى بنفسه ، وذكرنا أنها سميت صفات سلبية ، لأن مدلولها نفي صفة لا تليق بجلاله سبحانه ، واليك بيان هذه الصفات .

الصفة الأولى ـ الوحدانية :

آ ـ معنى الوحدانية :

قبل أن نخوض في معنى الوحدانية يتعين علينا أن نبين المصطلحات التالية :

الكل والكلي ، والجزء والجزئي ، والكم ، ثم نتحدث عن معنى الوحدانية .

يقول علماء المنطق هذا من باب تقسيم الكلي الى جزئياته ، وهذا من باب تقسيم الكل الى أجزائه ، فما معنى ذلك ؟

الكل هو ما تركب من أجزاء ، وتقسيم الكل الى أجزائه هو أنه لا يصح فيه

حمل المقسم على كل قسم من أقسامه ، وذلك كتقسيم الحصير الى خيط وقش ، فالخيط لا يصح أن يخبر عنه بأنه حصير ، والقش كذلك أيضاً ، فالخيط جزء ، والقش جزء ، وما تركب منهما هو الكل ، ومثل ذلك الطاولة بالنسبة الى أجزائها ، والدار بالنسبة الى غرفها ، والكتاب بالنسبة الى أوراقه وخيوطه وجلده وما الى ذلك .

وأما الكلي فهو ما تركب من جزئيات ، وتقسيم الكلي الى جزئياته هو ما يصح فيه حمل المقسم على كل قسم من أقسامه ، وذلك بأن يكون الجزئي موضوعاً ، والكلي محمولاً ، وذلك كتقسيم الجنس الى أنواعه ، وكتقسيم النوع الى أفراده .

مثال تقسيم الجنس الى أنواعه تقسيم الحيوان الى فرس وانسان وطائر ، فهذا يصح فيه أن تقول : الانسان حيوان ــ الطائر حيوان ــ الفرس حيوان ، وما أشبه ذلك .

ومثال تقسيم النوع الى أفراده تقسيم الانسان الى خالد وسعيد وعلي وعارف و ... ألا ترى أنه يصح أن تقول : خالد انسان ــ سعيد انسان ــ علي انسان ــ عارف انسان ، وهكذا .

وأما الكم فقد ذكر في المواقف ثلاث خواص له :

الأولى : أنه يقبل القسمة ، والثانية : وجود عادٍّ فيه يعدّه ، ومعنى العد أنك لو أسقطت منه أمثاله فني . الثالثة المساواة ومقابلاها أعني الزيادة والنقصان .

ثم إن كان بين أجزائه حدٌّ مشترك فهو الكم المتصل ، وذلك كالخيط فإن بين أجزائه حداً مشتركاً ، فهو نهاية لجزء وبداية لجزء . وإلا فهو كم منفصل كالعدد ، وذلك كالعشرة فانك إن أشرت منها الى السادس مثلا انتهى اليه الستة ،

وابتداء الأربعة الباقيـة مـن السابع لا من السـادس ، فلم يكن ثمـة بينهمـا حـدّ مشترك[1] .

اذا علمت هذا فاعلم أن معنى وحدانية الله أنه سبحانه واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله ، فهو سبحانـه ليس بكلي ، لأن الكلي له جزئيـات ، ولا كل ، لأن الكل مركب مـن أجزاء ، وليس بجزئي لأن ذلك يستدعي أن يكون له شركـاء في معنى الكلي ، ولا بجزء ، لأن ذلك يقتضي أن لا يكون هـو الإله ، وليس سبحانه بكم لا متصل ولا منفصل : وكذلك صفاته وأفعاله على ما يأتي .

واتصاف الله جلّ وعلا بالوحدانية يقتضي نفي الكموم الخمسة التالية :

أولاً : الكم المتصل بالذات : وهو أن يكون الله سبحانه مركباً من أجزاء . وهذا نفي أن يكون كلا .

ثانياً : الكم المنفصل عن الذات : وهو أن تكون ذات الإله متعددة ، وهـذا نفي أن يكون الإله كلياً .

ثالثاً : الكم المتصل بالصفات : وذلك بأن يكون له صفتان من نوع واحـد ، كقـدرتين مثـلاً .

رابعاً : الكم المنفصل في الصفات : وذلك كأن يكون لأحد صفة مماثلة تماماً لصفته سبحانه وتعالى .

خامساً : الكم المنفصل بالأفعال : وذلك أن يكون لغـير الله فعل مثل فعـله سبحانه ، وهذه الكموم الخمسة منفية بصفة الوحدانية .

وأمـا الكم المتصل بالأفعـال ، وذلك أن يكون لله سبحانه وتعالى فعـلان ، فهـذا أمر جائز[2] .

---

(١) انظر المقاصد : (١٠٤ فما بعدها) .

(٢) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة : (٣٥ ـ ٣٦) . هذا واما اذا فسرنا الكم المتصل بمشاركة غير الله له في فعل فهذا منتف في حقه ايضاً .

ب ـ ادلـة الوحدانيـة :

للبرهنة على اتصاف الله سبحانـه وتعالى بالوحدانيـة نوعان من الأدلـة : الأدلة القرآنية ـ الأدلة العقلية •

١ ـ الادلة القرآنيـة :

مبحث الوحدانية أشرف مباحث هذا الفن ، ولـذلك سمي هذا العلم باسـم مشتق منها ، فقيل « علم التوحيد » • ولعظم العناية به كثر التنبيه عليه في الآيـات القرآنيةفقد قال سبحانه : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم[1] » • وقال جلّ وعلا : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نـوم[2] » • وقال عزّ وجل : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـواً أحد » وقال سبحانه : « ما اتخذ الله من ولـد وما كان معه من إله إذاً لذهب كـل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون[3] » وقـال جل وعز : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون • لو كان فيهمـا آلهة إلا الله لفسـدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون[4] » •

والأنبياء جميعهم كانوا يدعون الى عبادة إله واحـد ، وما من نبي إلا قـال لأمتـه : « أعبدوا الله ما لكم من إله غيره » وفي قصة عيسى عليـه السلام يقـول الله عزّ وجل : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أ أنت قلت للناس اتخـذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك مـا يكون لي أن أقول ما ليس لي بحـق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مـا في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيـوب • ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم[5] » •

---

(١) البقرة : (١٦٣) •
(٢) البقرة : (٢٥٥) .
(٣) المؤمنون : (٩١) .
(٤) الأنبياء : (٢١ ـ ٢٢) .
(٥) المائدة : (١١٦ ـ ١١٧) .

والآيات القرآنية التي تدعو الى الإيمان بإله واحد ، هي أكثر من أن يضمهـا هذا الكتاب ، وحسبك أن تعلم أنه قلما تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها دعوة صريحة أو ضمنية الى الإيمان بالإله الواحد جلّ وعلا .

٢ ــ الأدلـة العقليـة :

أولاً : أقام العلماء الدليل على أنه سبحانه ليس بكل ، أي ليس مؤلفا مـن أجزاء ، فقالوا : إنه لو صح أنـه سبحانه وتعالى كـل مركب من أجزاء لاستلزم ذلك أن يكون عاجزاً محتاجاً الى غـيره ، وللزم من ذلك أيضاً أن يكون مماثـلاً للحوادث ، وذلك باطل ، لأنه لو ماثل الحوادث كان حادثاً مثلها ، وسيأتي الحديث عن ذلك ، والى هـذا أشار سبحانـه بقوله : « ليس كمثـله شيء وهو السميـع البصـير[1] » .

ثانياً : واستدلوا على أنه ليس بكاي ببرهان ينقسم الى برهانين :

برهان التوارد ــ وبرهان التمانع ، ويضاف اليهما دليل ثالث هو دليل التفرد بالكمال . وسنوضح كلاً منهما فيما يلي :

برهان التوارد : إنه لو تعدد الإلـه ، كأن يكون هناك إلهان ؛ لما وجد شيء من العالم ، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل ، لأنه موجـود بالمشاهدة ، فمـا أدى اليه وهو التعدد محال . واذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية ، وهو المطلوب .

وإنما لزم من التعدد كأن يكون هناك إلهان ؛ عدم وجود شيء مـن العالم ؛ لأنهما إما أن يتفقا وإما أن يختلفا ، فان اتفقا فلا جائز أن يوجداه معـاً ، لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، ولا جائز أن يوجداه مرتباً ، بأن يوجده أحـدهما ثم يوجده الآخر ، لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، وتحصيل الحاصل محال ، ولا جائز

---

(١) الشورى : (١١) .

أن يوجد أحدهما البعض ، والآخر البعض الآخر ، للزوم عجزهما حينئذ ، لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به ، فلا يقدر على مخالفته ، وهذا عجز ، وهذا البرهان إنما سمي برهان التوارد ، لما فيه من تواردهما على شيء •

برهان التمانع : إنه لو تعدد الإله كأن يكون هناك إلهان لما وجد شيء من العالم ، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل ، لأنه موجود بالمشاهدة ، فما أدى اليه وهو التعدد محال ، واذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية •

وإنما لزم من التعدد عدم وجود شيء من العالم ، لأنهما إما أن يتفقا ، وإما أن يختلفا ، فان اتفقا فقد مرّ الكلا معليه في برهان التوارد ، وإن اختلفا ، بأن أراد أحدهما إيجاد العالم ، وأراد الآخر إعدامه ، فلا جائز أن ينفذ مرادهما لئلا يلزم اجتماع الضدين ، ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر ، للزوم عجز من لم ينفذ مراده ، والآخر مثله ، لانعقاد المماثلة بينهما •

ويحكى عن ابن رشد أنه قال : اذا نفذ مراد أحدهما دون الآخر كان الذي نفذ مراده هو الإله دون الآخر ، وتم دليل الوحدانية •

وإنما سمي هذا البرهان برهان التمانع لتمانعهما وتخالفهما[1] •

والى هذا الدليل أشار الله سبحانه بقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وقال سبحانه : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا الى ذي العرش سبيلا • سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً[2] » • وقال جل وعزّ : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » •

---

(1) انظر حاشية تحفة المريد : (٣٦) • وانظر شرح العقائد النفسية للسعد التفتازاني : (٦٢ — ٦٣) •
(٢) الاسراء : (٤٢ و ٤٣) •

دليل التفرد بالكمال : أورد هذا الدليل الإمام الرازي ، وخلاصة هذا الدليل أننا نرى في هذا العالم أن كل من يشرك انساناً في عمله فهو ناقص بوجه ما : إما مالاً أو خبرة أو قوة ، فاذا قسنا الغائب على الشاهد كان القول بوجود إله آخر مع الله شريك له في الألوهية ممتنعاً ، لأن الشركة دليل النقص ، والنقص لا يناسب كمال الله المطلق[1] .

هذا وهناك دليل آخر استخرجه ابن رشد من قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وارتضاه اذ قال :

« إنه من المعلوم لو كان في مدينة واحدة ملكان لم يصلح أمر المدينة ، اللهم إلا إذا قيل : إن أحدهما عاطل ، ولكن العاطل لا يصلح أن يوصف بالألوهية . وكذلك الأمر بالنسبة لوحدانية الإله ، فلو كان هناك أكثر من إله لاختل الكون ولكنا نرى الكون منسقاً ، فإذن لا يوجد أكثر من إله[2] » .

جـ ـ توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية :

التوحيد قسمان : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية : ولا يكون الانسان مؤمناً حقاً إلا إذا أقر بهما جميعاً ، وعمل بمقتضاهما .

أما توحيد الربوبية : فهو الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق للعالم ، وهو وحده المتصرف فيه بالرزق والإحياء والإماتة ، والشفاء والمرض ، وغير ذلك ، فليس لغير الله خلق في أي شيء من الاشياء ، « الله خالق كل شيء » « هل من خالق غير الله » .

وأما توحيد الألوهية ، فهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة ، والتوجه اليه بالدعاء .

---

(١) انظر فخر الدين الرازي للمرحوم محمد صالح الزركان : (٢٣٨) .
(٢) المرجع السابق .

هذا وإن معظم المشركين الذين بعث فيهم الرسل عامة والرسول عليه الصلاة والسلام خاصة كانوا ممن يؤمن ويعترف بوحدانية الربوبية ، فيعتقد أحدهم بأن الله هو وحده الخالق الرازق المحيي المميت ، وأن بيده كل شيء » قال الله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم[1] » .
وقال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون[2] » وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون[3] » .

وأما بالنسبة لتوحيد الألوهية ــ وهو استحقاقه وحده للعبادة ــ فقد كانوا يشركون معه غيره في العبادة ، مع اعتقادهم أن ما يتخذونه إلهاً من دون الله لا يخلق ولا يرزق ، ولذلك حاجهم القرآن بقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون[4] » . وقال الله سبحانه : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز[5] » ولقد نبه الله سبحانه بذلك الى أنه لا يستحق العبادة إلا من انفرد بالخلق والإيجاد . فهو القادر وغيره العاجز ، ومن يساوي بين الخالق والمخلوق والقادر والعاجز إلا أن يكون فاقد العقل أو ضعيف الرأي .

ولكن المشركين أرادوا أن يوجدوا مهرباً من هذا الإلزام ، وعذراً يقيمونه

---

(١) الزخرف : (٩) .
(٢) العنكبوت : (٦١) .
(٣) يونس : (٣١ ــ ٣٢) .
(٤) النحل : (١٧) .
(٥) الحج : (٧٣ ــ ٧٤) .

لأنفسهم في عبادتهم الأصنام وغيرها ، فقالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى[1] » .

ولأن من تمام حقيقة التوحيد توحيد الألوهية أي إفراد الخالق وحده بالعبادة كان شعار الدخول في الاسلام : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » أي أقر وأعترف أنه لا معبود بحق إلا الله ...

هذا ونحب أن نؤكد هنا أن جميع الرسالات السماوية كانت تدعو الى الإيمان بإله واحد ، ليس مركباً من أجزاء وليس له شريك في الملك ، ولا يحتاج الى ناصر ولا مساعد ولا وزير ولا مشير ، وأنه ليس بمولود وليس له ولد ولا زوجة وكل من يؤمن بخلاف ذلك فلا يمت بأية صلة الى أية رسالة من الرسالات السماوية وإن ادعى ذلك ، فالرسالات السماوية في ذلك واحدة متطابقة تمام التطابق .

الصفة الثانية ـ القدم :

آ ـ معنى القدم :

يطلق القدم ويرا دبه طول المدة ، فيقال : هذا بناء قديم أي مضى عليه زمان طويل .

ويطلق القدم ويراد به القدم الذاتي أي لا أول لوجوده ، وهذا هو المراد في حق الله تعالى ، والمعنى الاول مستحيل في حقه .

فمعنى القدم في حق الله تعالى : عدم الأولية للوجود ، أو عدم افتتاح الوجود.

ب ـ ادلة صفة القدم :

هنالك دليلان على اتصاف الله سبحانه بصفة القدم ـ كغيرها من الصفات : دليل قرآني ، ودليل عقلي .

---

(١) الزمر : (٣) .

الدليل القرآني : قوله سبحانه وتعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[1] » .

والدليل العقلي : أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، إذ لا واسطة بينهما ، ولو كان حادثاً لافتقر الى محدث ، ولو افتقر لمحدث لافتقر محدثه الى محدث وهكذا ، لانعقاد المماثلة بينهما ، فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما محال فما أدى اليه ، وهو افتقاره لمحدث محال . فما أدى اليه وهو كونه حادثاً محال ، فما أدى عليه وهو عدم كونه قديماً محال ، واذا استحال عدم كونه قديماً ، ثبت ضده وهو كونه قديماً ، وهو المطلوب .

هذا ولعلك لاحظت أن صفة واجب الوجود تستلزم صفة القدم ، فكان من الممكن الاكتفاء بها عنها .

وقد أورد الإمام الباجوري هذا الاعتراض وأجاب عليه بقوله :

« فان قلت : إن وجوب الوجود يستلزم القدم بل والبقاء ، فذكرهما بعده محضر تكرار ، قلت : علماء هذا الفن لا يكتفون بدلالة الالتزام ، بل يصرحون بالعقائد لشدة خطر الجهل في هذا الفن ، فلا يستغنون بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص[2] » .

هذا ولقد عالج الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي صعوبة تصور العقل لمعنى القدم في ذات الله سبحانه ، وعجزه عن ذلك ، مما دفع بعض السطحيين الى التساؤل : من الذي خلق الله ؟ . فقال في معالجة ذلك :

« إن جميع مدارك الانسان انما هو وليد تصوراته ، والتصورات انما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ الحواس الخمس ، وهذا يعني أن الانسان لا يعقل من

---

(١) الحديد : (٣) .
(٢) تحفة المريد : (٣٣) .

المجردات إلا ما كان له مقاييس ونماذج حسية في ذهنه ، فما لم يسبق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس ، فان من المحال بالنسبة اليه أن يتصوره ويدركه[1] » •

الصفة الثالثة ــ البقــاء :

آ ــ معنى البقــاء :

معنى البقاء كما قال الإمــام الباجوري : عدم الآخريــة ، وإن شئت قلت : عدم اختتام الوجود •

ب ــ ادلة صفة البقــاء :

١ ــ دليل البقــاء مــن القرآن مــا مرّ مــن قولــه تعــالى : « **هو الأول** والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » •

٢ ــ وأما الدليل العقلي في ذلك أنه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم ، وقد ثبت أن الله جل وعلا موجود قديم لذاته ، وما يثبت قدمه استحال عدمه •

الصفة الرابعة : قيامه بالنفس • ومعنى قيامه بنفسه عدم افتقاره جــل وعلا الى المحل أي الذات التي يقوم بها ، وعدم افتقاره سبحانه الى المخصص أي الموحد• والدليل على عدم افتقاره الى المحل أنه لو افتقر الى محل لكان صفته ، ولــو كان صفته لم يتصف بصفات المعاني والمعنوية التي ستأتي معنا ، وهي واجبة القيــام به تعالى للأدلة الدالة على ذلك ، والثاني باطل ، فبطل الأول ، فثبت عــدم افتقاره الى محل ، وهو المطلوب •

والدليل على عدم افتقاره الى المخصص أنه لو افتقر الى مخصص لكان حادثاً ، وقد سبق البرهان على وجوب وجوده وقدمه سبحانه وتعالى •

---

(١) كبرى اليقينيات : (٩٤) .

الصفة الخامسة ـ المخالفة للحوادث :

أ ـ معنى المخالفة للحوادث :

عـدم مماثلتـه لهـا في أية صفة لهـا ، فالله سبحانه وتعـالى ليس بجرم ، ولا عرض ، ولا كل ولا جزء ، فلا يتحيز بمكان ، ولا يقوم بغـيره ، ولا يوصف سبحانه بكبر ولا صغر . فهو مخالف سبحانه للحوادث من كل وجه .

ب ـ دليل مخالفته للحوادث :

١ ـ أما من القرآن الكريم فقوله سبحانه : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[١] » وقال سبحانه : « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولـد . ولم يكن له كفواً أحد » .

٢ ـ وأما الدليل العقلي فهو أنه لو لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلا لها ، ولو كان مماثلا لها لكان حادثاً ، إلا أنه سبحانه قـد ثبت بالدليل القاطع قدمـه ، فثبت أنه سبحانه مخالف للحوادث .

هذا ولقد نصّ الإمام الغزالي رحمه الله على أن من يقول إن الله جسم ؛ نص على أنه كافر حيث قال في كتابه : « إلجام العوام عن علم الكلام » : « فإن من خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم ، وإن كل جسم فهو مخلوق ، وعبادة الصنم كفر ، لأنه مخلوق ، وكان مخلوقاً لأنه جسم ، فمن عبد جسماً فهـو كافر بإجماع الأئمة السلف منهم والخلف ، سواء كان ذلك الجسم كثيفاً كالجبال الصم الصلاب ، أو لطيفاً كالهواء والماء : وسـواء كان مظلماً كالارض أو مشرقـاً كالشمس والقمر[٢] » .

---

(١) الشورى : (١١) .
(٢) الجام العوام عن علم الكلام : (٦ ـ ٧) .

هذا وقد نتج عن اتصافه سبحانه وتعالى بالمخالفة للحوادث بحثان ، هما من أهم بحوث العقيدة الاسلامية :

أحدهما — البحث في الآيات المتشابهة :

الثاني — رؤية الله سبحانه . واليك بيان ذلك :

الأول : الآيات المتشابهة وموقف العلماء منها :

وردت في القرآن الكريم آيات كريمة تفيد بظاهر ألفاظها ثبوت بعض صفات لله تعالى هي في الحقيقة من صفات البشر ، وذلك مثل قوله سبحانه : « يد الله فوق أيديهم » ومثل « وجاء ربك والملائكة صفاً صفا » وقوله « الرحمن على العرش استوى » وقوله « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . وقال تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون[1] » .

ولقد ورد مثل ذلك في الأحاديث الصحيحة كقوله عليه الصلاة والسلام : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟ [2] » .

وكقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزال يلقى فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه ، فينزوي بعضها الى بعض ، ثم تقول قدِ قدِ بعزتك وكرمك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشيء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة[3] » وكقوله عليه الصلاة والسلام : « يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوي

---

(1) الزمر : (٦٧) .
(2) اخرجه البخاري في الدعوات
(3) البخاري في التوحيد وغيره .

السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الارض [1] » ومثله قوله عليه الصلاة والسلام : يقول الله عزّ وتعالى : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منهم ، وان تقرب الي بشبر تقربت اليه ذراعاً ، وان تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وان أتاني يمشي أتيته هرولة[2] » .

ومنه ما رواه أنس قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ، فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، ان القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبهما كيف يشاء[3] » ومن ذلك ما رواه أحمد والبخاري ومسلم : « ان رجلاً ضرب عبده فنهاه النبي ﷺ وقال : إن الله تعالى خلق آدم على صورته » والضمير عائد على الله في صورته ، كما يقتضيه التصريح بذلك في بعض طرق الحديث حيث جاء : « فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن » .

الى غير ذلك من الاحاديث الصحيحة التي جاءت فيها صفات تدل بظاهرها على أنها من صفات البشر .

ولقد وقف العلماء حيال هذه الآيات القرآنية ــ التي هي من المتشابه ــ وقفوا موقفين ، وذهبوا الى مذهبين بعد أن اتفقوا جميعاً على تنزيه الله عزّ وجل عما لا يليق به :

أحدهما :وهو مذهب الخلف ، وهم من كانوا بعد الخمسمائة أو الثلاثمائة ذهب هؤلاء الى تأويل هذه النصوص وإخراجها عن معانيها الى معانٍ تليق بالله عزّ وجل ، فيكون استعمالها في المعاني التي استعملت فيها في حق الله عزّ وجل

---

(١) البخاري في التوحيد .

(٢) البخاري في التوحيد .

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢١٤١) .

من قبيل المجاز ، ففسروا مثلا اليد بالقدرة ، والنزول بمعنى ملائكته ، والمجيء بمعنى مجيء ملائكته ، والى أن المراد بالصورة في قوله : « على صورته » الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة فهو على صفته في الجملة ، وان كانت صفة الله تعالى وصفة الانسان حادثة .

وذهب بعضهم في هذا الحديث الى أن الضمير راجع الى الأخ المصرح به في الطريق التي رواها مسلم بلفظ : « فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فان الله خلق آدم على صورته » أي واذا كان كذلك فينبغي احترامه باتقاء الوجه[1] .

المذهب الثاني : مذهب السلف ، وهم من كانوا قبل الخمسماية ، وقيل : هم القرون الثلاثة الصحابة والتابعون ، وأتباع التابعين الذين جاء وصف قرونهم بالخيرية في قوله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم[2] » .

ذهب هؤلاء السلف مذهب التفويض ، فقالوا : إن علينا أن نصف الله سبحانه بما وصف به نفسه من غير تأويل ، بل نكل ذلك الى علم الله سبحانه بما وصف به نفسه ، ونسلم بذلك تسليما .

ولقد سئل الإمام مالك رضي الله عنه عن قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى » فقال بعد أن أطرق مليا : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ولقد اختلف العلماء في أي المذهبين أرجح ، فرجح بعضهم مذهب الخلف وقال : مذهب الخلف أعلم وأحكم ، ومذهب السلف أسلم . وذهب قوم الى ترجيح مذهب السلف ، لما فيه من تفويض بيان المعنى الحقيقي الى علم الله سبحانه،

---

(١) انظر تحفة المريد : (٥٤ ـ ٥٥) .
(٢) اخرجه البخاري في الشهادات واخرجه غيره .

وعندي أن مذهب السلف هـذا هو أولى وأرجح ، لأننـا سلمنا أموراً كثـيرة لله تعالى ، ووكلنا علمها له سبحانه ، فليكن هذا كذلك ، وحسبنا أن نقـول : إن الله منزه عن أن يتصف بصفة مما يتصف به البشر ، على المعنى الذي يتصف به البشر .

وقد علق ابن تيمية رحمه الله تعالى على قول المتكلمين : « طريقة السلف أسلم وطريقة هؤلاء أعلم وأحكم » ، علق عليها بقوله :

« فإنه وإن لم يكن تكفيراً للسلف كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج ، ولا تفسيقاً لهم كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم ، كان تجهيـلاً لهم وتخطئة وتضليلا ، ونسبة لهم الى الذنوب والمعاصي ، وإن لم يكن فسقاً فزعما: أن أهل القرون المفضولة في الشريعة أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة .

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهـل السنة والجماعة من جميع الطوائف : أن خير قرون هذه الأمة ــ في الأعمال والأقـوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة ــ أن خيرهـا القرن الأول ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه ، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة ، من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة ، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل ، هذا لا يدفعه إلا مـن كابر المعلوم بالضرورة مـن دين الاسـلام ، وأضله الله على علم ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « مـن كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ، أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهـم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفـوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهـم ، فانهم كانوا على الهـدى المستقيم » . وقال غيره « عليكم بآثار من سلف ، فانهم جاءوا بما يكفي وما يشفي ، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه » .

هذا وقال ﷺ : « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » فكيف يحدث لنا زمان فيه الخير في أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى ، هـذا لا يكون أبدا . ــ

وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته : « هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل ، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هـدى ، ورأيهم خير من رأينا لأنفسنا[1] » .

هذا ولقد ذكر الباجوري أن مردّ الخلاف بين السلف والخلف ، هو الخلاف في الوقف في الآية الكريمة : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكّر إلا أولوا الألباب[2] » فمنهم من يرى الوقف على قوله والراسخون في العلم ، فجملة يقولون جملة مستأنفة ، فيكون الراسخون معطوفاً على لفظ الجلالة ، وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه ، ومنهم من يرى الوقف على لفظ الجلالة ، وجملة والراسخون جملة مستأنفة ، وعلى هـذا فيقتصر معرفة المتشابه والعلم بـه على الله سبحانه ، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون به ويفوضون أمر علمه الى الله سبحانه[3] .

هذ اولقد ذكر الإمام ابن تيمية تفسيراً حسناً لقوله سبحانه : « كل شيء هالك إلا وجهه » حيث ذكر أن المراد بالوجه هنا الجهة ، وأن معنى الآية : كل شيء هالك إلا ما أريد به جهة الله تعالى ، مثل قول الله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » أي قبلة الله ووجهة الله ، وقال هكذا قال جمهور السلف[4] .

هذا ونختم هذ هالمسألة بحوار جرى بين الزمخشري والغزالي حول قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ذكر ذلك الإمام الباجوري في حاشية الجوهرة فقال :

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية : (٤/١٥٧ — ١٥٨) .
(2) آل عمران : (٧) .
(3) تحفة المريد : (٥٣) .
(4) مجموع الفتاوى : (٢/٤٢٧ فما بعدها) .

« سأل الزمخشري الغزالي عن هذه الآية فأجابه بقوله : اذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينية ، فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف ، وهو مقدس عن ذلك ، ثم جعل يقول :

قل لمن يفهم عني ما أقول — قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه — قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا — تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت — فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها — هل تراها فترى كيف تجول
وكذا الأنفاس هل تحصرها — لا ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم اذا — غلب النوم فقل لي يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه — كيف يجري منك أم كيف تبول
فاذا كانت طواياك التي — بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى — لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكي الرب أم كيف يرى — فلعمري ليس ذا إلا فضول
فهو لا أين ولا كيف له — وهو رب الكيف والكيف يحول
وهو فوق الفوق لا فوق له — وهو في كل النواحي لا يزول
جلّ ذاتا وصفات وسما — وتعالى قدرة عما تقول[1]

الثاني ــ رؤية الله سبحانه وتعالى :

أ ــ إمكان الرؤية :

بحث الباحثون في هل بالامكان رؤية الله تعالى أ وليس بالممكن ذلك وانقسموا في ذلك الى الفريقين :

---

(١) تحفة المريد : (٥٤)

الفريق الأول : وهم المعتزله يرون انــه ليس من الممكن رؤيته تعالى ، لأنــه لو كان سبحانه وتعالى مرئياً لكان مقابلاً للرائي بالضرورة ، فيكون في جهة وحيز ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك • واحتجوا على نفي الرؤية أيضا بقولــه تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام : « لن تراني » قالوا : إن « لن » هنا تفيد التأبيد ، فاذا كان الله سبحانه قد نفى الرؤية في حق موسى على وجه التأبيد كان غيره ممنوعــاً من الرؤية من باب أولى •

الفريق الثــاني : وهم الأشعرية والماتريديــة ذهبــوا الى أن رؤية الله مــن الممكنات ، واستدلوا على الإمكان بقصة موسى اذ قال : « رب أرني أنظر اليــك قــال لن تراني ولكن انظر الى الجبــل فان استقر مكانه فسوف تراني » ووجــه الاستدلال بهذه الآية على الإمكان من وجهين :

الوجه الاول : أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يراه ، فلو كانت الرؤيــة مستحيلة لما سألها موسى عليه السلام ، وإلا كان جاهلاً بربه أو عاصياً له ، والجهل والعصيان على الأنبياء محالان ، فثبت أنه ليس بمستحيل بل هو ممكن ، وهــذا هو المطلوب •

الوجه الثاني : أن الله سبحانه قد علق الرؤية على أمر ممكن وهو استقرار الجبل في مكانه ، والمعلق على الممكن ممكن ، فالرؤية ممكنة •

وأجابوا عن دليل المعتزلة الاول بقولهم : إن قولكم لكان مقابلاً بالضــرورة ممنوع، فلزوم الجهة والحيّز ممنوع، اذ الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه ، ولايشترط فيها مقابلة المرئي ولا كونه في جهة وحيز ولا غير ذلك •

وعن الآية القرآنية بأن لن هي لمطلق النفي ، ولا تفيد تأبيداً ولا تأكيداً •

ب ـ وقوع الرؤية :

لا شك أن القائلين باستحالة الرؤية قائلون بعــدم وقوعها مــن باب أولى • وأما القائلون بالإمكان والجواز فقد انقسموا الى قسمين :

فسم ذهب الى عدم الوقوع وهم قلة ، حتى ان الامـــام الرازي ذهب الى أن هذا القول قول ثالث محــدث خارق للاجماع ، لأن من يقول بالصحة هو قائــل بالوقــوع •

وقسم ذهب الى وقوعه ، ولكن اختلفوا هل يقع في الدنيــا والآخرة ، أو هو واقع في الآخرة فقط •

أما وقوعه في الدنيا فقد ذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما الى أن الرسول عليه الصلاة والســلام قد رأى ربه ليــلة المعراج بعيني رأسه ، وعزي هذا القول الى الامام أحمد رضي الله عنه •

وذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم السيدة عائشة وعبد الله بن مسعود الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ير ربه •

فقد جاء في صحيح البخاري عن مسروق قال : « قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت مــن ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقــد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » • « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » ومن حدثك أنه يعلم ما في غــد فقد كذب ، ثم قرأت : « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا » • ومن حدثك أنــه كتم فقــد كذب ، ثم قرأت : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك » الآية ، ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين[1] » •

وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري أن الشيء الــذي يثبته هو رؤيــة القلب لا رؤية البصر ، فقد وردت عنه أحاديث فيها الرؤية مطلقة وأحاديث فيها الرؤيــة مقيدة برؤية الفؤاد ، فيحمل المطلق على المقيد •

---

(١) البخاري في كتاب التفسير « تفسير سورة النجم » •

والشيء الذي تنفيه **السيدة عائشة هو رؤية البصر** ، فقال رحمه الله بعد أن ساق الأحاديث المتنوعة في هذا الباب : « وعلى هذا فيمكن الجمع بين اثبات ابن عباس ونفي عائشة ، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، واثباته على رؤية القلب[1] » .

وقال الامام ابن تيمية رحمه الله : وقد اتفق المسلمون على أن أحداً من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا ، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصة ، مع أن جماهير الأئمة أجمعوا على أنه لم يره بعينه في الدنيا ، وعلى هذا دلت الآثار الصحاح الثابتة عن النبي ﷺ ، والصحابة وأئمة المسلمين .

ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الامام أحمد وأمثالهما ؛ أنهم قالوا : إن محمداً رأى ربه بعينه ، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية ، وإما تقييدها بالفؤاد .

وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه[2] » .

وفي ذلك يقول ابن القيم في زاد المعاد : « واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة ــ أي ليلة المعراج ــ أم لا ، فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقالا : إن قوله: « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » انما هو جبريل .

وصح عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنّى أراه » أي حال بيني وبين رؤيته النور ، كما قال في لفظ آخر : « رأيت نوراً » .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس إنه رآه مناقضاً لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده ، وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك

---

(١) فتح الباري : (٨/٤٣٠) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٢/٣٣٥ فما بعدها) .

وتعالى ، ولكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه ، وعلى هذا بنى الامام أحمد رحمه الله تعالى وقال : نعم رآه حقاً ، فان رؤيا الأنبياء حق ولا بدّ ، ولكن لم يقل أحمد رحمه الله تعالى : إنه رآه بعيني رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه ، ولكن قال مرة رآه ، ومرة قال :رآه بفؤاده ، فحكيت عنه روايتان ، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه ، وهذه نصوص أحمد موجودة ، ليس فيها ذلك[1] » .

وأما وقوع الرؤية في الآخرة فقد ثبتت بالقرآن الكريم والسنة النبوية والاجماع . أما القرآن الكريم فقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة[2] » . وفعل النظر اذا عدي بإلى كان بمعنى الرؤية ، كما قال الشاعر :

نظرت الى من حسن الله وجهه   فيانظرة كادت على وامق تقضي

وهو في الآية معدى بإلى كما ترى ، فيكون بمعنى الرؤية .

وقوله تعالى في شأن الكافرين : « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون[3] » ذكر ذلك تحقيراً لهم ، فلزم أن يكون المؤمنون مبرئين من ذلك ، فثبت في حقهم الرؤية.

وقد قال الامام مالك رضي الله عنه : « لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكافرون بالحجاب ، قال تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

وقال الامام الشافعي رضي الله عنه : « لما حجب قوماً بالسخط دلّ على أن

---

(١) زاد المعاد : (٣ ــ ٣٧ ــ ٣٨) .
(٢) القيامة : (٢٣) .
(٣) المطففين : (١٥) .

قوماً يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس بأنه يرى ربــه في الميعاد لما عبده في الدنيا[1] » .

وأما السنة الشريفة فما روي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنــه قال : « كنا مع النبي ﷺ ، فنظر الى القمر ليلة يعني البدر فقــال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا عــلى صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[2] » .

وفي البخاري أيضاً : « أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فهل تمارون في رؤية الشمس ليس دونهــا سحاب ؟ قالوا : لا قــال فانكم ترونه كــذلك[3] » .

وأما الاجماع : فقد كان الصحابة رضي الله عنهم مجمعين على وقوع الرؤية في الآخرة .

هذا ، واذا كان الوقوع أقوى أدلة الإمكان ، كمــا هي القاعدة ، كان مــن الواجب علينا أن نعدّ هذه الادلة أدلــة على الامكان أيضاً ، ولهــذا قال صاحب المــواقف :« كــل ما سنتلوه عليك مما يــدل على وقوع الرؤية فهو دليــل على جــوازهــا[4] » .

ثالثاً ــ صفات المعاني :

آ ــ عددها : صفات المعاني سبــع ، وهي : الحيــاة ــ العلم ــ الإرادة ــ القدرة ــ السمع ــ البصر ــ الكلام .

ب ــ تعريفهــا : هي كل صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، موجبــة له حكما ،

---

(١) انظر تحفة المريد : (٦٧) .
(٢) ق : (٣٩) والحديث اخرجه البخاري .
(٣) اخرجه البخاري في كتاب الأذان والترمذي وابن ماجه .
(٤) المواقف : (٣٠٢) .

وذلك كالقــدرة مثلا ، فانها صفــة آزلية قائمة بذاتــه تعالى ، وتوجب لــه أن يكون قــادراً .

جـ ـ تعريف هذه الصفات وأدلتها :

الصفة الاولى : الحيــاة :

وتعريف الحياة : هي صفة أزلية تقتضي الاتصاف بالعلم ،

دليلها : من القرآن الكريم قوله تعالى : « الله لا إلــه إلا هو الحي القيــوم لا تأخذه سنة ولا نوم » فاتصافه سبحانه بأنه حي نتيجة لثبوت صفة الحياة له .

ودليلها من العقل : أن تقول : إن الله متصف بالعلم والقدرة والإرادة ، وكــل من كان كذلك ، وجبت له الحياة ، فالله تجب له الحياة .

الصفة الثانية : العلم :

تعريفها : هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات على وجه الاحاطة على ما هي عليه ، من غير سبق خفاء .

فيعلم الله جل وعز الأشياء أزلاً على ما هي عليه ، وكونها وجــدت في الماضي أو موجودة في الحال ، أو توجد في المستقبل ، فهو يعلم الأشياء اجمالا وتفصيــلا ويعلم الكليات والجزئيات .

دليلهــا : من القرآن الكريم آيات كثيرة ، منها قولــه تعالى : « إن الله بكل شيء عليم » وقوله سبحانه : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر مــن معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير[1] » وقال سبحانــه :

---

(١) فاطر : (١١) .

« إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمـــه[1] » .

وقال عز وجل : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السمـوات والارض ولا يؤوده حفظهـما وهو العـلي العظيـم[2] » .

وقال جل جلالـه : «إن الله عالم غيب السمـوات والارض إنـه عليم بذات الصدور[3] » . وقال جلت قدرته : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين[4] » .

وأما الدليل العقلي على علمه سبحانه فهو أن فعله سبحانه متقن ، وكل مـن فعله متقن وهو مختار فيه فهو عالم .

أما الدليل على أن فعله متقن فظاهر لمن نظر في الآفاق وفي الأنفس ، وتأمـل ارتباط العلويات بالسفليات ، سيما في الحيوانـات وما هديت اليه من مصالحهـا ، وأعطيت من الآلات المناسبة لها ، ويعـين على ذلك علم التشريح ، ومنافع خلقـة الانسان وأعضائه التي ألفت فيها المجلدات .

وأما الدليل على أن من فعله متقن وهو مختار فهو عالم ، فهو أن مـن رأى خطاً حسناً يتضمن ألفاظاً عذبة رشيقة تدل على معانٍ دقيقة مؤنقة ، علم بالضرورة أن كاتبه عالم ، وكذلك من سمع خطاباً منتظماً مناسباً للمقام مـن شخص يضطر الى أن يجزم بأنه عالم[5] .

---

(1) فصلت : (٤٧) .
(2) البقرة : (٢٥٥) .
(3) فاطر : (٣٨) .
(4) الأنعـام : (٥٩) .
(5) انظر المواقف : (٢٨٥) .

الصفة الثالثة : الإرادة :

تعريفها : هي صفة قديمة زائدة على الذات قائمة بـه تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه . وما يجوز عليه هو الممكنات الست المتقابلات ، وهي :

١ً ــ الوجود : ويقابله العدم ، وبالعكس .

٢ً ــ الصفات : فبعضهـا يقابـل البعض الآخر ، فكونـه أبيض ، يقابـل كونـه أســود .

٣ً ــ الأزمنة : فبعضها يقابل البعض الآخر ، فكونه في زمن الطوفان يقابل كونه في زمن محمد عليه الصلاة والسلام .

٤ً ــ الأمكنة : فبعضها يقابل بعضاً ، فكونه في دمشق مثــلا ، يقابل كونه في مكان آخر غيرها .

٥ً ــ الجهــات : فبعضها يقابل بعضاً ، فكونـه في المشرق ، يقابل كونـه في جهــة المغرب .

٦ً ــ المقادير : فبعضها يقابل بعضاً ، فكونه طويلا يقابل كونه قصيراً ، وقـد جمع بعضهم هذه الممكنات في بيتين فقال :

المكنــات المتقــابــلات ... وجودنــا والعدم الصفــات
أزمنــة أمكنــه جهـــات ... كذا المقــادير روى الثقــات

دليلها : أما دليلها من القرآن الكريم فقوله تعالى : « ومن يرد الله فتنتـه فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم[1] » . وقولـه جـل وعز : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال[2] » . وقال سبحانه : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم

(١) المائدة : (٤١) .
(٢) الرعـد : (١١) .
(٣) القصص : (٥ ــ ٦) .

الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون[1] » الى كثير من الآيات التي تثبت لله سبحانه إرادة .

وأما الدليل العقلي : فيتلخص في أن الله تعالى لو لم يكن موصوفاً بالارادة لاتصف بضد من أضدادها ، كالإكراه ، والسهو ، والآفة ، وهذا عليه محال ، فيجب الاتصاف بضده وهو الإرادة ، وأيضاً لو لم يكن متصفاً بالإرادة للزم عليه ضدها وهو الاكراه ، والاكراه يستلزم مكرها ، وذلك ينافي ما ثبت من أنه واجب الوجود وأنه إلـه .

هذا وقد أتى الباجوري ببرهان آخر على الإرادة فقال : « والدليل على وجوب الإرادة له تعالى أن تقول : الله صانع للعالم بالاختيار ، وكل من كان كذلك تجب له الإرادة ، فالله تجب له الإرادة[2] » .

هل الإرادة هي الأمر والرضا ؟.

سوف يأتي معنا في متعلق الصفات أن الإرادة تتعلق بالممكن على وفق ما سيوجد عليه في المستقبل ، سواء أكان ذلك خيراً أو شراً ، مأموراً به أو منهياً عنه ، وهذا التعلق لا يقتضي شيئاً من القسر والجبر لأفعال العباد كما سيأتي .

وأما الأمر فهو طلب الفعل ، وأما الرضا فهو قبول الشيء والإثابة عليه ، وهذان لا يتعلقان إلا بالأمر المستحسن ، وبالشيء المحبوب ، ولا يتعلقان بالقبيح ولا بالمكروه ، فيقال رضي الله لنا بالايمان وأمرنا بـه ، والطاعة والصلاح وأحب لنا ذلك ، وأمرنا به ، وكره لنا الكفر والفسوق والعصيان منا ولم يأمرنا به ، إلا أنه سبحانه قد أراده ممن وقع منه .

وعلى هذا فالإرادة شيء ، والأمر والرضا شيء آخر ، ومثل الرضا المحبة ، ومثل الإرادة المشيئة .

---

(١) تحفة المريد : (٤٠) .

إلا أنه قد تلتقي الإرادة مع الأمر ، وقد لا تلتقي ، وقد جعل الامام الباجوري تلاقي الارادة والأمر على أربعة أحوال :

الأول : أنهما قد يلتقيان ، وذلك كإيمان من علم الله منهم الإيمـان ، فان الله تعالى أراده منهم وأمرهم به •

الثاني : قد ينتفيان أي إنه لا يريد ولا يأمر ، وذلك كوقـوع الكفر ، مـن هؤلاء الذين ثبت في علم الله إيمانهم • فإنه لم يأمرهم بالكفر ولم يرده لهم •

الثالث : أنه قد يريد ولا يأمر ، وذلك كوقوع الكفر والمعاصي ممـن علم الله وقوع ذلك منهم ، فانه سبحانه أراده أي لم يقع رغماً عنه ، ولكنه لم يأمر به •

الرابع : قد يقع الأمر ، ولا تكون الإرادة ، وذلك كإيمان الذين علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ، فهو لم يرد لهم الإيمان ولكنه أمرهم به •

هذا وذهبت المعتزلة الى القـول بأن إرادة الله لا تتعلق بالشـرور والقبائح ، وحكي أن القاضي عبـد الجبار الهمذاني دخـل على الصاحب بن عباد وعنـده أبو اسحق الاسفرايني ، فلما رأى الاستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشـاء ، فقال الأستاذ : سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء ، فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يعصى ؟ فقال الأستاذ : أفيعصى ربنا كرها ، فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى ، وقضى علي بالردى ، أحسن الي" أم أساء ؟ قال الاستاذ : إن منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له فهو يخص برحمته من يشاء[1] •

وقد تبين مـن ذلك أنه يجوز أن يقـال : إن الله أراد وشـاء خلق الشـر ، وخلق الله الشر ، لأن هذه من الممكنات ، وإن كان الأدب يقتضي أن لا تتكلم بذلك•

فقد قال الامام الباجوري في ذلك : « واختلف العلماء في جـواز نسبة خلق

---

(١) تحفة المريد : (٣٩) .

الشرور والقبائح اليه تعالى ، والراجح جواز ذلك في مقام التعليم لا في غيره ، وهذا الخلاف جار أيضا في نسبة الأمور الخسيسة اليه تعالى ، والأصح الجواز في مقام التعليم لا في غيره ، فلا يجوز أن يقال : الله خالق القردة والخنازير ، وسبحان من رزق الهدهد ، ومن دبب الشوك ان لم يكن في مقام التعليم[1] .

الصفة الرابعة : القدرة :

تعريفها : هي صفة أزلية قائمة بذاته يتأتى بها ايجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الارادة .

هذا ولا بد من التنبيه هنا على أن الارادة والقدرة لا علاقة لهما بالمستحيلات ولا بالواجبات ، لأن المستحيل لا يتصور في العقل وجوده ، والواجب لا يتصور في العقل عدمه ، وسنبين هذا فيما يأتي ان شاء الله تعالى .

دليلها : من القرآن الكريم آيات كثيرة منها قوله تعالى : « أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم[2] .

وقال سبحانه : « أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير[3] وقال جل وعزّ : « أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى[4] » .

فاتصاف الله بأنه قادر يستدعي أن تكون له صفة هي القدرة .

---

(١) تحفة المريد : (٤٠) .
(٢) يس : (٨١) .
(٣) الأحقاف : (٣٣) .
(٤) القيامة : (٣٦ ــ ٤٠) .

وأما دليلها العقلي : فهو أن تقول : الله صانع قديم له مصنوع حادث ، وكل من كان كذلك تجب له القدرة •

الصفة الخامسة : السمع :

تعريفها : هي صفة أزلية قائمة بذاته ، تتعلق بالموجودات ، سواء أكانت أصواتاً أو غيرها ، كالذوات ، وهذه طريقة السنوسي ، ويرى السعد أنها تتعلق بالمسموعات •

قال الامام الباجوري : فيحتمل أن مراده بالمسموعات في حقنا وهي الاصوات فيكون مخالفاً لطريقة السنوسي ومن تبعه ، ويحتمل أن مراده بالمسموعات في حقه تعالى ، وهي الموجودات ، الأصوات وغيرها ، فيكون موافقاً لطريقة السنوسي[1] » •

ومما يجب التنبيه اليه أن سمعه سبحانه لا يفتقر الى حاسة ، ولا يحتاج الى واسطة كالهواء ، ولا الى شيء مما يحتاج اليه الانسان وغيره •

الصفة السادسة : البصر :

تعريفه : هو صفة أزلية قائمة بذاته تتعلق بالمبصرات أو الموجودات على ما سبق من الخلاف •

والدليل على اتصافه سبحانه بالسمع والبصر دليل نقلي مقطوع به ، سواء أكان ذلك من الكتاب أو السنة •

قال الامام الباجوري : « ويجب اعتقاد أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر ، وأن كلاً منهما غير الانكشاف بالعلم ، ولكل حقيقة يفوض علمها لله تعالى،

---

(١) تحفة المريد : (٤٣) .

وليس الأمر على ما نعهده من أن البصر يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم ، بل جميع صفاته تامة كاملة ، يستحيل عليه الخفاء والزيادة والنقص الى غير ذلك[1] » .

الصفة السابعة : الكلام :

تعريفه : هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، هو بها آمر وناه ومخبر ، عبّر عنها نظم ما أوحاه الى رسله كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور . وهي ليست بحرف ولا صوت ، وهي منزهة عن التقدم والتأخر والإعراب والبناء .

دليله : من القرآن الكريم قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما[2] » وقوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه[3] » ودليله من السنة ما ثبت في الحديث الصحيح من أن الرسول عليه الصلاة والسلام خاطبه ربه ليلة المعراج ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، بعد أن فرضها عليه خمسين صلاة ، وما زال يراجعه حتى جعلها خمساً في العدد وخمسين في الأجر . وفي هذ االحديث يقول عليه الصلاة والسلام : فلما جاوزت ناداني مناد : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي[4] » .

رابعا : الصفات المعنوية :

آ ـ الصفات المعنوية هي نتائج لصفات المعاني ، أي هي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفا تالمعاني ، فحينما ثبت له سبحانه صفة القدرة نتج عن ذلك كونه قادراً وهكذا .

والصفات المعنوية سبع هي : كونه سبحانه حياً ـ عليماً ـ مريداً ـ قادراً ـ

---

(1) المصدر السابق .
(2) النساء : (١٦٤) .
(3) التوبة : (٦) .
(4) اخرجه البخاري في باب المعراج .

سميعاً ـ بصيراً ـ متكلماً . وقد ثبتت له سبحانه هذه الصفات بنص القرآن الكريم ، وقد مضت الآيات التي تدل على ذلك .

ب ـ متعلقات صفات المعاني والمعنوية :

هذه الصفات من حيث التعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تنقسم الى أربعة أقسام :

القسم الأول : ما يتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات جميعاً ، وهو كل من صفتي العلم والكلام ، أما صفة العلم فلأنها علم ما يصلح للعلم على ما هو عليه من وجوب أو استحالة أو جواز ، ومن المحال أن لا يكون علمه سبحانه متناولا لجميع الواجبات والممكنات والمستحيلات .

وأما صفة الكلام فلأنها تتعلق بما أريد بيانه تعلق دلالة وبيان أوامر أو نهي ، وقد احتوى كلامه سبحانه وتعالى الحديث عن الواجب كوجوب وجود ذاته سبحانه ، وعن المستحيل كشريك الباري واتخاذ الزوجة والولد ، وعن الجائز ، كخلق الانسان والشجر والدواب وسائر الممكنات .

القسم الثاني : ما يتعلق بالممكنات فقط ، وهو كل من صفتي الإرادة والقدرة ، أما الواجب والمستحيل فلا تعلق لهاتين الصفتين بهما .

وذلك لما مرّ من أن كلاً من صفتي الارادة والقدرة انما يتعلقان بالأشياء على وجه التخصيص والتأثير ، كالإيجاد والإعدام وسائر وجوه الممكنات التي مرّ ذكرها ، والواجب لا يمكن اعدامه والمستحيل لا يمكن ايجاده ، وإلا لما كان الواجب واجباً والمستحيل مستحيلاً . ولو أمكن اعدام الواجب مع بقائه واجباً ، أو ايجاد المستحيل مع كونه منعدم الوجود ، لترتب على ذلك اجتماع النقيضين في شيء واحد في آن واحد ، وهو معلوم الاستحالة عقلاً .

وعلى هذا اذا كان الشيء واجباً لا يسأل هل يقدر الله أن يعدمه ، واذا كان

مستحيلاً عقلاً لا يسأل هل يقدر الله أن يوجـده ، لأن الارادة والقدرة أصـلاً لا تتوجهان لا الى الواجب ، ولا الى المستحيل ، بل الى الممكن فقط .

القسم الثالث : ما يتعلق بالموجودات ، وهو كل من صفتي السمع والبصر . فهما لا يتعلقان بالمعدومات ، وان كانت من الممكنات ، بـل تتعلقان بالموجـودات سواء أكانت من نوع من الممكن أو الواجب .

القسم الرابع : ما لا يتعلق بشيء ، وهو صفة الحياة ، فهي بالنسبة لله جـل جلاله صفة قائمة بذاته ، لا تعلق لها بشيء سواه ، اذ ليس لها علاقة بالأشياء ، وانما هي معنى قائم بذات الله تعالى من شأنه أن يصحح قيام تلك الصفات به جلّ وعزّ .

جـ ـ مسالة كلام الله وخلق القرآن :

لقد مرّ بنا أن صفة الكلام التي يثبتها أهل السنة والجماعة ، هي صفة أزلية قائمة بذاتـه ولا تتصف بحرف ولا صـوت ، ولا غير ذلك مـن صفـات الكلام البشري ، وبرهنا فيما مضى على ثبوت هذه الصفة له سبحانه .

وتحقيق هذه الصفة أن الكلام في اللغة العربية يطلق بالاشتراك على معنيين :

أحدهما : المعنى القائم بالنفس الذي من شأنه أن يعبر عنه بألفاظ ، وعلى هذا قو لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة عندما اجتمعوا لاختيـار خليفة لرسول الله ﷺ ، قـال : « إني زورت في نفسي مقالة » أي هيـأت كلاما ، وقول الأخطـل :

إن الكلام لفي الفـؤاد وإنمـا جعل اللسان على الفؤاد دليـلا

ثانيهما : الألفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس ، فتقول : هذا كلام فصيح وكـلام واضـح .

اذا علمت هذا فاعلم أن الله سبحانه قـد ثبت له صفة الكلام بإجماع الأمـة الاسلامية ، وتواتر النقل عن الأنبياء عليم الصلاة والسلام أنه سبحانه وتعالى متكلم مع القطع باستحالة التكلم من غير ثبوت كلام، وهذا القدر من الاجماع لا خلاف فيه لأحد من المسلمـين .

غير أن المعتزلة فسروا هذا الذي أجمع المسلمون على اثباته لله تعالى ، فسروه بأنه أصوات وحروف يخلقها الله في غيره كاللوح المحفـوظ وجبريل وغـير ذلك ، وعلى هذا فكلام الله حادث وليس بقديم ، ثم انهم لم يثبتوا لله شيئاً آخر من وراء هذه الاصوات والحروف تحت اسـم الكلام ، وأنكروا أن يكون لله صفة قديمـة قائمة بذاته هي الكلام . وبناء على ذلك قالوا بخلق القرآن .

أما جماهير المسلمين ، وهم أهل السنة والجماعة ، فقد قالوا : ان هذه الحروف والاصوات التي تدل على معاني كلام الله لا شك أنها حادثة ، ونسميها كلاماً لفظياً ، ولكننا نثبت الى جانب ذلك صفة ازلية قائمة بذاته هي الكلام ، وهي تلك المعاني التي يعبر عنها بالألفاظ ، وهي غير صفـة العلم والارادة ، وانما هي صفـة مهيأة لأن يخاطب بها الآخرون على وجه الأمر والنهي والخبر والوعد والوعيد ، وقدشرحنا ذلك فيما مضى .

هذا ولقد نقل بعضهم عن الامام أحمد أنه كان يقول : ان الحروف والاصوات في القرآن الكريم قديمة . وكذلك أتباعه من الحنابلة . وقـد ذكر ذلك النسفي في تبصرة الأدلة . وقال العضد الإيجي في المواقف : « ثم قال الحنابلة : كلامـه حرف وصوت يقومان بذاته ، وانه قديم ، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً : الجلد والغلاف قديمان ، وهذ اباطل بالضرورة ، فان حصول كل حرف مشروط بانقضاء الآخر ، فيكون له أول فلا يكون قديما ، فكذلك المجموع المركب منه[1] » .

وقد أنكر ابن تيمية نسبة ذلك الى الامام أحمد أو أحد من أصحابه فقـال :

---

(١) المواقف : (٢٩٣) .

« من قال ان صوت العبد بالقرآن ، ومداد المصحف قديم فهو مخطىء ضال ، ولم يقل بهذا أحد من علماء أصحاب الامام أحمد ولا غيرهم .

وما نقل عنهم أنهم يقولون : ليس القرآن إلا الصوت المسموع من القارىء والمداد الذي في المصحف ، وهو مع ذلك قديم فهو كذب مفترى ، ما قاله أحمد ، وأحضر نصوص الامام أحمد وأصحابه[1] » .

هذا ومع اعتقادنا ان الألفاظ التي نقرؤها في القرآن حادثة ، لا يجوز أن نقول القرآن حادث خشية الالتباس . وفي هذا يقول الامام الباجوري :

« ومع كون اللفظ الذي نقرؤه حادثا لا يجوز أن يقال القرآن حادث ، إلا في مقام التعليم ، لأنه يطلق على الصفة القائمة بذاته تعالى أيضاً ، لكن مجازاً على الأصح ، فربما يتوهم من إطلاق أن القرآن حادث ، أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثة ، ولذلك ضرب الامام أحمد بن حنبل وحبس على أن يقول بخلق القرآن فلم يرض[2] » .

ب ـ المبحث الثاني في الكونيات

المقصود بالكون هنا لا يقتصر على الارض التي نعمرها ، بل يتناول ذلك ويتجاوزه الى النجوم والكواكب ، والى الشمس والقمر ، والى القوانين التي تربط هذه الاشياء بعضها الى بعض ، حتى إنه يشمل ما يبصره الانسان وما لا يبصره ، وما خلق وما يخلق .

وفي البحث التالي لا يعنينا أن نبحث عن كل شيء يتعلق بالكون ، فان كل جانب من جوانبه له علم تفرد بالبحث عنه ، وانما يعنينا في هذا البحث أشياء

---

(٢) مجموع الفتاوى : (٣/٢٠٨) .
(١) تحفة المريد : (٤٣) .

تتعلق بهذا الكون قد عرضت لها النصوص الشرعية فأصبحت ذات ارتباط وثيق بالعقيدة وبالعلم الذي يتحدث عنها ، واليك هذه الاشياء :

١ ـ خلق الكائنات في ستة ايام :

آ ـ ادلة هذا الخلق :

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تنص على أن الله جلت قدرته قد خلق السموات والارض ـ وهما الكون جميعه ـ في ستة أيام ، فمن الآيات التي تنص على ذلك :

١ ـ قوله سبحانه : «إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[1] » •

٢ ـ قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم[2] » •

وقد ورد في بعض الآثار أن ابتداء الخلق كان في يوم الاحد ، والانتهاء في يوم الجمعة ، وأن الانسان قد خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة ، وأما يوم السبت فلم يكن فيه خلق قط •

---

(١) الاعراف : (٥٤) .
(٢) فصلت : (٩ ـ ١٢) .

ب ــ مقدار اليوم :

وقد اختلف العلماء في مقدار اليوم المذكور في الآيات المذكورة وغيرها على قولين :

أحدهما : أن اليوم مقدار كاليوم المعروف ، وردّ هذا القول بأنه لم يكن هناك شمس ولا ليل ولا نهار حتى يحدد اليوم بذلك .

والثاني : ان مقدار هذا اليوم كمقدار يوم من أيام الآخرة ، كل يوم مقداره ألف سنة ، أخذاً من قوله تعالى : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون[1] » .

ج ــ الحكمة من هذا الخلق :

والحكمة من جعل الخلق في هذا المقدار من الزمن ــ وهو سبحانه قادر أن يقول لها كوني فتكون ــ الحكمة هي :

١ ــ إرادته سبحانه أن يعلم عباده الرفق والتثبت في الأمور ، وبخاصة رسوله الكريم الذي كان يلاقي من أذى المشركين ووقوفهم في سبيل دعوته وتألبهم على مناصرة الباطل ومنابذة الحق .

٢ ــ بديع صنع الله في الكون وجعله من أعظم الأدلة على وجوده : إن أعظم دليل أقامه الله تعالى لعباده ، ليدل على وجوده هو هذا الكون البديع بكل ما فيه ، بسمائه وأرضه ، وكواكبه وأفلاكه ، وجماده وحيوانه ونباته وقوانينه وقواه ، ذلك الكون الذي صاغه الله سبحانه على أسمى ما يكون من الاتقان والابداع .

ولكن وجود الدليل وحده لا يكفي في الدلالة على المطلوب ما لم يرافق ذلك تفكير حر واعٍ خالٍ من المؤثرات .

فمن هنا أوجب الله على الانسان أن يجيل طرفه ، ويعمل عقله وتفكيره في هذا

---

(١) الحج : (٤٧) .

الكون ، متنقلاً من كائن الى كائن ، متفحصاً ما أودع فيه من اتقاق وابداع ، كي ينتقل من المخلوق الى وجود الخالق ، ومن جمال المصنوع الى قدرة الصانع .

لقد أمره أن ينظر ويتأمل ويتفكر فيما يلي :

١ً ــ في نفسه وذاته ، أين كان ؟ وكيف وجد ؟ وما هي المراحل التي مرّ عليها عبر هذه الرحلة ؟ « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر[1] » .

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً[2] » .

٢ً ــ في طعامه الذي عليه مدار حياته وقوام عيشه ، كيف يتكون وينشأ من التراب والماء ؟ وما هي العوامل والقوانين التي وضعها الله لتعمل على انتاج هذا الغذاء المناسب لكل حيّ كائن على سطح هذه الارض ؟

« فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الارض شقا . فأنبتنا فيها حبا ، وعنباً وقضبا . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم[3] » .

« وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب

---

(١) الاسراء : (٣٦) .
(٢) الطارق : (٥ ــ ٩) .
(٣) الحج : (٥) .
(٤) عبس : (٢٤ ــ ٣٢) .

والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون[1] » .

٣ ــ في هذه الارض التي عليها مستقره ، ومنها نشأ واليها يعود ، ماذا أودع الله فيها من إبداع وتنظيم يحفظ به حياة هذا الانسان على ظهرها ، حتى لو اختل هذا النظام بعض الاختلال ، لكانت حياة الانسان بل حياة الكائنات الحية جميعها في حيز العدم والهلاك .

« وهو الذي مدّ الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون[2] » .

« أم من جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون[3] » .

٤ ــ وفي عالم الحيوان الذي يشاركه الحياة على ظهر الارض ، كم فيه من تنظيم وإبداع يأخذ بالألباب .

« وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون[4] » « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين[5] » .

---

(١) الانعام : (٩٩) .
(٢) الرعد : (٣ ــ ٤) .
(٣) النحل : (٦١) .
(٤) النحل : (٦٨ ــ ٦٩) .
(٥) النحل : (٦٦) .

٥ — وفي المطر كيف يتشكل وكيف يهطل ؟

« ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار[1] » .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض وإنا على ذهاب به لقادرون[2] » .

٦ — وفي السموات وما أودع فيها من أجرام ، وفي هذا الترابط العجيب من عالم السماء وعالم الارض ، « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون[3] » .

« تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورا[4] » « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون[5] » .

٧ — وفي البحر ، « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا[6] » .

---

(١) النور : (٤٣) .
(٢) المؤمنون : (١٨)
(٣) يس : (٣٧ — ٤٠) .
(٤) الفرقان : (٦١ — ٦٢) .
(٥) يونس : (٥) .
(٦) الفرقان : (٥٣)

« وهو الـذي سخر البحر لتأكلوا منـه لحماً طريا وتستخرجوا منه حليـة تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون[1] » .

وبعد فلا شك أن من ينظر في هذا الكون هذه النظرة الفاحصة ، ويفكر فيـه التفكير الحرّ الواعي غير المتأثر لا بدّ أن يعود من هذه الرحلة مفعماً قلبه بالايمان الذي لا يتزحزح ، ومملوءة نفسه بعظمة هـذا الخالق العظيم الذي أحسن كـل شيء خلقـه .

٢ ـ تسخير هذا الكون للانسان :

آ ـ معنـاه :

ومعنى التسخير أن هذا الكون بجميع أجرامه وقواه هو مصنوع لخدمة هذا الانسان ومهيأ لمنفعته ، ولقد ابتدعه سبحانه على نظام يساعد هذا النوع الانساني على استبقاء حياته على ظهر الارض .

ولقد أوضح سبحانه هذا التسخير في آي كثيرة من القرآن ، حتى انه لا يذكر فيه جزءاً من أجزاء هذا الكون إلا مشيراً الى ما فيه من منفعة لهذ االانسان .

ب ـ ادلتـه :

من الأدلة الدالة على التسخير :

١° قوله تعالى في الأنعام : « والأنعـام خلقها لكم فيها دفء ومنافـع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم[2] » .

---

(١) النحـل (١٤) .
(٢) النحـل : (٥ ـ ٧) .

٢ً ـ قوله في البحر : « وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون[١] » .

٣ً ـ قوله في الماء والنبات : « وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون[٢] » .

٤ً ـ قوله في الليل والنهار والشمس والقمر : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقو ميعقلون[٣] » .

٥ً ـ قوله في تسخير الكون جميعه : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة[٤] » .

هذا وغني عن البيان أن هذا التسخير يحمل بين جوانبه دفعاً لهذا الانسان الى التجربة والاختبار والمعرفة والعلم بما أودع الله في هذا الكون من أسرار حتى يتمكن من استخدامه والاستفادة منه كما أراد الله أن يستفيد ، اذ لا يتحقق كمال التسخير الا بالعلم .

إذن فالنصوص الآنفة الذكر التي تتحدث عن التسخير هي في الحقيقة تحمل بين طياتها دعوة صريحة الى العلم ، وبيان أن هذا الدين هو دين العلم ، وبخاصة هذا العلم الكوني الذي يأخذ بيد الانسان الى الايمان بالله عن وعي وادراك والذي عناه الله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء[٥] » .

والعلم الكوني بدوره يدفع الى تعظيمه وشكره ومحبته .

---

(١) النحل : (١٤) .
(٢) الملك : (١٥) .
(٣) النحل : (١٢) .
(٤) لقمان : (٢٠) .
(٥) فاطر : (٢٨) .

٤ ـ نهاية هذا الكون :

آ ـ تفكك هذا الكون :

لقد مرّ بك غير مرّة أن الله قد أبدع هذا الكون على أتم نظام وأسمى قانون ، وربط بعضه ببعض في تناسق عجيب ، والسؤال الآن هل يبقى هذا النظام أبدياً على ما هو عليه ، وهل يبقى هذا التعاون والتناسق بين أجزائه ؟ أم ان جديدا سوف يحدث ؟

للجواب على هذا السؤال نقول : إن هذه المسألة ليست من الامور التي يستطيع العقل أن يبت فيها بنفي أو اثبات ، لأنها من الامور المستقبلة المغيبة ، بل الذي يستطيع أن يثبتها أو ينفيها هو الخبر الصادق ، لأنها من اختصاصاته كالبعث والحساب والجزاء ، وحسب العقل في هذا المجال أن يحكم بعدم استحالتها ، وأنها من الامور الجائزة التي تحتمل الطرفين .

والله سبحانه الذي يعلم المستقبل كما يعلم الماضي ، والذي بيده مقاليد السموات والارض يتصرف بهما كيف يشاء ، والذي هو على كل شيء قدير، قد أخبرنا بأن هذا النظام الكوني سوف يتلاشى ويضمحل ، وستتلاشى معه الحياة على ظهر الارض لتبدأ حياة أخرى على وفق نظام آخر تكون هذه الحياة نتيجة واستمراراً لما سبقها من حياة . وسيمر بك الكلام مفصلا عند الحديث عن اليوم الآخر .

٥ ـ قانون السببية والعلية في الكون :

آ ـ حقيقة السبب والعلة :

اذا نظرت الى هذا الكون وجدت أنه ما من شيء من الاشياء إلا وهو محتاج في وجوده الى شيء آخر ، فالمحتاج اليه يسمى سبباً وعلة ، والمحتاج يسمى مسبباً أو معلولا ، ومن هنا قال في المواقف :

« تصور احتياج الشيء الى غيره ضروري ، فالمحتاج اليه يسمى علة ، والمحتاج معلولا[1] » . هذا وان أيدى العلماء فرقاً بين السبب والعلة ، إلا أننا هنا نقصد بهما شيئاً واحداً .

ولنضرب لك مثالاً على ذلك ، توالد الناس وتكاثرهم ، واختلاف الأزمنة والفصول وسبيل الزراعة والبناء والاستنبات .

غير أن هذه الاسباب الظاهرة أمامك ، تتناقص كلما أمعنت التأمل وسبرت أغوار الاسباب نفسها ، كما تتناقص فروع الشجرة أمامك كلما دنوت بنظرك نحو جذعها ، الى أن تتجمع الاسباب المختلفة كلها في سبب رئيسي واحد ، وهو السبب الواجب ، أو واجب الوجود ، وهو الله عزّ وجل . وقد مرّ بك شيء من هذا في صفات الله عزّ وجل .

فهذه الظاهرة التي نلمسها في الوجود ، والتي لا يسعنا انكارها ، نسميها : قانون السببية في الكون .

ب ــ كيف يتفق قانون السببية هذا مع ما علمناه من أن العالم كله انما هو من قسم من الممكنات ؟

لا بدّ من تصوير الإشكال أولا . فنقول : من المعلوم أن الشيء لا يسمى سبباً لغيره إلا اذا أثر فيه ايجاداً أو اعداماً أو تكييفاً . وهذا التأثير لا بد أن يكون حتمياً ما دام المؤثر سبباً ، وإلا امتنع كونه كذلك .

واذا كان الأمر كذلك فلا بدّ من القول بأن هذا الكون ــ أو معظم مظاهره ى أقل تقدير ــ ضروري الوجود ، وأن سيره على هذا الشكل الذي نراه واجب وري أيضا ، من أجل أنه نتيجة أسباب معينة مختلفة ، ثبت كونها أسباباً ، والمشاهدة .

(١) المواقف : (٨٥) .

وثبوت الحتمية والضرورة له يناقض ما قد ثبت من أن هذه الموجودات كلها من قسم الممكن ، وأنه لا يترتب على فرض فقدانها أو فقدان بعض منها محال عقلي •

فالجواب : أن الامر مشكل حقيقة - لو قلنا إن الاسباب المبثونة في الكون أسباب حقيقية أي ثبت لها التأثير بذاتها دون الاحتياج الى من يثبت فيها التأثير ، إلا أننا لا نقول ذلك ، اذ من المستحيل بداهة أن تكون هذه الاسباب مؤثرة بذاتها ، مع ما نعلمه فيها من صفة الحدوث بعد العدم ، فكيف يكون التأثير فيها نابعاً من جوهرها الذاتي ، وهذا الجوهر نفسه قد كان مفقودا قبل حين ، ثم اكتسب الوجود بتأثير سبب آخر ، ويقال الكلام نفسه في حق هذا السبب الآخر ، وفي حق الاسباب الاخرى الكثيرة المختلفة •

وإذاً فما معنى كون هذه الامور أسباباً ؟ إن معنى ذلك محصور في أن الله عزّ وجل ربط بينها وبين أمور أخرى بمحض إرادته وقدرته فقط ، فظهر استمرار هذا الارتباط أمامنا بمظهر السببية والتأثير ، فاستعرنا له كلا من هاتين الكلمتين ، على سبيل المجاز ، وأنت تعلم بأن طول الاقتران بين أمرين في الوجود والعدم قد يخيل الى الذهن ارتباطاً سببياً بينهما ، وان لم تكن ثمة أي رابطة حتمية في واقع الامر •

ويتضح لك هذا المعنى فيما يسميه علماء النفس برد الفعل الشرطي ، اذ ثبت عندهم بالتجربة أن أي مؤثر من المؤثرات المختلفة في النفس ، اذا تكرر وجوده بمصاحبة أمر ما ولو بمحض المصادفة ، فان هذا المصاحب يكتسب هو الآخر في في النفس شيئا من قوة ذلك المؤثر ، فيفعل فعله ويحقق نتيجته أو قريباً منها •

ويمثلون لذلك بالتجربة التي قام بها « بافلوف » وهو عالم روسي ، من تقديم الطعام لطائفة من الكلاب الجائعة عند قرع جرس معين على أسماعها ، وكرر ذلك مدة متصلة من الايام ، فكان يظهر تأثرها لمرأى الطعام في كل مرة بسيلان اللعاب من أفواهها ، ثم إنه قرع الجرس وحده بعد ذلك دون أن يقدم لها الطعام ، فظهر فيها الاثر ذاته الذي كان يظهر عند مرأى الطعام •

وتفسير ذلك بالنسبة لما نحن بصدده أن الكلاب لما رأت مقارنة صوت الجرس لظهور الطعام أمامها ، واستمرت هذه المقارنة أمامها مدة من الزمن ، رسخ هذا الارتباط في تصورها ، وأثر تأثيراً معيناً في نفوسها ، ولو قلنا ان الكلاب لها عقل على قدرها تفكر فيه ، لقلنا انها ظنت من طول استمرار هذه المقارنة أن الجرس هو السبب المؤثر في ظهور الطعام وحضوره .

وما قصة الانسان أمام هذا الوجود إلا كقصة هذه الكلاب أمام الجرس والطعام ، فقد تعلقت إرادة الله تعالى بأن لا يظهر عشب الارض إلا بعد نزول الامطار من السحاب ، وتعلقت ارادته بأن لا تنزل قطرات المطر الا بعد أن تتلبد الغيوم وتتكاثف بقدر معين ، ضمن درجة معينة من البرودة وتعلقت ارادته بأن لا يتوالد الناس الا عندما يتزاوجون ، وهكذا ولو شاء الله عزّ وجل لفرّق بين هذه الأمور ، وقطع الصلة مما بينها ، وترك كل واحد منها يسير في طريق ويظهر مستقلا عن الآخر .

وإذاً فان ما نسميه نحن بقانون السببية في الكون ، ليس اسمه في الحقيقة الا قانون المقارنة المجردة ، أسميناه كذلك لأنه ظهر لنا في مظهر السببية ، واستقر كذلك في أخيلتنا .

إلا أن هذه التسمية لا تتفق مع حقائق العلم وواقع الأمر ، كما قد رأيت ، فلذلك أطلق العلماء على هذه الأسباب الجعلية ، أي هي أمور جعلها الله بمحض المقارنة أسباباً ، فهي مجعولة جعلا ، وليست أسبابا ذاتية مؤثرة ، وما قد تلمحه فيها من مظاهر التأثير والعلية ليس كذلك في الحقيقة ، بل هي المقارنة ليس غير -

غير أن الامام الغزالي رحمه الله لا يرى تنافياً بين أن تكون الاسباب الكونية جعلية كما قلنا ، وبين أن يكون فيها تأثير أودعه الله عزّ وجل فيها ، يسلبه عنها عندما يشاء ، وهو يرى أن هذا هو الحق ، أي فالمسألة ليست مسألة مقارنة مجردة كمقارنة الجرس للطعام ، بل هناك تأثير كامن في السبب المقارن ، ولكنه ليس تأثيراً منبثقاً من ذاته ، بل مودع فيه من قبل الله عزّ وجل ، فاذا أراد الله تعطيل السبب عن سببيته أزال عنه هذه القوة المودعة فيه .

وتحليل الغزالي هـذا أقرب الى الانسجام مـع التعليلات العلميـة لظواهر الاشياء ، وتكويناتها ، إلا أنه أبعد عن مسلك الجمهور وما اتفق عليه من قولهم : « إن المسببات توجد عند وجود الاسباب لا بها » .

ونحن نرى أن الخلاف ينتهي بعد مراحل يسيرة من النظر الى الوفاق ، فهـو خلاف يكاد يكون لفظياً ، اذ المقصود أن تأثير الاسباب الكونية ليس تأثيرا حتميا ، وانما هو بإرادة الله عزّ وجل ، فهو أمور لا علاقـة لها في الاصل بغيرها ، ولكن الله جعلها أسباباً لها ، سـواء قلنا انه أودع فيهـا قوة مؤثرة ، أم لم يودع فيهـا هـذه القـوة .

جـ ـ الحكمة من خضوع الكون لقانون السببية :

والسؤال الذي لا بدّ من إيراده هنا هو : فاذا كانت هذه الاسباب جعليـة كما قلت ، ففيم جعلها الله كذلك ، وهلا فرق بين هذه الامور المجتمعة ، وأبعدهـا عن بعضها حتى لا ينخدع بها الناس فيتوهمـون أنها أسباب مؤثرة ؟ وهي ليست كـذلك .

والجواب أن أبرز مظاهر دلالة الكون على وجود الخالق عزّ وجل انما هـو مظهر التناسق والانسجام فيه ، كما أوضحنا ذلك عند الكلام على الايمان بوجود الله وليس معنى التناسق والانسجام فيـه شيئاً غير ظاهرة السببيـة والعلية الشائعة والسارية في كل صوره وأجزائه .

إذاً فلكي يدل الكون دلالـة باهرة على وجـود الله عزّ وجـل ينبغي أن يكون متناسقـا .

ولكي يتم فيه التناسق ينبغي أن يكون مرتباً بعضـه على بعض ، بأن يكون هذا محتاجا وذلك محتاجا اليه ، فيُتلاقيان طبقاً للحاجة التي بينهما ، فاذا تحلى مـن الكون هذا التناسق تنبهت لما قلناه من ضرورة تناقص العلل في المسائل المتناسمه ، كلما أمعنت النظر أكثر ، وكلما سبرت مزيداً مـن أغوار هذه العلل والمعلـولات ،

فتسير متأملاً في هذا السبيل : الى أن تنتهي بك هـذه العلل الكثيرة الى العـلة الوحيدة الكبرى الكامنة خلف كل ما قـد رأيت ، أي الى واجب الوجـود وهو الله تعـالى •

ان الذي يتأمل أجهزة وآلات معينة ومنتشرة ، لا يمكن أن يصدق أنها جميعاً من صنع شخص واحد هو الموجد لها ، إلا اذا تأمـل فرآها يتمم بعضها بعضـاً ، متعاونة لدى التركيب في ايجاد عمل نوعي معين ، وكلما ازداد لمساً لهذا الانسجام ، وسبر مزيدا من دقائقه ، ازداد يقينا بوحدة الصانع ، وذلك كأن يعمـد فيركبها الى بعضها تركيبها الصحيح المتصور ، واذا هي قد انقلبت في يده ساعة تضبط الزمن ، واذا هي من صنع معمل معين معروف •

وهكذا اقتضت رحمة الله بعباده أن يجعل من كونه أفصح بيان ناطق بألوهية الله وحده وبأنه الخالق المبدع للكون كله ، فجعلك في حاجة مستمرة الى كثير مـن الامور المعينة ، ثم جعل بينك وبين هذه الامور حلقات مـن الوسائط والاسباب ، كلما تجاوزت واحدة منهـا الى الاخرى تبدّى لك جديد مـن معنى الانسجام بين أجزاء الكون وجزئياته ، ووقعت على ما بينها من تعاون ومشاركة في سبيل تحقيق أغراضك وحاجاتك ، حتى تستيقن أخيراً بأن من وراء هذا الكون كله مـن يدبره هذا التدبير ، ويؤلف بينه هذا التأليف •

ولو أن الله خلقك غير محتاج الى شيء ، وخلـق الكائنات الاخرى كـذلك وهو قادر أن يفعل ذلك ، لما وجـدت أمامك فرصـة لاكتشاف معنى التناسـق والتلاؤم فيها ، ولفقدت بذلك أبرز مظهر من مظاهر الدلالة على وجود الله تعالى •

د ـ ما يجب على المسلم اعتقاده بناء على ذلك :

وهذه المسألة الاخيرة هي ثمرة كل ما قد ذكرناه من المسائل الثلاث السابقة •

إن على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا تأثير في الكون لأي شيء إلا الله عز وجل ، وأن كل ما يتراءى لنا من مظاهر الاسباب والعلل انما هـو أسباب وعلل

جعلية ، جعلها الله عز وجل كدلك ، وأن ما قد يجده الباحث فيها مما يسميه العلم بالعوامل والمؤثرات وما الى ذلك ، إنما هو كذلك من حيث الظاهر فقط ، والعلم لا شأن له بالأشياء إلا أن يصفها على ما هي عليه في أدق مظاهرها ، ثم يمارس هذا الوصف بالتجربة في مجالات متكررة ، واذا كان العلم إنما يصف واقعاً لا يزيد عليه ، فان هذا الواقع لا يزيد على المقارنة المستمرة ، أما إمكان الانفصال فشيء آخر، وهيهات أن يتوصل العلم الى أن مقارنة الاسباب بمسبباتها أمر حتمي لا مناص من تلازمهما ولا حيلة لانفكاكهما .

واذ قد ثبت الدليل القطعي على ما قلناه ، فقد كان جحود ذلك كفراً بإجماع المسلمين ، ولا معنى لاثبات ألوهية الله بعد هذا الجحود كما هو معلوم ، كما لا معنى بعد ذلك للايمان بشيء من المعجزات والخوارق التي أكرم بها الانبياء والمرسلين ، كتحول نار ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى برد وسلام ، وكولادة عيسى عليه الصلاة والسلام بدون وساطة أب ، وكإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله وكل ذلك مما نص عليه القرآن بصريح العبارة وجلي البيان .

وجماع كل هذا الذي ذكرناه قوله تعالى : « إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

★ ★ ★

هل من ضير في استعمال ألفاظ تدلّ على سببية الاشياء بعضها لبعض اذا سلمت العقيدة ؟

ولعلك تسأل بعد هذا عن حكم استعمال المسلم ألفاظاً تعبر عن سببية بعض الاشياء وتأثيرها ، وذلك بسبب طول الإلف وظهور هذه الأشياء بمظهر الأسباب الذاتية المؤثرة ؟ كقول القائل : لقد نفعني هذا الدواء وشفاني هذا الطبيب ، وأينع الزرع بكثرة المطر ، فالجواب : أن ذلك اذا صاحب اعتقاداً بتأثير واحد من هؤلاء فقد كفر بالاتفاق ، كما أوضحنا ذلك آنفا ، أما إن صاحبه الاعتقاد بأن المؤثر في ذلك انما هو الله جل جلاله ، فلا ضير فيه ، لأن تعبيره هذ اجاء موافقاً لظاهر ما اقيم الكون عليه من قانون السببية الجعلية .

جـ ـ المبحث الثالث : في الانسان

تمهيـــد :

ان الاسلام ـ وهو الدين العام الذي أنزله الله للناس جميعهم ، مهما تراخت أزمانهم ، واختلفت ألوانهم وألسنتهم ، ومهما تباعدت قاراتهم وبلدانهم ، وهـو الدين الشامل الـذي لم يترك شاردة ولا واردة ، ولا عظيمـاً ولا بسيطاً مما يعني الانسان إلا وبيّنه أتم بيان ـ ان هذا الدين قد أوضح لنا فيما أوضح حقيقة هـذا الانسان الذي يعمر هذه الارض ويتمتع بخيراتها ، وينعم بما أودع الله فيها ، وكيف وجد عليها ، وما هي النهاية التي تنتظره ، وكيف تكون هذه النهاية .

كمـا أوضح لنا حقيقة هـذا الكون المحيط بالانسان ، ومـا هي الروابط والعلاقات التي تكون بينه وبين هذا الوجـود العظيم المتنوع المتناسق ، وما يجب أن يأخذ منه ، وما يجب أن يدع ، وما هي النهاية التي تنتظر هذا الوجود أيضا .

كما إنه قد بيّن لنا أموراً تتعلق بحياتنا ومسؤوليتنـا ، والمنهاج الذي يجب علينا أن نسير عليه لنحقق الحكمة من وجودنا .

وفي كل هذا الايضاح والبيان إظهار لفضل الله على هـذا الانسان وعنايتـه به ، وإرواء لما فطر عليه من التطلع لمعرفة المجهول ، وتنظيم لحياتـه حتى لا تذهب جهوده سدى ، وبيان للحقيقة التي قد يتعذر أو يتعسر الوصول اليها عن طريـق البحث والتجربة وإعمال الفكر .

وانك لتجد بعض ذلك في هذا البحث الموجز عن الانسان والكون والحيـاة وإليك بيـان ذلك :

٢ ـ الانسـان

١ ـ بدء خلق الانسان :

٢ ـ حقيقة الانسان : الانسان في نظر الاسلام هو احد هذه المخلوقات الكونيـة التي أسكنها الله هذه الارض ، وهو يشاركهـا الكثير من صفاتها ، وينفرد هـو بصفات خاصة بـه •

١ ـ يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه •

٢ ـ ويشارك النبات في نموه وفي الكثير من مواد تركيبه ، والنبات وما يتغذى من النبات غذاء للانسان ، وهو الصلة المستمرة بينه وبين التراب •

٣ ـ ويشارك الحيوان ـ على كثرة أنواعه ـ في كثير من صفاته وغرائزه ، في طعامه وشرابه ، وفي توالده وتناسله ، فهو من هذه الناحية نوع من أنواعه •

٤ ـ ويمتاز الانسان عن غيره من الحيوان ـ مـن حيث الشكل ـ بما ميزه الله به من قامة مستقيمة وخَلْق سوي « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقديم[1] » • ويمتاز ـ من حيث الحقيقة ـ بما ميزه الله به من العقل الذي بالتفكير به وإعماله يترقى عما دونه من سائر الحيوان • إذاً الانسان هـو هذا الكائن النـامي الحيّ العاقـل المفكر •

ب ـ خلق آدم وحواء وانتشار الانسان منهما :

١ ـ إن آدم هو أول انسان خلقه الله تعالى على وجه الارض ، ولم يكن قبله من انسان ، فهو وحده أبو الوجود الانساني كله • ثم خلق الله سبحانه حواء زوجاً لآدم ثم أنشأ منهما بشراً كثيراً رجالا ونساء ، وعلى هذا دلت الآيات القرآنية •

يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخاق منها زوجها وبث منهما رجالا[2] كثيراً ونساء » •

---

(١) التين : (٤) •
(٢) النســاء : (١) •

جـ ـ الانسان على هذه الخلقة منذ وجد :

١ ـ الانسان مخلوق من تراب :

اتفقت الرسالات كلها على أن الانسان الاول ـ وهو آدم عليه السلام ـ مخلوق من تراب ، ولقد جاءت الآيات القرآنية مقررة لهذه الحقيقة ، فمن الآيات الدالة على ذلك :

ـ قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » .

ـ وقوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » .

ـ وقوله تعالى : « وبدأ خلق الانسان من طين » .

ـ وقوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم اذا أنتم بشر تنتشرون » والصلصال طين يابس ، والحمأ الطين الاسود ، وكل ذلك أصله التراب.

٢ ـ خلقة الانسان حينما وجد :

وهل الانسان منذ وجد وجد على هذه الخلقة التي هو عليها الآن من استواء في القامة ، واعتدال في الخلق ، وعقل وتفكير ، أو كان خلقاً آخر ثم تطور حتى وصل الى مرتبة الانسان ؟ ان الذي عليه جمهور العلماء من المسلمين هو أن الانسان منذ نشأته الاولى مخلوق على هذه الهيئة التي هو عليها الآن ، لم يطرأ عليه في خلقته أي تعديل أو تبديل أو تغيير ، فلم يكن نوعاً آخر من الحيوان ثم تطور هذا النوع عبر الاجيال حتى أصبح هذا النوع الانساني ، ولم يكن يمشي على أربع ثم ان حاجيات معاشه جعلته ينتصب على قدميه ، ثم يعتدل تكوين جسمه على ماينسجم مع هذه الحالة الطارئة .

وحجتهم في ذلك ظواهر أدلة وردت في هذا الدين الحنيف منها :

١ ـ قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » .

وأل هنا دالّة على الحقيقة والماهية والجنس ، أي : إن ماهية هـذا الانسان وجنسه مخلوق على أحسن استقامة واعتدال .

٢ً ـ قوله تعالى : « يا أيهـا الانسـان ما غرك بربك الكريم الـذي خلقك فسوّاك فعدلك في أيّ صورة ما شاء ركبك » .

٣ً ـ ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته » أي إنه منذ وجد كانت صورته نفس الصـورة التي استمر عليها وعرف بها ، ولم ينشأ على شكل ثم انتقل منـه الى شكل آخر ، هذا اذا أرجع الضمير الى آدم . ويرى بعض شراح الحديث أن الضمير في صورته راجع الى الله ، والمقصود بالصورة الصفـة ، أي إن الله خلقه عالماً حكيماً سميعـاً بصيراً ، وهذه هي صفات الله عزّ وجلّ .

وعلى كلٍّ من الرأيين فهو دالّ على المطلوب ، لأن مساق الحديث تكريم الله لآدم منذ أول نشأته وخلقه .

وهذا الذي ذهب اليه جمهور العلماء هو الذي يتلاقى وينسجم مع تكريم الله للانسان واستخلافه إياه في هذه الارض .

٣ ـ نظرية التطور (النشوء والارتقاء) .

في عام ١٨٥٩ خرج دارون على العالم بكتابه المشهور في أصـل الانواع ، ثم أصدر من بعده في سنة ١٨٧١ كتابه في « تسلسل الانسان » وقـدم للناس نظرية مفادها أن الانسان تطور من نوع سابق له من الكائنات نتيجة لمبدأين هما : مبـدأ تنازع البقاء ـ ومبدأ الانتخاب الطبيعي .

أما مبدأ تنازع البقاء فمعناه أن الاحياء في تنازع دائم مع الطبيعة ومع بعضها ، وفي هذا التنازع انما يتم الفوز للفرد الذي تؤهله صفاته للغلبة والبقـاء ، فاذا تم الفوز للذي تؤهله صفاته للبقاء حق الفناء على الذي لا تؤهله صفاته لذلك .

وأما مبدأ الانتخاب الطبيعي فخلاصته : أن ناموس الوراثة كما ينقل التباينات ينقل جميع الصفات التي يحملها الاصل الى الفرع ، مادية كانت أو معنوية ، أصلية أو مكتسبة ، وهذه الصفات منها النافع كالقوة والصحة والذكاء ، ومنها الضار كالأمراض والعاهات والشذوذ ، أما الضارة فتنتهي الى أحد أمرين : إما أن تتلاشى بتغلب النافعة عليها ، وإما أن تتغلب فتؤدي الى ملاشاة صاحبها بذاته أو بنسله .

وأما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً أو فائزاً في معركة تنازع البقاء ، ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلا بعد جيل ، وبعد مرور ألوف من الاجيال يبلغ حداً يجعل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً ، وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي رآه دارون سبباً لتكوين الانواع الحية الموجودة اليوم على سطح الارض ، وكلها ترجع في رأيه الى نوع واحد .

وليس في مذهب دارون هذا نكران لوجود الله ، بل على العكس من ذلك كان يعترف أن الله هو الخالق لأصل هذه الانواع ، لا أن أصل الانواع تولد تولداً ذاتياً بنفسه وبفعل الطبيعة .

هذا ولا نريد هنا أن نعرض أدلة دارون ومن على شاكلته ونناقشها ، اذ هو داخل في منهاج السنة الثالثة في كلية الشريعة ، ولكن حسبنا أن نبين هنا أن تدرج الكون وتسلسله في التناسق الخلقي هو مما أدركه علماء المسلمين ، ولكن هذا التدرج لا يعني أن بعض هذه الانواع قد انبثق من نوع آخر أقلّ منه درجة .

وحسبك في ذلك أن ترجع الى ما كتبه ابن مسكويه أحمد بن محمد المتوفى عام (٤٢١) هـ وما كتبه ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد مؤسس علم الاجتماع المتوفى عام (٨٠٨) في مقدمته .

٢ ــ تكليف الانسان ومسؤوليته :

أ ــ تكريم الله للانسان :

لقد كرم الله هذا الانسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا . ولقد ثبت تكريم الانسان وتفضيله بدليل نقلي وعقلي :

أما الدليل النقلي فهو قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[1] » .

وقوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين[2] » .

والاستدلال من هاتين الآيتين على تكريم الانسان وبخاصة الانسان الاول آدم عليه السلام ظاهر الدلالة .

وأما الدليل العقلي فيتمثل في الامور التالية :

آ ـ إن النفس الانسانية تتميز عن سائر النفوس والموجودات الاخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة ألا وهي القوة العاملة المدركة لحقائق الاشياء ، ومن خصائص هذه القوى أنها هي الوسيلة لمعرفة الله سبحانه ، فاذا كان الامر كذلك كانت هذه النفس أشرف النفوس الموجودة في العالم .

ب ـ تسخير الله الكون لهذا الانسان ، وما ذاك إلا لبيان مكانته وشرفه وسيادته على هذ االكون ، وسيمر بك موضوع التسخير هذا قريباً .

جـ ـ الصفات التي تميز بها الانسان عن غيره إن هي إلا فيوضات من صفات الربوبية ، كالعلم والقدرة والارادة وغير ذلك ، فاذا كان الانسان في حقيقته مستودعاً لظلال أو فيوضات من صفات الله سبحانه وتعالى فأجدر به أن يكون أشرف المخلوقات وأكرمها .

٢ ـ هل الانسان افضل من الملائكة ؟

لقد اتفق العلماء على أن الانسان أفضل الكائنات المخلوقة جميعها ما عدا

---

(١) البقرة : (٣٤) .
(٢) الأسراء : (٧٠) .

الملائكة ، وأما تفضيله على الملائكه فقد وقع بينهم خلاف في ذلك • واليك البيان :

آ ــ ذهب ابن عباس رضي الله عنه الى أفضلية الملائكة على الانسان مطلقاً ما عدا محمداً عليه الصلاة والسلام فهو بالاجماع أفضل الخلق على الاطلاق ، وممن ذهب الى تفضيل الملائكة على الانسان المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة ، وحجتهم لما ذهبوا اليه أمور منها :

١ ــ قوله تعالى في الملائكة : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقوله فيهم أيضا : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ووجه الاستدلال بهاتين الآيتين أن الملائكة مجردون عن الشهوات خاضعون لأمره وغيرهم قابل للمعصية مزود بالحاجات والشهوات ، ومن لا تخطر على باله معصية أفضل ممن ليس كذلك •

وأجيب بأن الانسان قد يحصل على الكمالات والفضائل العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات ، ولا شك أن العبادة وكسب الكمالات مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الاخلاص فيكون أفضل •

٢ ــ قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه اذا ذكرني ، فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم[1] » •

قال القرطبي : وهذا نص في أفضلية الملائكة •

ب ــ وذهب جمهور أهل السنة الى أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ، ورسل الملائكة أفضل من عامة البشر ، وعوام البشر وهم الصالحون من المسلمين أفضل من عوام الملائكة ، وحجتهم في ذلك أمور :

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة : (١٧١/٨) باب التوحيد .

١ — أمر الله الملائكة بالسجود آدم عليه السلام في قوله : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس[1] » ومقتضى الحكمة الأمر للأدنى بالسجود للأعلى دون العكس .

٢ — قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها[2] » ووجه الاستدلال أن كل واحد من أهل اللسان يفهم منها أن القصد تفضيل آدم على الملائكة وبيان زيادة علمه واستحقاقه التعظيم والتكريم ، لأنها مسوقة لهذا الغرض .

٣ — قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية[3] » والبرية الخليقة فيدخل فيهم الملائكة .

٤ — ما رواه أبو داود وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم » .

جـ — وذهب جماعة الى الامساك عن الحديث في هذا التفاضل لأنه مما لا دليل قطعي عليه وليس داخلا في جملة العقائد التي هي أصول الدين .

قال القرطبي في تفسيره : قال بعض العلماء ، ولا طريق الى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا بأن الملائكة خير منهم ؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى ، وخبر رسوله ، أو اجماع الأمة ، وليس ههنا شيء من ذلك .

وقال تاج الدين ابن السبكي : ليس تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده ويضر الجهل به ، والسلامة في السكوت عن هذه المسئلة ، والدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله تعالى من غير دليل قاطع دخول في خطر عظيم ، وحكم في مكان لسنا أهلاً للحكم فيه[4] » .

---

(١) البقرة : (٣٤) .
(٢) البقرة : (٣١) .
(٣) البينة :(٧) .
(٤) انظر حاشية الجوهرة للشيخ الباجرري : (٦٧) .

ب ــ استخلاف الانسان في الارض :

١ ــ ادلة الاستخلاف :

من مظاهر تكريم الله للانسان أن جعله خليفة لــه في الارض ، ولقد جاء في القرآن الكريم نصوص كثيرة تشير الى هذا الاستخلاف ، فمن ذلك :

١ً ــ قوله تعالى للملائكة عند إرادة خلق الانسان : « وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحــن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون[1] » .

٢ً ــ قوله تعالى في حق داود عليه الســلام : « ياداود إنا جعلناك خليفــة فاحكم بين الناس بالحق[2] » .

٣ً ــ وقوله تعالى في حق الصالحين من عباده : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم[3] » .

٤ً ــ وقوله تعالى في حق الناس : « وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم[4] » .

٥ً ــ وقوله تعالى في شأن قوم موسى : « قال عسى ربكم أن يهلك عدوكــم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون[5] » .

٢ ــ معنى الاستخلاف :

وحقيقة الاستخلاف في هذه الآيات وأمثالها أن الله عهد لهذا الانسان بالقيــام

---

(١) البقرة : (٣٠) .
(٢) ص : (٣٨) .
(٣) الانعام : (١٦٥) .
(٤) النور : (٥٥) .
(٥) الاعراف : (١٢٩) .

في إمضاء أحكامه وتنفيذ أوامره ، وإعمار هذه الارض على الطريقة التي أمره بها .
فالذي يستحق لقب خليفة الله هو من يقوم بواجب الاستخلاف على الوجه المطلوب.

٣ ـ ما يترتب على الاستخلاف :

ويترتب على هذ االاستخلاف أمور نجملها فيما يلي :

١ ـ إن الملك في هذا الكون لله وحده ، فليس لأحد حق في ملكية أصلية ، فالله وحده هو المالك الحقيقي ، وهو الذي يملك حق التصرف في هذا الكون كيفما يشاء ويختار يحيي ويميت ويغني ويفقر ، ويعز ويذل ، قال تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير[1] » .

٢ ـ الانسان هو سيد هذه الارض ، يستمد سيادته هذه من ربه الذي منحه هذا التكريم ، فليس شيء يستحق السيادة غيره ، ولقد زوده بما يؤهله لهذه السيادة ، وفي رأس ما زوده به العقل الذي هو المميز الوحيد له عن غيره من الكائنات في هذه الارض حيوانات وغيرها ، قال تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[2] » .

ومن هنا نعلم أن الانسان الذي يهمل عقله فلا يفكر فيه ولا يستعمله ، بل يحجبه عن التفكير ، هذا الانسان ليس بجدير لأن ينال شرف الاستخلاف ، لأنه انحدر الى مستوى البهائم التي لا تملك نظير هذه القوة ، قال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون[3] ».

---

(١) آل عمران : (٢٦) .
(٢) النحل : (٧٨) .
(٣) الاعراف : (١٧٩) .

٣ً ــ إن الانسان في هذه الارض لا يحق له أن يتصرف إلا على الطريقة التي أمره بها المستخلف فحريته في هذا الكون ليست حرية مطلقة ، يتصرف كيفما يشاء ويختار ، بل هي حرية محدودة بالحدود التي وضعها المالك الحقيقي الذي هو الله سبحانه ، ومــن هنا كثيراً ما نسمــع القرآن الكريم يوصي هذا الانســان بالتزام الوقوف عند هذ هالحدود وينذره إن تجاوز هذه الحدود بحلول عقاب الله وغضبه عليه ، قال تعالى : « تلك حــدود الله فلا تعتدوها[1] » . وقــال : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين[2] » .

٤ً ــ ما دام الانسان مستخلفاً فمن واجبه أن يسعى ليعلم ما هــو مستخلف عليــه ، وليحصل على هــذا العلم يجب عليــه أن يبحث ويجرب ، ومــن هنا كان الاستخلاف من أعظم الدوافع للانسان في طريق العلم التجريبي الــذي يزيده كل يوم خبرة واطلاعاً وانتفاعاً بما أوجده الله في هذا الكون .

ومن أجــل ذلك لفت القرآن نظر الانســان الى ما أودع في هــذا الكون من أسرار ، ليعرف كيف يستخدمها من جهة ، وليستدل بها على قدرة خالقها من جهة أخرى « ومن آياته خلق السموات والارض ، واختــلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين[3] » وسيمر بك هذا المعنى في موضع آخر من هــذا الكتاب .

جـ ــ تسخير الكون للانسان :

ومن مظاهر تكريم الله للانسان أيضاً تسخير الكون له ، ومعنى التسخــير أن هــذا الكون بجميع أجرامه وقواه وقوانينه مصنوع لخدمة هــذا الانسان ، ومهيأ لمنفعته ، ولقد ابتدعه سبحانه على نظام يساعد هذا النوع على استبقاء حياته عــلى ظهر الارض ، وقــد مرّ بك هــذا المبحث عنــد الكلام عــلى الكون وبديــع صنع الله فيــه .

---

(١) البقرة : (٢٢٩) .
(٢) النســاء : (١٤)
(٣) الروم : (٢٢) .

د ــ تكليف الانسان بتكاليف شرعية :

١ــ الحياة الدنيا ابتلاء وتكليف :

بعد أن أهبط آدم الى الارض ، وجعلت سكناً له ولذريته من بعده أعلمه الله جل جلاله أن الحياة في هذه الدنيا هي تكليف واختبـار وابتلاء ، فمن قام بهـذه التكاليف حق القيام ، واجتاز مرحلة الاختبار بنجاح فهذا هو الانسان الذي حقق ما أراده الله منه ، وسيكون مآله العـودة الى دار الخلـود التي عرضهـا كعرض السموات والارض ، ومن أعرض عن هذه التكاليف فلم يقم بحقها ولم يرعها حق رعايتها ، ولم يجتز هذا الاختبار بنجاح ؛ فسيكون مصيره الى جهنم دار العقاب ، وما الحياة الآخرة إلا امتداد للحياة الدنيا ، وانتقال من مرحلـة الزرع الى مرحلـة الحصاد ، قال تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعـاً فإما يأتينكم مني هدى فمـن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • والـذين كفروا وكذبوا بآياتنـا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[١] » •

٢ ــ ابتدا تكليف الانسان منذ وجد على الارض :

ومنذ أن هبط آدم الى الارض أنزل الله عليه شريعة ورسالة ، وكلفه أن يقوم بها ، وأن يبلغها أولاده كي يقوموا بها ويعملوا بمقتضاها ، فكان آدم عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسل على هذه الارض •

ثم تعاقبت الأنبياء والرسل من ذريته ، ولقد اقتضت حكمة الله سبحانـه أن يرسل الى الامم رسلاً كلما ضلوا الطريق وانحرفوا عن الجادة رحمة بهم وإقامـة للحجة عليهم « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[٢] » « رسلاً مبشرين ومنذرين كيـلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[٣] » •

---

(١) البقرة : (٣٨ ــ ٣٩) •
(٢) فاطر : (٢٤) •
(٣) النسـاء : (١٦٥) •

ولقد كانت رسالة نبينا محمد ﷺ خاتمة الرسالات والشرائع وكان محمد عليه الصلاة والسلام بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكانت رسالته للناس كافة الى يوم القيامة . « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين[1] » « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا[2] » .

٣ ـ حقيقة هذه التكاليف :

إن هذه التكاليف التي أنزلها الله على رسله من لدن آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام ، وأمرهم أن يبلغوها الى أممهم ، هذه التكاليف تحتوي على جانبين هامين ، لا تقوم حياة الانسان على الشكل الصحيح إلا بهما ، وهذان الجانبان هما العقيدة والتشريع .

آ ـ الجانب الاول : العقيدة :

وهي تعني الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره ، وهي ما يعبر عنها بأركان الايمان وأصول الدين ، وهذا الجانب من الرسالات السماوية لم يختلف ولم يتغير على تعدد الرسالات ، لأنه من الحقائق الثابتة التي ليست في ذاتها عرضة للتغير والتبدل ، وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ب ـ الجانب الثاني : التشريع :

ومعناه ايجاد الخط الذي يجب أن يسير المرء عليه في حل مشاكله المختلفة الجوانب ، ويجب علينا في هذا الجانب أن نعلم الأمور التالية :

١ ـ وجود تشريع يعني أن الله جلت حكمته لم يترك الانسان هملاً بل رعاه

---

(١) الاحزاب : (٤٠) .
(٢) سبأ : (٢٨) .

من أول وجوده على هذه الارض ، وأوجد له منهاجاً يقوده الى السعادة في الدنيـا والآخرة إن هو سار عليه •

٢ — إن تطبيق التشريع الإلهي هو الذي يتحقق به رضوان الله تعالى ، وهو طريق العـودة الى جنة الخلـد التي أهبط منها الانسـان الاول الذي هـو آدم عليـه السلام •

٣ — إن ثمرة وفائدة هذا التطبيق للتكاليف الشرعية ليست بعائـدة الى الله سبحانه فالله هو الغني عن العالمين ، لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا ، وانما فائدتها وثمرتها يجنيهـا الانسان نفسه ، لأنهـا هي الطريق الواضـح الذي يسعـده في الدنيا والآخرة •

٤ — إن تطبيق التشريع الإلهي هو الصورة العمليـة للعقيدة ، فالايمان ليس عقيدة فحسب ، بل هو عقيدة وعمل •

٥ — إن التكاليف الإلهية لم تكن على وتيرة واحدة ، بل اختلفت باختـلاف التصور وتغيرات من رسالة الى أخرى ، فالتشريعات كانت تضيق وتتسع على حسب البيئة والحاجة والوسط الذي نزلت فيه الرسالات ، الى أن جاءت خاتمة الرسالات السماوية رسالة سيدنا محمد ﷺ ، فنسخت سائر التشريعـات ، وأتت بتشريعات خالدة ثابتة لا تتغير أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، كما سنوضـح ذلك • وهي في الوقت نفسه صالحة لكل زمـان ومكان ، وبها ختمت الرسـالات السماوية ، وتم ما أراده الله لهذا الانسـان من منهاج ، ولعل هـذا هو المراد من قوله عليه الصـلاة والسلام : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمـله إلا موضع لبنة من زاويته فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[1] » •

(١) متفق عليـه .

٦ ـ إن هذه التشريعات والتكاليف ثلاثية الأهداف فهي :

١ ـ تنظم علاقة الانسان بخالقه عن طريق العبادة ، فالانسان يشعر باستمرار بالحاجة الى خالقه ، وضرورة الاتصال به والمثول بين يديه ، والالتجاء اليه والاحتماء به ، ومناجاته ودعائه ، وانما يتم ذلك عن طريق تنفيذ التشريعات والتكاليف التعبدية التي يأمر بها سبحانه عباده ، وهي وحدها التي يكون طريق الوصول اليه جل جلاله ، لا بما يبتكره الانسان نفسه من أساليب وطرق ، « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » .

٢ ـ تنظم علاقة الانسان مع نفسه ، فنفس الانسان مطيته التي توصله الى الهدف المنشود ، لا جرم أن الانسان بحاجة الى تحديد علاقته معها ، حتى لا يعنتها ولا يرهقها فتنقطع به في منتصف الطريق ، « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وانظر الى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أما أنا فإني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

٣ ـ تنظيم علاقة الانسان مع غيره ممن يشاركه في إقامة حياة اجتماعية ، فالانسان منذ فطر اجتماعي بطبعه ، ميال الى اقامة حياة يتساعد على اقامتها مع آخرين من أبناء جنسه ، فكان لا بدّ من وجود تنظيم يعرفه ما يأخذ وما يدع ، حتى لا تسوء علاقاته مع الآخرين ، كي يسود بينهم الوئام والوفاق ، ويتحقق استخلاف الله للانسان على أكمل صورة .

هـ ـ مهمة الانسان على هذه الارض :

ومن خلال ما سبق يتوضح لنا أن الانسان المكرم ، المسخر له ما في السموات وما في الارض ، المستخلف في هذا الكون ، المكلف بتكاليف إلهية ؛ هذا الانسان مهمته على ظهر هذه البسيطة بشكل موجز هي الايمان بالله تمام الايمان ، والتطبيق لأحكامه وشرائعه تمام التطبيق كي يسعد في حياته الدنيوية ، وكي يتمكن في نهاية المطاف من العودة الى جنة الخلد .

٤ ـ نهاية الانســـان :

دلت النصوص القرآنية على أن لحياة الانسان على ظهر الارض نهايــة ، وأن هذه النهاية ستكون الموت والفناء ، قال تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجــه ربك ذو الجلال والاكرام[١] » .

ومعنى هذا الفناء أن حياة هذا النوع البشري ستنتهي ، ولن يبقى أيَّ فرد من أفراده على وجه الارض ، سواء في ذلك المؤمن والكافر ، والكبير والصغير .

جاء في الحديث عن أمارات الساعــة : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحــاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهــم فتقبض روح كل مؤمــن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة[٢] » . ويكون هذا الفنــاء الكلي عند النفخ بالصور النفخة الاولى ، قال تعالى : « ونفــخ في الصور فصعق مــن في السموات ومــن في الارض إلا من شــاء الله ثم نفخ فيــه أخرى فاذا هم قيــام ينظرون[٣] » .

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال في حديث طويل : « ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً[٤] ورفع ليتاً وأول مــن يسمعه رجل يلوط حوض إبله[٥] فيصعق ويصعق الناس[٦] » .

القضاء والقدر وحرية الانسان :

آ ـ تعريف القضاء والقدر لغة :

القضاء في اللغة معناه الحكم والصنع والتقدير ، قال الله سبحانــه : « وقضى

---

(١) الرحمن : (٢٦ ـ ٢٧) .
(٢) رواه مسلم : ويتهارجون قال النووي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس.
(٣) الزمر : (٦٨) .
(٤) الليت صفحة العنق وأصغى أمال .
(٥) يلوط الحوض : يطينه .
رواه مسلم .

ربك ألا تعبدوا إلا إياه » أي حكم ، وقال سبحانه : « فقضاهن سبع سموات » أي صنعهن وقدرهن فأحسن سبحانه الصنعة وأتقن التقدير .

والقدر معناه في اللغة : تبيين كمية الشيء بمقدار مخصوص ، ونظام محدود ، قال الله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وقال سبحانه : « وخلق كل شيء فقدّره تقديرا » .

تعريف القضاء والقدر شرعاً :

القضاء هو إرادة الله تعالى الأزلية المتعلقة بالاشياء على وفق ما ستوجد عليه في المستقبل ، كإرادته الأزلية أن يخلق هذ االانسان على وجه الارض .

والقدر هو ايجاد الاشياء على مقاديرها المحدودة بالقضاء ، كإيجاد الله هذا الانسان فعلاً على وجه الارض طبق ما سبق في قضائه .

فمرجع القضاء الى الإرادة والعلم ، ومرجع القدر الى القدرة والفعل . هذا ما ذهب اليه الأشاعرة . وقد عكست الماتريدية ، فجعلت تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء .

وأقرب الأمثلة الآن الى الأذهان في تصوير القضاء والقدر ، هو ما نراه في شكل البنايات والعمارات ، فأولاً يسبق البناء علم المهندس فيخطط الخرائط ويرسمها ويعين ارتفاع البناء وعدد الغرف والمنافع ، وما يكون فيها من أبواب ومنافذ ، يقدّر ذلك ويحدده ، ويقدر ما يوضع فيه من الحديد والاسمنت والحجر ، وما الى ذلك من التصميمات ، وهذا مثال القضاء ، ثم يأتي من بعد ذلك المقاول وينفذ ما قدره المهندس ، وهذا مثال القدر ، وكلا القضاء والقدر لله وحده .

ب ــ وجوب الايمان بهما :

يتفرع وجوب الايمان بالقضاء والقدر وضرورته من دليلين اثنين :

أحدهمـا : الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عمر : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » •

الثـاني : ما سبق من بيان أن الله سبحانه يتصف بالإرادة والعلم والقـدرة ، فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله عزّ وجل ، والقدر فرع عـن ثبوت صفة القدرة لـه •

ومعنى وجوب الايمان بهما ــ كما ذهب أهل السنة والجماعة ــ هو أنه يجب على المكلف أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى ، علم أولاً بجميع ما يقع في المستقبل من أفعال العباد وغيرها ، وأراد وقوعها في زمنها المحدد ، كما يجب عليه أن يؤمـن بأنه سبحانه وتعالى إنما أوجدها حين أوجدها على القدر المخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به والإرادة له •

ومن هنا نعلم أنه لا علاقة للقضاء والقدر بمسألـة الجبر مطلقاً ، كما يتوهم بعض الناس ، لأن الله سبحانه بموجب ألوهيته ، لا بدّ أن يكون عالماً بما سيفعله عباده من مختلف الاعمال ، وبما سيقع ويحصل في ملكه ، وأنه مريد له ، وإلا لكان ذلك نقصاً في صفاته التي ذكرناها • ثم لا بدّ أن تقع هذه الامور مطابقـة لعلم الله عنها ، وإلا لانقلب علمه جهلاً ، وهو محال •

وواضح أن هذا كله لا علاقة له بكون هذه الافعال قد صدرت عن أصحابها على وجه القسر والإكراه ، أو بمحض الإرادة والاختيار ، فقد علمت أن صفة العلم صفة كاشفة ، وكـل شأنها أنهـا تكشف الامـور على ما هي عليـه ، أو عـلى ما ستوجد عليه ، وهو شيء لا علاقة له بالجبر والاختيار •

ويقول الامام النووي في شرحه على صحيح مسلم بعد أن عرف القضاء والقدر : قال الخطابي : « وقد يحسب كثير مـن الناس أن معنى القضاء والقدر إجبـار الله سبحانه وتعالى العبد ، وقهره على ما قدره وقضاه ، وليس الامر كما يتوهمونـه ، وانما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما سيكون من أكساب العبد

وصدورها عن تقدير منه[1] » .

وذكر ابن حجر في شرحه على حديث عمر عن الايمان تعريف القضاء فقال : « والقضاء علم الله أولاً بالاشياء على ما هي عليه ، والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم[2] » .

ج ــ خالقية الله لفعل الانسان لا تسلبه الاختيار :

اذا علمت هذا فان لسائل أن يقول : فهب أن العلم لا علاقة له بالاشياء إلا على وجه الكشف عنها كما ذكرت ، ولكن أليس وجود الأشياء التي قضى الله أنها ستوجد « أي علم بوجودها » بموجب خلقه هو وبموجب إرادته هو ؟ واذاً فقد انتهى الأمر الى القسر ، والإكراه ، إن لم يكن بتعلق العلم فبتعلق الخلق والإرادة .

والجواب : أن كل شيء لا يوجد ولا يتكيف إلا بخلق الله جل جلاله ، ولا يتم أيضا إلا بإرادته ، أما ما يترتب عليه في ظنك من القسر والإجبار فإليك بيان بطلانه ، بالنسبة لقضية الخلق أولا ، ثم لقضية الإرادة ثانيا .

تنقسم مخلوقات الله تعالى الى قسمين :

القسم الاول : مخلوقات لا كسب لأحد فيها ، وهي كل ما يقع في الكون على وجه القسر والحتم ، كحركة الأفلاك والفصول ، ونموّ الاشجار والنباتات والانسان ، وككثير من وظائف الانسان وحركاته ، كالنوم واليقظة وحركة الارتعاش والموت وما أشبه ذلك ، ولا كلام لنا في هذا القسم اذ لا إشكال فيه ، خصوصاً اذا كنت قد علمت أن الانسان ليس مكلفاً ولا مؤاخذاً بالنسبة لشيء من تصرفاته وأوضاعه القسرية ، ولا يتعلق بها ثواب ولا عقاب .

---

(١) النووي على مسلم : (١/١٥٤ ــ ١٥٥) .
(٢) فتح المبين بشرح الاربعين : (٦٤) .
(٣) الفرقان :) ٢ (.

القسم الثاني : مخلوقات اكتسابية يتصف بها الانسان بكسبه وسعيه الاختياري ، كإقباله على الطعام والشراب والدراسة ، وكمختلف ما يختاره لنفسه من السلوك والاعمال ، وهذا ما يتعلق به الإشكال .

فاعلم أولاً أن أفعال الانسان الاختيارية من جملة مخلوقات الله عزّ وجل ، فالله هو الذي يخلق فيك الإقبال على الدراسة والانصراف عنها ، وهو الذي يخلق فيك تصرفاتك كلها من طاعة وعصيان ، ثبت ذلك بالدليل العقلي البين ، إذ لو لم يكن شيء من ذلك بخلق الله وقدرته ، لما اتصف اذاً بكل صفات الكمال ، ولكان ذلك بتأثير مستقل من غيره ، وهو محال على الله تعالى ، كما قد دلّ على ذلك الدليل القاطع وهو قوله عزّ وجل : « وخلق كل شيء فقدّره تقديرا » .

والفعل من جملة الاشياء بلا شك ، هذا ما عليه عامة أهل السنة والجماعة .

غير أن خلق الله لأفعالك لا يستلزم أن تكون مكرهاً عليها ، وليس بينهما أي تلازم ، إلا فيما يتوهم بعض الناس .

ذلك لأن تلبسك بفعل ما ، يتوقف على أمرين اثنين : وجود هذا الفعل في الخارج (أي وجود مقوماته كلها المادية والمعنوية) ثم اكتسابك له عن طريق انبعاثك نحوه ، فأنت مريد ومختار بوصفك كاسباً ومنبعثاً اليه ، لا بوصفك خالقاً وموجداً لمقوماته وعناصره .

وإيضاح ذلك بالبيان الحسي أن تقول : إن اليد وما فيها من حياة وشرايين وأعصاب ودماء ، وبما تتصف به بسبب كل ذلك من القدرة على الحركة ، كل ذلك بخلق الله عزّ وجل ، والورق الذي أمامك في صورته وجوهره وخصائصه من خلق الله أيضا ، والقابلية الموجودة في القلم للكتابة هو أيضا من خلق الله عزّ وجل .

وتلاقي هذه العناصر كلها لتوجد خطاً مرقوماً على الورق ، لا شك أنه هو أيضا بقدرة الله عزّ وجل وخلقه . فهذا معنى قولنا : إن الله هو الخالق لفعل الانسان .

ولكن هل ينسب اليك أنك قد كتبت سطراً على الورق بمجرد تكامل هذه العناصر كلها ؟ لا ، إن خالقية الله لهذه العناصر كلها لا تعني أنك قد كتبت ، وهذا واضح جداً ، اذاً لا بدّ لكي توجد الكتابة منك من أن تعزم في نفسك على الكتابة، وأن تنبعث إرادتك الى التنفيذ ، فحينئذ يأذن الله تعالى للقوة التي أودعها في يدك أن تلبي ، وللشرايين والأوردة أن تساعدك على قصدك ، وللحبر أن ينساب كما تشاء ، وللورق أن يتأثر بذلك على النحو الذي تتحقق فوقه الكتابة . وعندئذ تسمى كاتبا ، وينسب اليك كسب هذا الفعل ، على الرغم من أن الله عزّ وجل هو الخالق له ، أي فالقصد والعزيمة والكسب منك ، وذلك بسرّ الإرادة التي ركبها الله في نفسك ، وخلق الفعل وأسبابه القريبة والبعيدة من الله تعالى ، وانما تكون المقاضاة والمحاسبة على القصد والكسب ، لا على خلق الوسائل والاسباب وخلق الفعل نفسه .

وهذه حقيقة نعلمها جميعاً في حياتنا الاجتماعية والقانونية ، فالمقاضاة انما تكون على الكسب لا على جوهر الفعل المستقل بذاته .

ان الذي يدعس بسيارته انساناً فيقتله ، لا يقاضى على الفعل لأنه ليس هو صاحب الفعل بالذات ، بل صاحب الفعل المباشر هو السيارة نفسها ، ولكنه يقاضى على الكسب ، والذي جاء بالعمال فحفروا له في قارعة الطريق حوضاً أو بئراً ، لا يعاقب على إفساده للطريق العام لأنه هو الفاعل ، بل لأنه هو الكاسب ، والذي جاء بقارورة السم فوضعها في مكان قارورة الدواء التي الى جانب المريض ، فتناول منها المريض فمات يقاضى ويقاصص ، مع أنه ليس هو الفاعل ، ولكنه الكاسب للفعل والمتلبس به .

والله عزّ وجل انما يقاضي عباده ويحاسبهم على هذا الشيء الذي اسمه الكسب ، أي الانبعاث النفسي الى التلبس بالفعل ، ألا تلاحظ قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[1] » . وقوله

(١) البقرة : (٢٨٦) .

تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت[1] » • وقوله : « وبدا لهم سيئات ما كسبوا[2] » • وقوله سبحانه : «إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون[3] » • الى ما هنالك من الآيات الكثيرة الاخرى التي تنص على أن مناط الأجر والثواب والعقاب والجزاء ، إنما هو كسب الانسان أي انبعاثه نحو الشيء الذي أمر به أو نهي عنه ، وانما شاء الله أن يجعل خلقه وقدرته وفقاً لانبعاثهم ، حتى يكون ذلك بمثابة السجل الذي تثبت فيه هذه الانبعاثات مجسدة في مظهر الفعل الذي ظهرت فيه •

فقد علمت اذاً أن تعلق صفة الخلق بكل ما قد علم الله وجوده ، فيما لا يزال لا يستلزم شيئاً من القسر والجبر المتوهمين •

أما أن علمه بوجود هذه المخلوقات والأفعال يستلزم تعلق إرادته بها ، فواضح أنه لا إشكال في ذلك بالنسبة للقسم الاول من المخلوقات ، وأما القسم الثاني وهو المخلوقات الاكتسابية القائمة على الاختيار الانساني ، فقد يتعين عليك أن تعلم أن إرادة الله عزّ وجل ، متعلقة بخلق سر الإرادة في كيانك ، وهو مستلزم كما تعلم لتعلق الإرادة الإلهية بما تختاره أنت من الشؤون والأفعال بموجب هذه الإرادة التي منحك إياها ، ولكن ذلك ليس موجباً لأن تكون مجبراً غير مخير ، وإلا لوقع التناقض بين قولنا ، إنه وهبك سر الإرادة التي تنبعث بها الى اختيار الافعال ، وقولنا : إن ما تختاره بموجبها فعل قسري تقوم به جبراً عنك •

د ــ مصير الإرادة الانسانية امام إرادة الله عزّ وجل :

ولكي تتضح هذه النقطة تمام الوضوح ــ وهي أن من جملة ما أراده الله تعالى أن تكون هناك إرادة للانسان ــ نقول :

---

(1) المؤمن : (١٧) •
(2) الزمر : (٤٨) •
(3) الانعام : (١٢٠) •

قد علمنا أن إرادة الله تعالى مطلقة وكاملة ، وصالحة للتعلق بكل الممكنات ، فكيف نتصور أن تكون للانسان أيضا إرادة الى جانبها ؟ وقد علمنا ببراهين التجربة والمشاهدة أن الانسان يريد ويختار في كثير من سلوكه وتصوراته ، فما نوع هذه الإرادة وحقيقتها ؟ بل وما مصيرها في جنب إرادة الله تعالى ؟

والجواب : أن الله عزّ وجل لما خلق الانسان أقامه على نوعين من الحركة والتصرف كما أوضحنا ذلك آنفاً ، وذكرنا أن النوع الثاني منهما ينشأ عن سر عجيب خاص أودعه الله عزّ وجل في الانسان ، ألا وهو الاختيار والإرادة ، فلقد تعلقت إرادة الله عزّ وجل بأن يغرس في كيان الانسان هذا السر الذي هو محور التكليف فيه ، وأن يجعله يصدر في كثير من تصرفاته عن هذا السر الذي به سمي حراً ومختاراً .

وتوضيح ذلك أن إرادة الله تعالى تعلقت بأن تكون مريداً ، فسرت إرادة الله عزّ وجل بذلك الى كل ما تريده وتختاره من الاعمال ، واذاً فلا يمكن أن يقع أي تعارض بين إرادة الله تعالى وما تختاره عن طريق إرادتك الخاصة ، اذ لو فرضنا أن الله غير مريد لعمل قد اخترته بإرادتك ، كان معنى ذلك أنه سبحانه غير مريد لإرادتك التي وجهتك الى ذلك الفعل ، وهو مناقض لما ثبتت من أن الله عزّ وجل قد شاء لك أن تكون مريداً ، وشاء أن يخلق فيك هذا السر ، فثبت بطلان فرض أن الله قد لا يريد العمل الذي تختاره ، وللزم أيضا أن يكون الله تعالى مغلوباً على أمره حينما فعلت ما لا يريده .

ولنوضح ذلك بمثال يقرب هذه الحقيقة :

خادم عندك في الدار تريد أن تمتحنه وتعلم مدى صدقه وأمانته في الخدمة والمعاملة ، ولكي تصل الى بغيتك هذه أعطيته مبلغاً من المال وبعثته الى السوق لشراء بعض الحاجات ، وفسحت له المجال أن يتصرف كما يشاء ، دون أن تضع عليه رقيباً ، أو تضيق عليه السبيل .

فأنت بترتيبك هذا أردت أن يكون حراً فيما يفعل ويــذر ، لا يستجيب إلا لنــداء ضميره وتفكيره الداخلي ، بحيث يتمتع بإرادة لا يشوبها قسر ، حتى تعلم بذلك طويته ، فاذا عاد وقدْ خان الأمانة فيما أعطيته من المال وما عاد به مــن المتاع فأنت في الواقع مريد لهذه النتيجة ، واذا عاد وقد حقــق منتهى الأمانة في عملــه ، فأنت مريد أيضا لهذه النتيجة ، إذ أنت لم ترد إطلاق يده بالتصرف كمــا يشاء إلا وأنت مريد لظهــور نتيجة ذلــك ، أياً كانت النتيجة ، ســواء أكنت قد أحببتهــا ورضيتهــا أم لا •

اذا تبــين ذلك لك ، علمت أن مصــير الإرادة الانسانيــة في جنب إرادة الله ليس إلا كمصير إرادة الخادم في جنب إرادة سيده ، ولله المثل الاعــلى ، فإرادتك المتعلقة بتصرفاتك الاختيارية منطوية تحت إرادة الله تعــالى ولكن لا عــلى طريق القسر والإكراه ، وانما عن طريــق بث سر الإرادة والاختيار في كيــانك ، وكانت حكمته مــن ذلك أن تكسب بموجبها كــل ما تحب دون قسر أو إكراه ، لتتجلى طويتك في سلوكك ، فتستأهل بذلك مثوبة الله أو عقابه ، وواضح أن سلوكك هذا يصبح بذلك من مراد الله عزّ وجل •

هـ ــ الفرق بين الإرادة والرضا :

قد يتوهم بعض الناس أن الإرادة والرضى شيء واحد ، أي إن جميع ما يريده يرضاه ، وجميع ما يرضاه يريده •

والصحيح أن هنــاك فرقاً شاسعاً بين الإرادة والرضــا ، فالإرادة ــ كمــا ذكرنا ــ تتعلق بالممكن سواء أكان مما يحب أو يكره ، كمــا اتضح لك ذلك مــن مثال الخادم السـابق ، ومثل الإرادة المشيئة •

وأما الرضا ، فهو قبول الشيء والإثابة عليه ، ومثل الرضــا المحبة ، وكــذا الأمر ، وقد قال الله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتــاء ذي القربي

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون[1] » • وقال سبحانه : « إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر[2] » • وقال سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص[3] » •

هذا ونختم موضوع الفرق بين الإرادة والمشيئة من طرف ، والرضا والمحبة من طرف آخر بمناظرة وقعت بين القاضي عبد الجبار المعتزلي وأبي اسحق الإسفراييني •

قال الإمام الباجوري : « حكي أن القاضي عبد الجبار الهمذاني دخل على الصاحب بن عباد وعنده الأستاذ أبو اسحق الاسفراييني ، فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فقال الاستاذ : سبحان من لا يجري في ملكه إلا من يشاء ، فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يعصى ؟ فقال الاستاذ : أفيعصى ربنا كرهاً ؟ فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليّ بالردى ، أحسن إليّ أم أساء ؟ فقال الاستاذ : إن منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له فهو يخص برحمته من يشاء[4] » •

مشكلة الشر والآلام :

على الانسان قبل أن يتحدث عن هذه المشكلة أن يدرك الحكمة من وجوده على ظهر هذه الارض •

إن الحكمة من وجوده هو ابتلاؤه واختباره ، فان أجاب عن الاسئلة التي تطرح عليه بجواب صحيح كان في الآخرة من الناجحين ، وان أجاب عنها بجواب غير صالح كان في الآخرة من الهالكين • ولقد أوضح الله سبحانه هذه الحقيقة عندما قال سبحانه : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » •

(١) النحل : (٩٠) .
(٢) الزمر : (٧)
(٣) الصف : (٤) .
(٤) حاشية الجوهرة : (٣٩) .

وفي ميدان الاختبار والامتحان للممتحن والمختبر أن يضع من الاسئلة ما يعتقد أنه هو الوسيلة الصحيحة لكشف حقيقة الممتحن ، كما أن لهذا الممتحن الحرية الكافية لأن يجيب عن هذه الاسئلة بما يشاء •

فالأسئلة ليست كلها من نوع واحد ، ومن جهة واحدة ، بل هي متعددة ومتنوعة على حال يستشف منها مقدرة هذا الممتحن •

وبما أن هذه الدار دار امتحان واختبار فقد نوّع الله سبحانه الاسئلة المطروحة على عباده فمنها الفقر ومنها الغنى ، ومنها الصحة ومنها المرض ، ومنها الخير ومنها الشر ، وكل ذلك امتحان واختبار ، ولقد قال الله سبحانه في بيان ذلك : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » •

ومن هذا المنطلق لا نرى في ما نعانيه من آلام ، وما يصيبنا من شر لا نرى في ذلك مشكلة ، ما دمنا نعتقد أننا في قاعة امتحان ، وأن هذه أسئلة يجب أن نجيب عنها بجواب صحيح •

القسم الثالث

النبـوة والـوحي

ويتضمـن

١ ـ حاجة الانسان الى النبوة .

٢ ـ طبيعـة الوحي وانواعـه .

٤ ـ صفـات الأنبيـاء وعصمتهـم .

٥ ـ نبوة محمد ﷺ ومكانتها من النبوات السابقـة .

ـ دلائل نبوة محمد ﷺ .

ـ القرآن الكريم ووجوه إعجـازه .

ـ حياة النبي كشاهد على المصدر الإلهي لرسالته .

معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما :

النبوة مأخوذة من النبأ بمعنى الخبر ، قال في المصباح : « والنبأ مهموز الخبر ، والجمع أنباء مثل سبب وأسباب ، وأنبأته الخبر وبالخبر ونبأته بـه أعلمته : والنبيء على فعيل مهموز ، لأنه أنبأ عن الله أي أخبر » إذن معنى النبوة وصول خبر من الله تعالى الى أحد خلقه ، عن طريق الوحي ، وإعلامنا أنه نبي ، فالنبوة هي العلاقة بين الخالق والنبي ، وهي علاقة الخبر والإنباء .

والرسالة مأخوذة من أرسل ، فهي تعني تكليف الله لأحد عباده بإبلاغ الناس بشرع ، فالرسالة بيان للعلاقة التي بين الله والنبي والناس .

وبعد فهل هناك فرق بين النبي والرسول ؟

الذي عليه جمهور العلماء أن النبي هو انسان أوحي اليه بشرع سواء أمر بتبليغه للناس أم لم يؤمر .

والرسول هو انسان أوحي اليه بشرع وأمر بتبليغه للناس ، فالنبي أعم من الرسول ، فكل رسول نبي لأنه أوحي اليه بشرع ، ولكن ليس كل نبي رسولاً لأنه قد يوحى اليه ولا يؤمر بالتبليغ . فبين الرسول والنبي عموم وخصوص مطلق .

وذهب فريق من العلماء الى أن الكلمتين مترادفتان تردان على معنى واحد ، فكل نبي رسول ، وكل رسول نبي ، إلا أنه يسمى رسولاً من حيث إنه قد أرسل الى الناس ، ويسمى نبياً من حيث إنه نبيء وأوحي اليه ، وممن ذهب الى ذلك السعد التفتازاني[1] .

---

(1) أنظر حاشية الباجوري على الجوهرة : (٦) وحواشي السنوسية : (٤٣٥ فما بعدها) .

وهناك آراء أخرى تذكر لا حاجة الى ذكرها هنا ، لأنها لا تدخل في العقائد التي يجب أن تكون أدلتها قطعية يقينية •

حاجة الانسان الى الرسل :

لقد مرّ بنا بحث عن حقيقة هذ االانسان وبيان أنه المخلوق المكرم المكلف المسؤول ، وأنه خليفة الله في هذه الارض ، وأنه هو الذي سيحاسب وسيجازى عما عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ومن هذه الصفات التي منحها الله لهذا الانسان تنبع حاجته الى الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإليك صوراً من من هذه الحاجة :

اولا ـ الهداية الى معرفة الخالق جلّ جلاله :

الإيمان بأن لهذا العالم رباً خالقاً له ومدبراً لأموره فطرة عند الانسان منذ أن خلقه الله بيديه ، لا يحتاج الى اقامة برهان عليه ، كما لا يحتاج الى برهان على وجود الغرائز الانسانية ، ولو ترك الانسان وشأنه من غير أن يعترض سبيله معترض ما نشأ إلا مؤمناً بوجود هذا الخالق ، ومعترفاً بحاجته اليه ، يحس بهذا في أعماق نفسه ، من غير أن يكون بحاجة الى دليل وبرهان ، وهذا هو المعنى المقصود بقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1] » •

والى هذا قصد الحديث القدسي الذي رواه مسلم : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا[2] » • وقد ألمحنا الى ذلك عند الكلام على أدلة وجود الخالق جل وعزّ •

---

(١) الروم : (٣٠) وانظر تفسير القرطبي (٢٥/١٤ فما بعدها) •
(٢) اجتالهم : استخفوا بهم وذهبوا بهم وازالوهم كما كانوا عليه •

ولكننا اذا تتبعنا تاريخ العقيدة منذ فجر التاريخ حتى اليوم وجدنا أن الانسان قد ضل في الاهتداء الى هذا الخالق المدبر ، فظنه جماعة الشمس فعبدها ، أو القمر أو كوكباً آخر فتوجهوا الى ما اعتقدوه بالعبادة ، واتجه قوم الى الارض فألّهوا بعض ما عليها من مخلوقات .

وهكذا تخبط الانسان في الضلال فلم يستطع الاهتداء الى الإله الحقيقي ، خالق هذا الكون ومدبّر أمره ، فكان لا بدّ من مرشد يرشده ويأخذ بيده الى معرفة هذا الإله العظيم والمدبر الحكيم ، ويبين له أن ما ألهه من مظاهر الطبيعة إن هي إلا مخلوقات الإله الخالق المدبر.وهؤلاء المرشدون هم الرسل الذين أرسلهم الله عز وجل ليقوموا بهذا الأمر خير قيام ، عليهم الصلاة والسلام .

ثانيا ـ اطلاع الانسان على المغيبات التي تتعلق به :

الانسان ذلك الموجود المادي ، يعيش في هذا العالم المادي ، ولا يقع تحت مشاهدته إلا ما هو مادي ، ولذلك كان جاهلاً جهلاً تاماً بما وراء هذا العالم المادي .

ولكن هناك عوالم لا تقع تحت مشاهدته ، وهو بحاجة الى معرفة بعضها ، إذ له علاقة بحياته ومصيره ، ولا يمكن أن يتوصل اليها بجهد فكري ، ولا بتأمل عقلي ، وذلك كوجود الملائكة والجن ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، والصراط والميزان ،

فهذه الأمور هي بعيدة كل البعد عما يتناوله العقل بأحكامه من الوجود والعدم ، لأنها بنظره يمكن أن تكون موجودة ، ويمكن أن لا تكون موجودة ، فترجيح أحد الاحتمالين ، لا بد له من مرجح يقول كلمة الفصل التي لا جدال فيها في ذلك .

لذلك كان الانسان بحاجة الى من يؤكد له وجود هذه العوالم ، ويعرفه على أحوالها .

فأرسل الله تعالى رسله عليهم الصلاة والسلاة ، يبينـون للناس ويؤكـدون أن هناك بعثاً وحساباً ، وجنة وناراً ، وملائكة وجناً وغير ذلك من الحقائق الثابتة من عالم الغيب ، وأن هذه العوالم ليست احتمالات وهمية ، وخيالات فرضية ، وعلى الانسان أن يؤمن بوجودها إيمانا لا يخالجه أدنى شك ، قال الله تعالى : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله[1] » أي إن الله تعالى يرسل رسله ليعلموا الناس بأحوال الغيب ، وبذلك يترجح جانب الوجود على جانب العدم ، ويجب الايمان بها ، ولولا ارسال الرسل لما اهتدى الانسان الى وجودها وأحوالها .

ثالثا ـ ايجاد منهج صالح يكفل للانسان السعادة :

الانسان محدود العلم لا يستطيع أن يحيط بما هو كائن ، ولا بما كان ، ولا بما يستطيع أن يعلم ما سيكون .

وهو بالاضافة الى ذلك يقع تحت مؤثرات كثيرة ، كالمال والجاه ، والحب والبغض والقرابة ، وتأثير السلطة التي قد يستخدمها بعض الدول على بعض المواطنين لإرغامهم على تصرف معين .

لهذا كله فان الانسان غير صالح لوضع النظم الثابتة الدائمة المبنية على الدراسة الموضوعية المطلقة ، مما يحقق العدالة من غير محاباة ولا تمييز . لأن النظام الثابت لا بدّ من أن يصدر عن علم محيط بكل شيء ، وذات محررة من كل هوى وكل مؤثر ، ومن حكمة تضع الأمور في مواضعها .

ولا يتوافر ذلك إلا في الذات الإلهية ، ولذلك نقول : إن التشريع الثابت الدائم العادل لا يصدر إلا عن الله تعالى ، لأنه سبحانه هو وحده صاحب العلم المحيط ، وهو الحكيم الذي ليس لحكمته نهاية ، والمنزه عن التأثر بأي مؤثر من من المؤثرات مهما كان ، فتشريعه هو التشريع الصالح الخالد . قال الله تعالى :

---

(١) آل عمران : (١٧٩) .

« إن الدين عند الله الاسلام[1] » ولكن كيف يتم تبليغ شريعة الله تعالى للناس الذين هم بحاجة اليها ؟ لا بدّ أن يكون هناك فئة من البشر يفهم عنها البشر ما تقول، ولكنها في استعداداتها أعلى من البشر ، تكون واسطة بين السماء والارض ، حيث يلقى اليها الوحي فتقوم بتبليغ هذا الوحي الى الناس ، وتشرح لهم أهدافه ومراميه ، وهذه الفئة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام . قال الله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط[2] » .

رابعا ــ إعلام الانسان بانه مكلف ومسؤول ومختبر حتى لا تكون له حجة :

الانسان في هذه الدنيا مكلف بأعمال يجب عليه أن يقوم بها ، وهو مسؤول عما يعمله ، وهو موضوع في هذه الدار موضع الابتلاء والاختبار ، وكل ما يجري عليه من أمور فانما هو أسئلة اختبارية ، والواجب عليه أن يجيب عليها بالاجوبة الصحيحة ، سواء أكان ذلك من نعمة أو نقمة ، من صحة أو مرض ، قال تعالى : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا[1] » . وقال سبحانه : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة[2] » . وقال جل جلاله : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون[3] » .

فلكي يعلم الانسان أنه مكلف ومسؤول وأن حياته في هذه الدار حياة ابتلاء واختبار ، لكي يعلم ذلك هو بحاجة الى رسول يعلمه بذلك ، ولولا أن الله أرسل الى الناس الرسل مبشرين ومنذرين ، لكان لهم عذر وحجة عند ربهم يوم القيامة ، عند محاسبتهم على ما يفعلون ، ولقالوا عند ذاك : يا ربنا لو أرسلت الينا

---

(١) آل عمران : (١٩) .
(٢) الحديد : (٢٥) .
(٣) الملك : (٢) .
(٤) الانبياء : (٣٥) .
(٥) البقرة : (١٥٥ ــ ١٥٧) .

رسولاً لكنا اتبعناه ولم نخالف لك أمراً •ولقد قال سبحانه في ذلك : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما[1] » • وقال سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[2] » • وقال جل جلاله : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى[3] » •

خامسا ـ حاجة الناس الى قدوة حسنة :

الناس دائماً بحاجة الى نماذج بشرية يتجسد فيهم الأخلاق الفاضلة ، والسلوك المثالي ، كي يكونوا قدوة لهم ومثالاً يحتذونه في سلوكهم •

والرسل بما أعطاهم الله من العصمة هم الذين جعلهم الله تعالى القدوة الحسنة، والأسوة الرائعة في الأخلاق والسلوك • قال الله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[4] » وقال سبحانه في حق الرسل : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[5] » وقال سبحانه : « قد كانت لكم أسوة في ابراهيم والذين معه[6] » •

وهناك أمور كثيرة تظهر فيها حاجة المجموعة البشرية الى الرسل ، نكتفي منها بما أوردناه •

ومن هذه الأشياء ندرك أن العقل ليس من وظائفه إدراك هذه الاشياء ، لأن معظمها من الأمور الغيبية التي ليس هناك من سبيل أمام العقل لإدراكها ، غير أن هذه الاشياء من مهمات الوحي •

---

(١) النساء (١٦٥) .
(٢) الاسراء : (١٥) .
(٣) طه : (١٣٤) .
(٤) الاحزاب : (٢١) .
(٥) الانعام : (٩٠) .
(٦) الممتحنة : (٤) .

على أن العقل وظيفته هنا أنه اذا عرضت عليه هذه الاشياء فليس عنده من دليل على إبطالها وإنكارها ، بل لديه من الادلة ما يجعله يقول بامكانها ٠

طبيعة الوحي وانواعه :

لقد ذكرنا آنفاً أن الرسول انسان أوحي اليه بشرع وأمر بتبليغه للناس ٠ فالرسالة متلازمة مع الوحي ، فلا رسالة إلا ويرافقها وحي ٠

ولكن الانسان يتساءل عن طبيعة هذا الوحي ، وعن أنواع هذا الوحي ، ونحن فيما يلي نتحدث عن هذين الأمرين :

طبيعة الوحي :

الوحي في اللغة : لقد استعمل لفظ الوحي في اللغة العربية استعمالات متعددة كلها تدور حول حدوث العلم الخفي السريع مهما اختلفت أسباب هذا العلم٠

لذلك يطلق على الإيماء والإشارة السريعة ، وعلى الكلام الخفي وعلى إلقاء المعنى في النفس ، وعلى الإلهام سواء أكان بدافع الفطرة أو بإشراقات الفطرة ٠

ومن استعمالات الوحي في المعنى اللغوي قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا[1] » أي أومأ وأشار ٠

وقوله سبحانه : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون[2] » أي ألهم ٠

وقوله تعالى : « وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم[3] » أي يوسوسون لهم ٠

---

(١) مريم : (١١) ٠
(٢) النحل : (٦٨) ٠
(٣) الانعام : (١٢١) ٠

الوحي في الشرع : نستطيع من خلال النصوص الشرعية أن نعرف الوحي بأنه: إعلام من الرسول أو النبي العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله به ، ويتجلى في هـذا التعريف أمـور :

أحدهـا : أن الوحي هو إعـلام من الله سبحانـه المحيط علمه بكل شيء • قال تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنـا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نـوراً نهـدي به مـن نشاء من عبادنا وإنك لتهـدي الى صراط مستقيم[1] » •

ثانيها : أن الرسول أو النبي يتلقى هذا العلم الإلهي ، وهو مستجمع كامـل شعوره الفكري والوجداني حول ما يلقى اليه ، دون أن يكون لإرادته واختياره تدخل في مضمون ما يلقى اليه ، أو في لفظه ان كان ما يلقى اليه لفظاً • وفي ذلـك يقول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى • إن هـو إلا وحي يوحى[2] » ويقـول : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجـون لقاءنا ائت بقرآن غير هـذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى الي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم[3] » •

ثالثها : أن ما يلقى بالوحي من كلام أو معنى يقع في نفس الرسـول أو النبي موقع العلم اليقيني القاطع بصحة التلقي عن الله سبحانه ، بحيث لا يعتريـه في ذلك أدنى تردد أو شك •

وفي هذا يقول الحق جل جلاله : « لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين[4] » • وقال سبحانه : « واتل ما أوحي اليى مـن ربك لا مبدل لكلماتـه

---

(١) الشورى : (٥٢) .
(٢) النجم : (٣ — ٤) .
(٣) يونس : (١٥) .
(٤) يونس : (٩٤) .

ولن تجد من دونه ملتحدا[1] » • وقال جل وعلا : « والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير[2] » •

رابعها : أن ظاهرة الوحي هي ناموس إلهي به يتلقى جميع الرسل والأنبياء ما يلقى اليهم من أمر • وفي ذلك يقول ربنا سبحانه : « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً[3] » •

انواع الوحي :

قال سبحانه : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء انه علي حكيم[4] » •

يستفاد من هذه الآية الكريمة أن الوحي للرسل والأنبياء على ثلاثة أنواع :

النوع الاول : الوحي الذي يكون بلا كلام مسموع :

وذلك يكون بالإلقاء في القلب يقظة أو مناما ، وهو يشمل ما كان مثل صلصلة الجرس ، والنفث في الروع ، والإلهام ، والرؤيا المنامية • وهذا النوع هو ما أشار اليه في الآية بقوله : « إلا وحياً » •

النوع الثاني : ما كان بسماع الكلام الإلهي ولكن من غير رؤية للمتكلم ، وذلك كما حصل لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : « فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى • وأنا اخترتك

---

(1) الكهف : (٢٧) .
(2) فاطر : (٣١) .
(3) النساء : (١٦٣) .
(4) الشورى : (٥١) .

فاستمع لما يوحى • إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري • إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى[1] » •

وقال جلّ وعلا : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربّ أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين • قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين[2] » • وهذا النوع هو ما عناه قوله : « أو من وراء حجاب » •

النوع الثالث : ما يكون بواسطة ارسال ملك ترى صورته ويسمع كلامه ، وهذا الملك الموكل بذلك هو جبريل عليه السلام ، فيوحي الى النبي بما أمره الله أن يوحي اليه به •

وهذا النوع الثالث هو المعني بقوله تعالى : « أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء[3] » •

كيف كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ :

لقد ذكرنا أنواع الوحي التي يخاطب الله بها رسله ويعلمهم بما يريد منهم علماً يقينياً لا تردد فيه ولا شك •

وفيما يلي نتحدث عن كيفية تلقي رسول الله ﷺ للوحي •

آ ــ أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة ، روى البخاري في

---

(١) طـه :
(٢) الاعراف : (١٤٣ ــ ١٤٤) .
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن : (٥٣/١٦) وتفسير مفاتيح الغيب ملرازي: (٤٠٦/٧ فما بعدها) .

صحيحه « كتاب بدء الوحي » عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي ؛ الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . أي جاءت ظاهرة واضحة لا شك فيها .

قال ابن حجر : وبدىء بذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة[1] .

ب ــ ثم جاءه جبريل بغتة على غير ميعاد سابق ، وذلك في غار حراء ، اذ كان يذهب اليه للتعبد حينما حبب اليه الخلاء ، فكان يتعبد الليالي ذوات العدد . وأخذ يضمه اليه بقوة ثلاث مرات ، وكان يقول له اقرأ فيجيب الرسول عليه الصلاة والسلام : ما أنا بقارىء .

ولقد كان لهذا اللقاء المفاجىء أثر كبير في نفس الرسول عليه الصلاةوالسلام ، اذ رجع الى أهله وهو يرجف فؤاده من الخوف ويقول : زملوني زملوني .

جـ ــ ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ مدة قيل إنها قرابة ثلاث سنوات[2] .

والحكمة في فتور الوحي وتأخره أن يحصل له عليه الصلاة والسلام التشوق الى العود ، وليذهب عنه ما وجده من الروع[3] ، وليشعر أن ما حدث له لم يكن نتيجة لرياضة روحية ، وانما كان ذلك اصطفاء واختياراً له من قبل خالقه جلّ وعلا ، ولقد لاقى رسول الله ﷺ شدة من فتور الوحي .

د ــ ثم جاءه الوحي بعد ذلك وهو يسير في شعاب مكة . روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال ــ وهو يحدث عن فترة الوحي ــ فقال في حديثه : بينا أنا امشي اذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني جالس على كرسي بين السماء والارض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ، زملوني ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر.قم فأنذر . وربك فكبر.وثيابك فطهر.والرجز فاهجر».

---

(1) فتح الباري : (١/١٧) .
(2) انظر فتح الباري : (١/٧١) .
(3) المصدر السابق .

هـ ـ ثم تتابع الوحي بعد ذلك .

ولقد كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ على حالات مختلفة منها : النفث والإلقاء في القلب .

ومن ذلك ما رواه أبو نعيم في الحلية إن صح : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فان الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته » .

ومنها : أنه كان يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس ـ الصلصلة صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ثم أطلق على كل طنين ـ وكان هذا النوع من الوحي أشد الأنواع على رسول الله ﷺ[1] .

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشده علي ـ فيفصم عني وقد وعيت ما يقول.

ومنها : أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه ، ففي تتمة الحديث الذي ذكرت آنفاً : « وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » .

هذا ولقد جاء في الحديث وصف لرسول الله ﷺ حينما كان ينزل عليه الوحي.

ففي البخاري : « قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » .

وفي البخاري أيضا : « قال زيد بن ثابت : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه

---

(١) المصدر السابق : (١٥/١) .

على فخذي ، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي[1] » .

هذا وختاماً نبحث « كيف كان ينزل الوحي على رسـول الله » نذكر حديث بدء الوحي كاملاً كما رواه البخاري في مطلع صحيحه .

أخرج البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ــ وهو التعبـد ــ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال: ما أنا بقارىء،قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت ، ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ، ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الـذي خلق . خلق الانسـان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسـول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ــ وأخبرها الخبر ــ : لقـد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ــ ابن عم خديجة ــ وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع مـن ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي مـاذا ترى ؟ فأخبره رسـول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً اذ يخرجـك قومك ، فقال رسـول الله ﷺ : أو مخرجيّ هم ؟ !

---

(1) البخاري : كتاب الصلاة الباب الثاني عشر . وانظر الحديث كاملا فيه في باب التفسير ، في تفسير قوله تعالى : « لا يستوي القاعدون ... » من سورة النساء.

قال : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي » .

صفات الرسل والانبياء وعصمتهم :

قبل الخوض في بيان ما يجب في حق الرسل من الصفات وما يستحيل وما يجوز لا بدّ من توضيح لحقيقة الرسول وحقيقة النبي ، وذلك من خلال تعريف كل منهما ، وإليك بيان ذلك :

تعريف الرسول :

عرف الرسول بأنه : انسان ذكر حرّ أوحى الله تعالى إليه بشرع ، وأمره بتبليغه . وقد تبين من هذا التعريف أن الرسول يتصف بالصفات التالية :

أولاً : أن الرسول انسان بشر ، من لحم وعظم وأعصاب ودم ، قال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ أنما إلهكم إله واحد[1] » وقال تعالى : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده[2] ... » . وعلى هذا فهم تجري عليهم ما يجري على البشر من الأعراض البشرية ، شريطة أن لا تنقص من مراتبهم العلية ، كما سيأتي عند البحث في عصمة الأنبياء .

فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون وينامون ويمرضون ، ولا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه . قال الله تعالى في ذلك :

« وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق[3] » .

---

(١) الكهف : (١١٠) .
(٢) ابراهيم : (١١) .
(٣) الفرقان : (٢٠) .

وقال سبحانه : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب[1] » .

وقال سبحانه : « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون[2] » .

وقال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً[3] » .

والحكمة من كون الرسول انساناً بشراً فيه جميع غرائز البشر ومتطلباتهم ، أن يكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه وسلوكه حجة عليهم ، وأن يضرب بنفسه المثل على استطاعة البشر تطبيق ما أمرهم الله به ، وابتعادهم عما نهى عنه .

ثانياً : أنه ذكر فلا يجوز أن يكون أنثى ، وعلى هذا اجماع علماء المسلمين ، ولم يحدث أن أرسل الله تعالى رسولاً امرأة ، قال تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين[4] » . واشتراط الذكورة انما كان لأن الرسالة مهمة شاقة تتطلب الكفاح والسفر وخوض المعارك ، وتحمل المشاق ، والرجل أقدر على ذلك من المرأة .

ثالثاً : الحرية : فلا بد أن يكون الرسول حراً ، لأن العبودية مطعن يطعن به الكفار على الرسول ، ويعيرونه بها ، هذا بالاضافة الى أنها قيد لا يتفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها .

رابعاً : أنه أوحي اليه بشرع ، وقد مضى قريباً معنى الوحي وأنواعه .

---

(١) الانعام : (٥٠) .
(٢) الاعراف : (١٨٨) .
(٣) الجن : (٢٦ – ٢٧) .
(٤) الانبياء : (٧ – ٨) .

خامساً : أنه مأمور بتبليغ هذه الرسالة الى من أرسل اليهم . قال الله تعالى : « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين[1] » .

تعريف النبي :

عرف النبي بأنه : انسان أوحي اليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لم يؤمر . ولكنه اذا أمر بتبليغه ضم الى وصف النبوة وصف الرسالة فكان نبياً رسولا .

ومن تعريف النبي نجد أن تعريفه قريب من تعريف الرسول ، غير أن العلماء اختلفوا في معنى النبي في أمرين اثنين هما : هل يكون النبي أنثى ؟. وهل يكون النبي عبداً رقيقاً ؟ وفيما يلي نتحدث عن هذين الأمرين .

هل يكون النبي عبداً ؟ :

لقد مضى في بحث الرسول أن الإجماع قد وقع على أن الرسول لا يكون أنثى ، بل يشترط أن يكون ذكراً ، نظراً للمهمات التي تلقى على عاتق الرسول في التبليغ ، أما النبي فقد اختلف علماء العقيدة في ذلك .

فذهب بعض العلماء الى جوازه بل وقوعه ، فقد أوحي الى بعض من النساء ، منهن سارة زوج ابراهيم فقد قال الله في شأنها : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب[2] » .

ومنهن مريم بنت عمران فقد قال الله سبحانه في شأنها : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين[3] » .

---

(١) المائدة : (٦٧) .
(٢) هود : (٧١) .
(٣) آل عمران : (٤٢ — ٤٣) .

ومنهن أم موسى فقد قال الله في شأنها : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم[١] » .

فهذه الآيات فيها دلالات على أن بعضاً من النساء قد أوحي اليهن ، بل إن وحيه لمريم قد شمل التوجيه والتشريع والتشريف . ولا معنى للنبوة إلا هذا .

وممن ذهب الى نبوة مريم خاصة الامام القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » وأيد ما ذهب اليه بالأدلة[٢] .

وذهب الجمهور الى أن الأنثى لا تكون نبياً كما أنها لا تكون رسولاً ، فالذكورة شرط في كل من الرسالة والنبوة .

وقال هؤلاء : إننا نؤمن بأن هذا القدر من الوحي قد حصل لهؤلاء النساء اللواتي ذكرهن الله تعالى في كتابه الكريم ، ولكن لا يلزم من ذلك أن يكن نبيات ، لأن هذا غير كاف للانتظام في سلك النبوة ، فالوحي الى سارة والى أم موسى لم يكن فيه شيء من التشريع . هذا مع أن الوحي لهما كان نوعاً من الإلهام ، وهو قدر مشترك للناس كلهم ، بل يكون هذا الوحي للحيوان ، قال الله تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ... » .

وأما مريم وإن كان ما أوحي اليها فيه شيء من التشريع ، إلا أن الله سبحانه حينما امتدحها امتدحها بأنها صدّيقة ، ولو كانت نبية لكان الامتداح بأنها نبية أولى لما فيه من معنى التكريم والتشريف ، قال تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام[٣] » .

---

(١) القصص : (٧) .
(٢) انظر تفسير القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة يامريم ... » آل عمران : (٤٢) .
(٣) المائدة :

قال الامام سراج الدين علي بن عثمان الأوشي الفرغاني في منظومته « بدء الأمالي » :

وما كانت نبياً قطى أنثى　　　ولا عبد وشخص ذو فعال

أي ذو فعل قبيح .

هل يكون النبي عبداً ؟ :

مرّ في تعريف الرسول أنه من الواجب أن يتصف بالحرية ، فهل يشترط مثل ذلك في النبي ؟

ذهب بعض العلماء الى أن ذلك لا يشترط في النبي ، وعدوا من الأنبياء لقمان ، وممن عدّ من الأنبياء لقمان الشعبي وعكرمة .

وذهب الجمهور الى أنه يشترط في النبوة الحرية ، كما يشترط الذكورة ، وذهبوا الى أن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً . وقد نقل القرطبي حديثاً عن ابن عطية في ذلك فقال : « وروي من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه فمنّ عليه بالحكمة ، وخيره في أن يجعله يحكم بالحق ، فقال : رب إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء ، وإن عزمت علي فسمعاً وطاعة فانك ستعصمني » ذكره ابن عطية .

صفات الرسلين عليهم الصلاة والسلام :

الرسالة سفارة ، والرسول سفير بين لله وعباده ، أرسله الله تعالى ليقوم بأداء مهمة معينة ، وهي تبليغ شريعة الله ، وهداية الناس الى صراط الحق ، ولذلك لا بد أن يجتمع فيه من الصفات ما يؤهله للقيام بهذا الواجب . ولذلك اقتضت حكمته سبحانه أن يختص برسالته من يكون مستجمعاً للصفات التي تؤهله لحمل هذه الرسالة ، قال الله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته[1] » .

---

(1) الانعام : (١٢٤) .

وأهم الصفات التي يجب أن تتوافر فيهم بالاضافة الى الصفات التي ذكرت في تعريف الرسول الصفات التالية ، وهي ما يعبر عنه في كتب العقيدة بما يجب في حق الرسل :

أولا ـ الفطانة :

وهي التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم ، ونقض دعاويهم الباطلة ، وما اشتراط ذلك إلا لأن الرسول له مهمة علمية ومهمة تربوية ، ومهمة قيادية وسياسية ، فلا بدّ من أن يتحقق في حاملها من الاستعداد ما يؤهله للقيام بذلك .

وهذه الصفة هي صفة الفطانة ، وقد ورد في القرآن الكريم آيات تدل على أن الرسل كانوا على أعلى مستوى من الفطنة والذكاء وقوة الحجة ، من ذلك ما ورد في ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى بعد أن ساق الأدلة التي استدل بها ابراهيم على قومه : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم [1] » وتحدث القرآن الكريم عن جدال ابراهيم للنمروذ وانتصار ابراهيم عليه بالدليل والبرهان حينما كان يدعي النمروذ الربوبية ، قال الله تعالى : « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين [2] » .

وذكر القرآن الكريم حواره مع قومه بعد أن كسر الاصنام ، وإقامته البرهان على ضلالهم وانحرافهم وضعف عقولهم فيما كانوا يعبدون ، . قال تعالى : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم

---

(1) الانعام : (٨٣) .
(2) البقرة : (٢٥٨) .

وآباؤكم في ضلال مبين • قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين • قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين • وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين • فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون • قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين • قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم • قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون • قالوا أ أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم • قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون • فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون • قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون • قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين • قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم • وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين[1] » •

وقال الله سبحانه في شأن نوح : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » قالوا ذلك له بعد أن أقام عليهم الحجة وأسكتهم بالبرهان •

وقد أمر الله رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام بأن يجادل الكافرين ويقيم عليهم الحجة والبرهان ، قال الله تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين[2] » •

فمن كان مأموراً بأن يجادل ويقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان لا بدّ أن يكون متصفاً بالفطانة ليصح قيامه بذلك •

وبدهي أنه اذا وجب أن يتصف بالفطانة استحال أن يتصف بضدها ، وهي الغباوة والبلاهة والبلادة لأن النقيضين لا يجتمعان •

---

(١) الانبياء : (٥١ ــ ٧٠) .
(٢) النحل : (١٢٥) .

ثانيـــاً ــ الصدق :

الصدق هو مطابقة الكلام للواقع ، فالرســـل صادقون فيما أخبروا به عـــن الله ، لأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات ، فلو لم يكونوا صادقين للزم أن يكون الله كاذباً في تأييـــده إياهم بالمعجزات ، لأن المعجزة ــ كمـــا سيأتي ــ بمنزلـــة قولـــه تعالى : صدق عبدي فيما بلغ عني • وتصديق الكاذب كذب[1] •

ولقد ذكر الله سبحانه في آيات كثـــيرة اتصاف رسله بالصدق قـــال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين• حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرســـل معي بني اسرائيـــل[2] » •

وقال تعالى في محمد عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فان لله ما في السموات والارض وكان الله عليمـــاً حكيمـــا[3] » •

وقال أيضاً : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » •

وقال أيضا : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم قطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين[4] » •

هذا واذا أوجبنا الصدق في أخبارهم كان من المستحيل عليهم الكذب ، سواء أكان ذلك على الله أم على الناس •

ثالثـــاً ــ التبليـــغ :

المراد بالتبليغ إعلام الناس وإخبارهم بما أمروا بإبلاغهم إياه ، وعدم كتمـــان

---

(١) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة : (٧١) •
(٢) الاعراف : (١٠٤ ــ ١٠٥) •
(٣) النســاء : (١٧٠) •
(٤) الحاقــة : (٤٤ ــ ٤٧) •

شيء منه ، لأن مهمة الرسول إبلاغ الناس ما أنزل اليهم مـن عند الله تعالى ، فـان الرسول اذا لم يتصف بهذه الصفة بطل أن يكون رسولاً ، قال الله تعالى : « فهـل على الرسل إلا البلاغ المبين[1] » وقال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليـك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهـدي القوم الكافرين[2] » .

هـذا وفي الواقع أن الرسل قد قاموا بالتبليغ خير قيام ، ولم يكتموا شيئـاً ممـا أمرهم الله بتبليغه وقبلاً شهد القرآن الكريم لهم بذلك ، قـال الله تعـالى : « ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونـه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبـاً[3] » .

وقال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر عـلى غيبه أحداً . إلا من ارتضى مـن رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا[4] » .

هذا ولو أن رسولاً كتم شيئاً مما أمر بتبليغـه للناس ، لكان أحق النـاس بالكتمان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فيما لامه به وعاتبه عليه . وذلك كما في قصة ابن مكتوم حينما أعرض عنه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى معاتباً لـه : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . ومـا يدريك لعلـه يزكى . أو يذكر فتنفعـه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك أن لا يزكى . وأما مـن جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى » .

وكما في قصة زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة الذي قد كان رسول الله

---

(١) النحـل : (٣٥) .
(٢) المائـدة : (٦٧) .
(٣) الاحزاب : (٣٨ ـ ٣٩) .
(٤) الجـن : (٢٦ ـ ٢٨) .

تبناه في الجاهلية ، قال الله سبحانــه : « وتخفي في نفسك ما الله مبديــه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه[1] » .

روى مسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لو كــان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديــه ...» . وقال عمرو ابن مسعــود وعائشــة والحسن : « مــا أنزل الله عــلى رسولــه آية أشد مــن هــذه الآية[2] » .

رابعــا ــ الأمانــة :

الأمانة وهي ــ كما أوضحها الشيخ الباجوري ــ حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ، ولو نهي كراهة أو خــلاف الأولى ، فهم محفوظون ظاهراً من الزنــا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، ومحفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن .

والدليل على وجوب اتصافهم بالأمانة عليهم الصلاة والسلام ، أنهم لو خانــوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنا مأمورين باتباعهم فيه ، لأن الله قــد أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيــل ، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ولا خــلاف الأولى ، فلا تكون أفعالهم محرمــة ولا مكروهة ولا خلاف الأولى .

هذا ومما يدخل في وصف الأمانة عصمتهم عن المعاصي والمخالفات ، وسنفرد لعصمة الأنبياء والرسل بحثاً خاصاً إن شاء الله تعالى .

هذا وبدهي أيضا أنه اذا وجب في حقهم الأمانة استحــال عليهم ضدها وهي الخيانة بمفهومها الواسع .

---

(١) الاحزاب : (٣٧) .
(٢) انظر تفسير القرطبي : (١٨٩/١٤) .

خامساً ـ العصمة من الأمراض المنفرة أو ما يخل باداء رسالتهم :

كون الرسول رسولاً يستدعي أن يخالط الناس ويجتمع معهم ، ليهديهم سبيل الرشاد ، وليقودهم الى ما فيه الخير والسداد .

فكون الرسول يصاب بمرض منفر يتعارض مع مهمته التي أرسله الله من أجلها ، لذلك حمى الله رسله أن يصابوا بأحد الامراض المنفرة ، كالجذام والبرص وما يذكره أرباب القصص من أن أيوب ابتلي في جسده حتى أصبحت له رائحة كريهة تشم من مكان بعيد ، فهذا باطل لا أصل له[1] .

وكما يستحيل عليهم الامراض المنفرة يستحيل الجنون والإغماء الطويل ، لأن ذلك يخل بما وجب عليهم من أعمال الرسالة .

وأما السهو فانه يمتنع عليهم فيما يكون من الأخبار البلاغية وغير البلاغية وأما في الافعال غير البلاغية فجائز ذلك في حقه ، ولقد سها رسول الله ﷺ في صلاته الظهر أو العصر .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ احدى صلاتي العشي ، فصلى ركعتين ثم سلم فقام الى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان ، ووضع يده اليمنى على اليسرى ، وشبك بين أصابعه ، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى ، وخرجت السّرعان من أبواب المسجد فقالوا : قصرت الصلاة ؟ وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه ، وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين ، فقال : يا رسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس ولم تقصر ، فقال : أكما يقول ذو اليدين ، فقالوا نعم ، فتقدم فصلى ما ترك ثم سلم[1] ... » .

وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها قولية كانت أو فعلية ، وأما

---

(١) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة : (٧٣) .
(١) صحيح البخاري : وصحيح مسلم .

بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر ، على أن يكون الانساء من الله تعالى لا من أعمال الشيطان ، اذ ليس للشيطان على الرسل سبيل .

ومما يتصل بهذا الموضوع تأثر الأنبياء بالسحر . فقد ذهب جمهور العلماء الى جوازه بالمقدار الذي لا يخلّ بإداء رسالته ، فيكون ذلك كالمرض ، وقد ورد في الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام سحر وقد أثر السحر في جسده عليه الصلاة والسلام .

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيدين الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل اليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله .. » .

وقد كتب ابن حجر في فتح الباري كلاماً نفيساً في شرح هذا الحديث يبين فيه أن الذي أصاب رسول الله من السحر هو نوع من المرض ، ونسوق هنا بعضاً من هذا الكلام ، قال :

« قال المازري : أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث ، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ، قالوا : وكل ما أدى الى ذلك فهو باطل ، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع ، اذ يحتمل على هذا أن يخيل اليه أن يرى جبريل وليس هو ثم ، وأنه يوحى اليه بشيء ولم يوح اليه بشيء ، قال المازري : وهذا كله مردود ، لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى ، وعلى عصمته في التبليغ ، والمعجزات شاهدات بتصديقه ، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل ، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ، ولا كانت الرسالة من أجلها ، فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر ، كالامراض ، فغير بعيد أن يخيل اليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين ، قال : وقد قال بعض الناس إن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل اليه أنه وطىء زوجاته ولم يكن وطأهن ، وهذا كثيراً ما يقع تخيله للانسان في المنام ، فلا يبعد أنه يخيل اليه في اليقظة .

قلت : وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابـن عيينة في الباب الـذي يلي هذا ، ولفظه : حتى يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن .

ثم قال : قال عياض : يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء ، فاذا دنا من المرأة فتر عـن ذلك ، كما هو شأن المعقود .

ثم قال : ويؤيد جميع ما تقدم أنه لم ينقل عنه في خبر من الاخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به ،

ثم قال : واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث : أما أنا فقد شفاني الله ، وفي الاستدلال بذلك نظر ، لكن يؤيـد المدعى أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل : فكان يدور ولا يدري ما وجعه ، وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد : مرض النبي ﷺ وأخذ عن النساء والطعام والشراب ، فهبط عليه ملكان .. الحديث[1] » .

عصمة الرسل والانبياء :

لقد مرّ بنا أن من الصفات الواجبة للرسل والأنبياء « الأمانة » وقد بينا أن الأمانة هي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ، وهنا يتساءل الانسان هل من الممكن أن يقع الرسول أو النبي في معصية ، فان قلتم نعم فلا معنى لـذكر عصمة الأنبياء والرسل ، وان قلتم لا يقع ، فما هو تأويل المعاصي التي وقعت مـن الرسل والأنبياء كآدم وموسى وغيرهما من الأنبياء ؟.

والجواب على ذلك : أن حياة الرسل والأنبياء تنقسم الى فترتين :

الفترة الاولى : فترة ما بعد النبوة والرسالة .

---

(١) انظر فتح الباري : (١٠/١٧٧ فما بعدها) .

الفترة الثانية : فترة ما قبل النبوة والرسالة .

ولكل فترة من هاتين الفترتين حكم يخصها كما سنوضحه ان شاء الله . وكما أن حياة الرسل تنقسم الى فترتين ، كذلك المعاصي تنقسم الى نوعين :

١ ـ كبائر : وهي ما جاء على ارتكابها وعيد شديد كالزنا والربا ، أو رتب على فعلها حد" أو وصف صاحبها بالفسق ، أو لعن فاعلها ، وفي رأس هذه الكبائر الشرك بالله تعالى ،

ويضاف الى الكبائر في الحكم الصغائر التي فيها خسة تخل بالمروءة .

٢ ـ الصغائر : وهي الذنوب التي لم يرد على فعلها وعيد شديد .

أما الكبائر فقد أجمع العلماء على أنهم معصومون منها سواء أكان ذلك قبل النبوة أو بعدها ، وما يذكر من أن ابراهيم كان شاكاً في أول أمره ثم اهتدى عن طريق التأمل والتفكير فليس بصحيح ، بل إنه نشأ مؤمناً بالله منذ طفولته ، وما كان منه من قوله للكوكب هذا ربي وللقمر كذلك ، وللشمس كذلك فانما هو من قبيل التسليم الجدلي لإقامة الحجة على الخصم ، وإليك النص القرآني الذي يتحدث عن ذلك . قال تعالى :

« وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن" من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأي

الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون • الذين آمنــوا ولم يلبسوا إيمانهــم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون • وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » •

ففي قوله تعالى : « وتلك حجتنا ••• » إشارة الى أن هذا الاسلوب كـان من أجل إقامة البرهان على قومه •

وأما ما يذكر في شأن داود مــن أنه رأى زوجــة قائد له فعشقهــا ورغب في زواجها ، فأخذ يرسل زوجها في البعوث ليقتل كي يتزوج زوجته من بعــده فجاءه ملكان في صورة رجلين ينبهانه على عظيم ذنبه ، وذلك ما قصــه الله علينا بقــوله : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب • إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنــا على بعض فاحكم بيننا بالحــق ولا تشطط واهدنــا الى سواء الصراط • إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجــة ولي نعجة واحــدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ••• » فقصة باطلة مختلقة لا تليق بمن هو من سوقــة الناس ، فما بالك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام •

هذا وقد ردّ الامام الفخر الرازي في تفسيره هــذه القصة من عدة وجــوه وبيّن أن النص القرآني نزل في رجلين نزلا عليه وهمّا بقتله ، ثم أعرضوا عن ذلك عندما رأوا عنده جماعة ، واختلقوا هذا السؤال ستراً لفعلتهم فاستغفر لسوء ظنــه بهم أو لغير ذلك أو إنه نزل في رجلين سألاه عن هذا السؤال ، وكانت مؤاخــذة الله إيــاه من حيث إنه سارع الى الاجابة قبل السماع من الطرف الآخر ، وهناك أمور أخرى ذكرها الامام الفخر رحمه الله •

المعجزة :

١ ـ حقيقة المعجزة :

لقد علمنا من القصص القرآني ومما تحدث به التاريخ أن كل أمة جاء فيهــا رسول يدّعي أنه مرسل من قبل الله اليهم ، كانت تطلب منــه أن يأتي ببرهان يدل على صدقه فيما يدعي ، ومن حق هذه الأمة أن تطلب هذا البرهان ، ان لم يحصل

لها العلم بنبوته من طريق آخر ، وذلك للتثبت من صحة نبوته وصدقه فيما يدعي • ففي قصة موسى مع فرعون قال الله تعالى : « وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين • حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل • قال إن كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين[1] » • وقال الله في شأن قوم صالح : « ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين[2] » •

فكان الله جلت قدرته وحكمته يؤيد رسله بالبرهان على شكل معجزة ، سواء أكان ذلك مما طلبوه ، أو من غير ذلك •

ولكن الله جلت حكمته كان يأتي بالمعجزة في ظاهرها من النوع الذي برع فيه هؤلاء القوم الذين جاءت اليهم المعجزة غالبا ، حتى يتحقق الإعجاز •

فقوم موسى عليه السلام برعوا بالسحر وما شاكله ، فأيد الله موسى بقلب العصا حية ، وبإخراج يده من جيبه فاذا هي بيضاء من غير سوء •

وفي عهد عيسى عليه السلام برع الناس في الطب والعلاج ، فأيده الله سبحانه بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذنه ، ويصنع الطير من الطين ، فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله •

وكان قوم نبينا الذين أرسل اليهم أول الأمر قد بلغوا في الفصاحة والبلاغة ما لم يبلغه غيرهم ، فكانوا أئمة القول وفرسان الفصاحة والبلاغة فكانت معجزة الرسول العظمى هي القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم ، وتحداهم أن يأتوا بما يماثله فصاحة وبلاغة فعجزوا عن ذلك ، وأقروا بعجزهم وضعفهم عن مجاراته ، ولو في أقصر سورة من سوره • ومن هنا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما من

---

(١) الاعراف : (١٠٤ ـ ١٠٦) •
(٢) الشعراء : (١٥٤) •

الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[1] » •

وبعد فما هي حقيقة المعجزة ؟

تعريف المعجزة :

المعجزة هي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد أحـد أنبيائه ، وهو منزل منزلة قوله تعالى : صدق عبدي فيما يبلغ عني • ومن خلال هذا التعريف ندرك أن المعجزات لا تتعلق بالمستحيلات العقلية كالجمع بين النقيضين ، أو كوضع الجرم الكبير في الجرم الصغير ، مع بقاء الكبير كبيراً والصغير صغيراً وما أشبهذلك•

فالمعجزات أمور ممكنة عقـلاً ، ولكن العادة جرت على خلافهـا ، فتكون المعجزة خرقاً لهذه العـادة •

الحكمة من المعجزة :

١ً ــ اثبات صدق مدعي النبوة : وذلك أنـه سبحانه حينما يجري هـذه المعجزات على أيدي رسله ، انما يجريهـا باعتبار أن الشواهـد المادية والمعنويـة الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته ، تضع الباحث عـن الحق أمام البرهان الواضح ، الدال على صدق الرسول في دعواه الرسالة •

وذلك لأن الذين يتحداهم الرسـول بالمعجزة لا يستطيعون الإتيـان بمثلها منفردين أو مجتمعين ، في حدود قدراتهم الممنوحة لهم بحسب مستواهم •

٢ً ــ تكريم الرسول : فهي الى جانب ما تحمله من كونها دليلاً على صدقـه فيما يدعيه من الرسالة ، فقد تكون تكريماً له ، كما هي الحـال في معجزة الإسراء

---

(١) اخرجه البخاري في فضائل القرآن ومسلم في باب الايمان واللفظ له .

والمعراج فانها قد وقعت بعد أن اشتد أذى قومه لـه ، ومات عمه أبو طالب وكـان يدافع عنه ، وماتت زوجه خديجة وكانت تشد من أزره ، وتساعـده بما تستطيع ، وبعد أن ذهب الى الطائف يدعو الى الايمان ، فردّه أهلها أشنع ردّ كما هو مذكور في السيرة ، فأراد الله أن يكرمه ، فعرج بـه الى الملكوت الأعلى ليرى مـن آيات ربـه الكبرى .

٣ً ــ تنبيه الغافلين من الكافرين : فتكون المعجزة أشبه شيء بالهزة العنيفـة التي توقظ النائم من سباته ، ليفتح عينيه ويعي ما حوله ، ومن هذا النوع ما ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة من قصة الإراشي ، حين جاء يسأل أبا جهـل حقاً له عنده ، فدلّه كبراء قريش على محمد ﷺ ليستنقذ له حقه ــ وذلك استهزاء بمحمد عليـه الصلاة والسلام ، فرافقه رسول الله الى دار أبي جهل فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ فقال : محمد فاخرج اليّ ، قال فخرج اليه وما في وجهه رائحة ، قـد انتقع لونه ، فقال له : أعط هذا الرجل حقه ، قال أبو جهـل : نعم لا تبرح حتى أعطيـه الذي له ، فدخل فخرج اليه بحقه ، فدفعه اليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وقال للإراشي : الحق بشأنك ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد ــ والله ــ أخذ لي الذي لي ، فلما جاءهم أبو جهـل قالوا له : ويلك مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال : ويحكم والله إن هو إلا ضرب البـاب وسمعت صوته فملئت رعبا ، فخرجت اليه وإن فوق رأسه لفحـلاً مـن الإبل ، ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلني[1] .

هذه المعجزة تنبيه لأبي جهل وأقرانه ، لعلهم ينتبهون مـن غفلتهم ، فيتبعون الـذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام .

حكم الايمان بها : يجب على المسلم أن يعتقد أن الله عزّ وجل قد أيدّ أنبياءه ورسله الذين أرسلهم الى الناس بمعجزات تبين صدقهم في دعوتهم وتوضح للناس ارتباطهم بالله جل جلاله ، وأنهم مؤيدون منه سبحانه .

---

(١) دلائل النبوة : (٦٧ ــ ٦٨) والقصرة اصل العنق .

ومنكر المعجزة الثابتة بالدليل اليقيني من قرآن أو سنة ليس بمؤمن إذ إنه أنكر ما دل عليه الدليل القطعي ، وأما اذا أنكر معجزة معينة لم تثبت بدليل قاطع فلا نحكم عليه بالخروج عن الايمان ، وسنتحدث عن هذا ان شاء الله عند الكلام على طريق ثبوت المعجزات .

نماذج من المعجزات التي وقعت للرسل السابقين :

١ ــ طوفان نوح :

بعث الله سيدنا نوحاً الى قومه يدعوهم الى عبادة الله وحده ، ونبذ ما كانوا يعبدون من الاصنام ، ولبث يدعوهم تسعماية وخمسين عاما ، كما قال الله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً[1] » فلم يؤمن به إلا القليل طيلة هذه المدة الطويلة ، وكان قومه يستهزئون به ويؤذونه ، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ولما يئس من استجابتهم دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً[2] » فأمره سبحانه أن يصنع سفينة ليحمل فيها من قد آمن ، وأصناف الحيوانات ، ثم أرسل عليهم الطوفان ، فلم ينج منهم إلا من حمله نوح في السفينة ، ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الحادثة بأروع بيان ، وأبلغ تصوير فقال سبحانه في سورة هود :

« ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه

---

(١) العنكبوت : (١٤) .
(٢) نوح : (٢٦ ــ ٢٧) .

مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون • ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون • ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين • قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين • قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين • ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون • أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون • وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون • واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون • ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون • فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم • حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا القليل • وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم • وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين • قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين • وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين • ونادى نوح ربه فقال ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين • قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين • قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين • قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم • تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين[1] » •

---

(١) هود : (٢٥ — ٤٩) .

٢ ـ عدم احراق النار ابراهيم عليه السلام :

ابراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، وقد أرسله الله الى قوم يعبدون الأصنام والكواكب ، وكان على القوم ملك ظالم ، فناقشه ابراهيم وأقام عليه الحجة ، قال الله تعالى : « ألم تر الى الذي حاجّ ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين[١] » .

ولقد حكى الله سبحانه قصته مع قومه ، وكيف أنقذه الله سبحانه من النار فقال عزّ من قائل :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا أباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين[٢] » .

---

(١) البقرة : (٢٥٨) .
(٢) الأنبياء : (٥١ ـ ٧٠) .

والمعجزة في ذلك أن النار سبب للإحراق عند ملاقاتها الأجسام ، ولكن الله حفظ جسم ابراهيم فلم تؤثر فيه النار ، خرقاً للعادة .

٣ ـ ناقة صالح :

أرسل الله صالحاً الى قومه ثمود ليهديهم الى الله تعالى وعبادته وحده ، فلم يتبعه منهم إلا قليل ، وطلبوا منه دليلاً على أنه رسول من عند الله ، والدليل هو أن تخرج لهم ناقة من صخرة عينوها ، فدعا صالح ربه فاستجاب له ، وأخرج لهم من الصخرة ناقة ، ولكنهم بدلا من أن يؤمنوا عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فعاقبهم الله على ما اقترفوه من ذنب بالصيحة فأصبحوا هالكين ، وفي ذلك يقول الله عزّ وجل :

« والى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين[1] » .

ووجه الإعجاز في ذلك أنه لم تجر العادة بخروج ناقة من الصخرة ، وإن كان ذلك داخلاً ضمن قدرة الله تعالى ، فخروج الناقة من الصخرة أمر خارق للعادة أجراه الله جلت قدرته على يد الرسول صالح عليه السلام .

---

(١) الاعراف : (٧٣ ـ ٧٩) .

معجزات سيدنا موسى عليه السلام :

أولا : معجزة اليد ، فكان سيدنا موسى يدخل يده في جيبه ثم يخرجها فاذا هي بيضاء للناظرين من غير أن يكون بياضها عن مرض ، ولقد ذكر الله سبحانه هذه المعجزة في غير موضع من القرآن الكريم ، ولقد قال الله تعالى : « وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين[1] » .

ثانيا : معجزة العصا . فكان لموسى في عصاه ثلاث معجزات أجراها الله سبحانه على يديه :

الاولى : قلب العصا حية ، وذلك عندما اجتمع السحرة ، وألقوا حبالهم وعصيهم وخيل للناس من سحرهم أنها تسعى ، فأمر الله سيدنا موسى عليه السلام بأن يلقي عصاه ، فألقاها فاذا هي تلقف ما يأفكون . ولقد ذكر الله سبحانه هذه المعجزة في غير ما موضع من القرآن الكريم ، قال الله تعالى في سورة طه : « قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف انك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى[2] » .

الثانية : انفلاق البحر ، وذلك عندما خرج موسى عليه السلام وقومه من مصر ، وأدركهم فرعون عند البحر ، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه ، ففعل ذلك فانفلق البحر ومشى فيه موسى بمن معه ، وتبعهم فرعون فأغرقه الله في البحر هو وقومه ، وفي ذلك يقول الله جل جلاله : « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي

---

(١) النمل : (١٢) .
(٢) طه : (٦٥ ــ ٧٠) .

انكم متبعون • فأرسل فرعون في المدائن حاشرين • انّ هؤلاء لشرذمة قليلون • وانهم لنا لغائظون • وانا لجميع حاذرون • فأخرجناهم من جنات وعيون • وكنوز ومقام كريم • وكذلك وأورثناها بني اسرائيل • فأتبعوهم مشرقين • فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون • قال كلا ان معي ربي سيهدين • فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم • وأزلفنا ثم الآخرين • وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين • ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز الرحيم[1] » •

الثالثة : تفجر الماء من الحجر ، وذلك عندما كان موسى مع بني اسرائيل في التيه ، ونفد الماء الذي معهم ، فأمره الله بأن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً على عدد الأسباط ، قال الله تعالى :

« وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم[2] » •

معجزات عيسى عليه السلام :

لقد ثبت لسيدنا عيسى عليه السلام معجزات كثيرة ذكرها القرآن الكريم :

أولا : كان يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله •

ثانيا : إبراء الأكمه والأبرص باذن الله من غير تناول دواء •

ثالثا : إحياء الموتى باذن الله تعالى ، وقد ذكر الله ذلك جميعاً في سورة المائدة فقال سبحانه : « اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة

---

(١) الشعراء : (٥٢ ــ ٦٨) .
(٢) الاعراف : (١٦٠) .

والتوراة والإنجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني واذ تخرج الموتى بإذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين[1] » .

رابعا : الإخبار بالمغيبات ، فكان يخبر قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، قال الله تعالى : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولا الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين[2] » .

خامسا : رفع الله إياه الى السماء : وذلك عندما أراد اليهود قتله فأنقذه الله منهم ورفعه اليه ، قال الله تعالى : « اذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك اليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم اليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون[3] » ومعنى متوفيك هنا آخذك اليّ وافياً روحاً وجسداً وليس معناها مأخوذاً من الوفاة بمعنى الموت .

وقال سبحانه رداً على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى عليه السلام : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما[4] » .

---

(1) المائدة : (١١٠) .
(2) آل عمران : (٤٨ ـ ٤٩) .
(3) آل عمران : (٥٥) .
(4) النساء : (١٥٦ ـ ١٥٨) .

فسيدنا عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ، بل رفعه الله اليـه ، وقد دلت الأخبار الصحيحة على أنه سوف ينزل في آخر الزمان ، ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ ، ويكون نزوله من أشراط الساعة ، ففي صحيح مسلم والبخاري أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ويضع الجزيـة : يعني يبطلهـا لذهاب موجبها بالاسلام .

معجزات نبينـا محمد عليه الصلاة والسلام :

لا نعلم أحداً من الأنبياء قد أجرى الله على يديه من المعجزات عـدد ما أجراه على يد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكر الامام النووي في مقدمة شرح صحيح مسلم أن معجزات الرسول محمد عليه الصلاة والسلام تزيد على ألف ومائتي معجزة ، وقال البيهقي في المدخل : بلغت معجزات محمد عليه الصلاة والسلام ألفاً ، وقد جمعهـا البيهقي في كتابـه « دلائل النبوة » والحـافظ أبو نعيم في كتابـه « دلائل النبوة » .

واليك بيان أشهر هذه المعجزات :

اولا ــ القرآن الكريم :

وهو المعجزة الأبدية الخالـدة ، التي تحـدى بهـا العالم من إنس وجن ، وقـديم وحديث الى يـوم القيامة ، قـال الله تعالى : « قـل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتـوا بمثل هـذا القرآن لا يأتـون بمثله ولـو كان بعضهـم لبعض ظهيرا[1] » .

---

(١) الاسراء : (٨٨) .

وانما كان هذا القرآن معجزة خالدة ، لأن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسالات السماوية ، فمن الضروري أن يكون هناك معجزة خالدة لتكون دليلاً على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ما بقي الدهر ، ألا وهي القرآن الكريم .

وانما كانت معجزات الرسل السابقين آنية ، لأن رسالتهم آنية تنتهي بمجيء الرسول الذي يأتي من بعدهم الى أولئك القوم ، حتى جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام التي هي خاتمة الشرائع وأتمها وأكملها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين ، فلا نبي بعده « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا[1] » « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما[2] » .

وسنتكلم عن معجزة القرآن الكريم عندما نتحدث عن إعجاز القرآن ووجوه إعجازه ان شاء الله تعالى .

ثانيا ـ إنشقاق القمر :

سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يأتيهم بمعجزة تثبت صدقه فيما يدعي من أنه رسول الله اليهم ، فأجرى الله على يده معجزة انشقاق القمر .

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين حين أشار اليه ، فقال : اشهدوا اشهدوا . فقال كفار قريش سحركم ابن أبي كبشة يعنون النبي ﷺ ، فقال رجل لهم : إن كان سحر القمر فانه لا يبلغ من سحره أن يسحر الارض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوه ؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك ،

---

(١) المائدة

(٢) الاحزاب : (٤٠) .

فقالوا : هذا سحر مستمر ، فأنزل الله قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر[1] » .

ثالثا ـ نبع الماء من بين اصابعه ﷺ :

إن حادثة تكثير الماء قد تعدد وقوعها منه عليه الصلاة والسلام ، فتارة تكون بوضع يده في ركوة الماء ، وتارة تكون بمج الماء في البئر ، أو بغرس رمح أو نحوه في إناء ، وقد حدث هذا في الحضر في المدينة ، كما حدث في السفر في الحديبية وغيرها ، وروى ذلك الجمع الغفير من المسلمين ، كأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وجندب بن ناجية .

قال القرطبي رحمه الله : قضية نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة ، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي .

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس نحوه ، فقال : ما بالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا من بين يديك ، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور من بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة[1] » .

رابعا ـ تكثير الطعام :

ومن المعجزات التي جرت على يد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وألحقت بما ثبت عنه قطعاً تكثير الطعام القليل ، بحيث يأكل منه العدد الوفير من الناس فيكفيهم ، وقد حدث ذلك مرات كثيرة منه عليه الصلاة والسلام ، وروى ذلك لنا

---

(١) القمر : (١ ـ ٢) .

(٢) انظر البخاري كتاب المناقب ، وصحيح مسلم كتاب الزهد وغيرهما .

العدد الوفير عن العدد الوفير ، وممن روى ذلك من الصحابة علي بـن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وأبو سعيد الخدري ، وجابر بن عبد الله ، وأبو أيوب الانصاري ، وسمرة بن جندب .

ومن جملة الحوادث التي نقلت في ذلك ما رواه البخاري عـن أنس بن مالك قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت الرسول ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ قالت نعم ، فأخرجت أقراصاً من شعير ، ثم أخرجت خماراً فلفت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدي ، ولاثتني ببعضه ، ثم أرسلتني الى رسول الله ﷺ ، قال : فذهبت به فوجدته ﷺ في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم فقال لي رسول الله ﷺ : أرسلك أبو طلحة ؟ فقلت : نعم ، قال : بطعام ؟ قلت : نعم ، فقال ﷺ لمن معه : قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ، فأقبل رسول الله وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ﷺ : هلمي يا أم سليم ماعندك ، فأتت بذلك الخبز فأمر رسول الله ففتّ ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته ، فقال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا[1] » .

وتكثير الطعام القليل حتى يكفي العشرات من الناس أمر خارق للعادة ، شاهد على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

خامسا ــ حنين الجذع إليه عليه الصلاة والسلام :

روى البخاري عن أنس بن مالك أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : « كان

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب .

المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ، فكان النبي ﷺ اذا خطب يقوم الى جذع منها ، فلما صنع له المنبر وكان عليه ، فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت[1] » .

سادسا : إخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات ووقوعها كما اخبر :

العلم بالغيب خاص بالله سبحانه ، ولا يطلع عليه بذاته إلا هو سبحانه ، إلا أنه سبحانه قد يطلع بعضاً من رسله على بعض من الغيب ، فيعلم ذلك باطلاع الله إياه على ذلك لا بذاته ، قال الله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من يديه ومن خلفه رصدا[2] » .

ولقد أطلع الله جل جلاله رسوله محمداً على أمور من الغيب فكانت تقع كما أخبر ، وجعل ذلك دليلا على صدقه فيما يدعيه من الرسالة ، وقد تواترت الأخبار بذلك عنه عليه الصلاة والسلام بما لا يدع مجالا للشك في ذلك .

فمن ذلك إخباره بذهاب ملك كسرى وقيصر على يد المسلمين ، فقد روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » . وفي رواية : « ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله وقد وقع ذلك كما أخبر .

ومن ذلك : ما أخبر به رسول الله ﷺ سراقة بن مالك عندما اتبعه في الهجرة ، بأنه إن عمّى خبره فسيلبسه الله سواري كسرى . وقد لبسهما سراقة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتحت فارس[3] .

ومن ذلك : ما أخبر به رسول الله ﷺ من أن الحسن بن علي رضي الله عنهما سيكون سبباً في القضاء على فتنة تقع بين المسلمين ، وواسطة لحقن دمائهم .

---

(١) انظر المصدر السابق .
(٢) الجن : (٢٦ ــ ٢٧) .
(٣) انظر السيرة الحلبية : (٢/ ٥٩ ــ ٦٠) .

روى البخاري وغيره عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : أخرج النبي ذات يوم الحسن ، فصعد المنبر فقال : « ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين[1] » وقد حدث ذلك أيام معاوية عندما تنازل عن طلب الخلافة ، وحقن بذلك دماء المسلمين .

ومن ذلك : ما أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله ابن رواحة فأصيب ، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح عليه ، وما يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا ، وقال : وإن عينيه لتذرفان[2] » وكان ذلك في غزوة مؤتة ، فأخبر الرسول بذلك قبل أن يأتيه خبرهم ، وقد كان رسول الله ﷺ قد أمر زيداً فان أصيب فجعفر فان أصيب فعبد الله بن رواحة .

ومن ذلك : إخباره بأن الاسلام سيعلو ، وأن رقعته ستمتد ، وأن نظامه سيسود ، وأن الأمن في ظله سينتشر .

روى البخاري عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال : « كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يعيده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يعيده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون[1] » .

وروى البخاري أيضاً عن عدي بن حاتم قال : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب .
(٢) البخاري كتاب الجهاد .
(٣) البخاري في المناقب .

اليه رجل فشكا اليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال : فان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعّار طيء قد سعروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث اليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالا وأفضّل عليك ؟ فيقول : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدي : سمعت النبي ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشقة تمرة ، فمن لم يجد شقة تمرة فبكلمة طيبة ، قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه[2] » .

هذه جملة يسيرة مما أخبر به ووقع كما أخبر ، وكل ذلك دليل على صدقه في دعوى الرسالة .

سابعا ـ الإسراء والمعراج :

الإسراء : هو الذهاب ليلاً برسول الله ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى .

والمعراج : هو الصعود برسول الله ﷺ الى السموات العلا فما فوقها . وقد ثبت الإسراء بالآية القرآنية في أول سورة الاسراء : « سبحان من أسرى بعبده

---

(١) المصدر السابق .

ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » •

وقد ثبت المعراج بالاحاديث التي بلغت مبلغ التواتر مما تراه في البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث • وأشار القرآن الكريم الى ذلك في سورة النجم•

وذهب جماهير السلف والخلف الى أن الاسراء والمعراج كانا بجسده عليه الصلاة والسلام وروحه ، واستدلوا على ذلك :

١ ــ بقوله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده » • ووجه الاستدلال أن الظاهر في قوله : « سبحان الذي أسرى بعبده » أنه بروحه وجسده ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة الى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة ، وليس في الاسراء بجسده يقظة استحالة ، لأن الأمر منوط بقدرة الله تعالى ، ولو كان هذا الأمر في المنام لقال : « سبحان الذي أسرى بروح عبده » •

٢ ــ بقوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » فهذا دليل على أن المعراج كان بالروح والجسد يقظة لا مناما •

٣ ــ أن الاسراء والمعراج لو كانا في المنام ، لما كان فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه ، ولا ارتد الضعفاء ممن أسلم ، ولما افتتنوا في ذلك ، لأن مثل هذا في المنام لا ينكر ، إذ إنه قد يقع هذا لبعض الناس •

هذا ولقد كانت تذهب السيدة عائشة الى أن ذلك كان في المنام وتقول : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ •

وما قالته عائشة رضي الله عنها لا ينهض دليلاً على ما ذهب اليه الجمهور ، لأن حادثة الاسراء والمعراج كانت في مكة قبل الهجرة ، والرسول عليه الصلاة والسلام دخل بعائشة في المدينة المنورة بعد الهجرة ، فما نفته هو غير ما أثبته الجمهور[1] •

---

(١) انظر فتح الباري : (١٣٩/٧ فما بعدها) .

طرق ثبوت المعجزة وحكم الايمـان بها :

بعد أن تحدثنا عن معجزات الرسل بوجه عام ، وعن معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام بوجه خاص ، لسائل أن يسأل : ما الطرق التي تثبت بها المعجزة حتى يحصل التصديق بوقوعها ؟.

اعلم أن هناك معجزات أخذ الناس يتناقلونها فيما بينهم ، من غير نظر الى الطريق التي وصلت الينا هذه المعجزة بها ، حتى اختلط صحيح المعجزات بباطلها ، وصادقها بكاذبها ، مما جعل بعض الناس يقدمون على انكار المعجزات من حيث هي ، نظراً لما وقع فيها من الخلط والتدجيل والكذب .

والحق أن هناك معجزات ثابتة لا يسع المؤمن إنكارها ، واليك بيان الطرق التي تثبت بها المعجزة :

تثبت المعجزة إما بالمشاهدة أو الخبر الصادق .

أولا ــ أما ثبوتها بالمشاهدة ، فهو خاص بمن عاصر المعجزة وحدثت أمامه ، فمن شاهد انشقاق القمر بأم عينه وحنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، علم علماً لا شك فيه أن هذا قد وقع فعلا .

ثانيا ــ ثبوتها بالخبر الصادق : المعجزات التي أتى بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، والتي أتى بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ما عدا القرآن الكريم ، فانما طريق ثبوتها الخبر الصادق ، لأنها كانت معجزات آنية ، حدثت وانقضت ، ولا سبيل لاثباتها إلا الخبر الصادق .

والخبر الصادق قسمان :

أحدهما : الخبر المتواتر وقد مرّ تعريفه ، وهذا يكون في الخبر الوارد في القرآن الكريم ، والحديث المتواتر الذي ثبت نقله عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن معجزات : كانفلاق البحر عندما ضربه موسى بعصاه ، وانقلاب العصا حيـة ، وخروج ناقة صالح مـن الصخرة مما تحـدثنا عنه سابقا ، وسقنا أدلته من القر آن الكريم ، وكذلك تحدثت السنة المطهرة المتـواترة عن معجزات لنبينا عليه الصلاة والسلام ، كتكثير الطعام ، ونبع الماء من بين أصابعه عليه الصلاة والسلام . إن قلنا إن هذا متواتر .

ثانيهما : الخبر الصـادق الآتي عن طريق لم يصـل الى حدّ التـواتر ، وهو ما يسمى بخبر الآحاد . وذلك كحنين الجذع وما أشبه ذلك .

وهذا النوع من المعجزات يقبل ، ولكن في درجة أدنى من القسم الاول .

حكم الايمـان بالمعجزات :

أولا : الايمان بثبوت المعجزات من حيث هي واجب ، ومنكر المعجزات كافر ، لأن المعجزة مـن حيث هي ثابتـة بالأدلة القطعيـة ، وحسبك أن القرآن تحـدث عـن ذلك .

ثانيا : الايمان بمعجزة بعينهـا إن كانت ثابتة بدليـل قطعي كالقرآن الكريم والسنة المتواترة فهو واجب ، وحكم منكرها كحكم منكر المعجزة من حيث هي ، وإن كانت ثابتة بدليل ظني كأحاديث الآحـاد فالايمان بهـا واجب أيضا ، إلا أنه لا يكفر جاحدهـا بل يفسـق إن كـان الحـديث مشهـورا ، ويعزر إن كـان الحديث صحيحـا .

وفي ذلك يقول الامام الباجوري : « واعلم أن ما كان منهـا معلوما بالقطـع منقولا بالتواتر ، كالقرآن فلا شك في كفر منكره ، ومـا لم يكن منها كـذلك فان أشتهر كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، فسـق منكره وإن لم يشتهر وثبت بطريـق

صحيح أو حسن عزز منكره[1] » .

شروط المعجزة :

وليكون الأمر الخارق للعادة معجزة ، لا بد من أن تتحقق الأمور التالية :

الاول : أن يتحقق كونها من الأمور الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته ، وأن من تجري على يده هــذه المعجزة ، لا يتمكن بصفته البشرية بالغـاً ما بلغت به القدرة الجسمية أو الروحانية ، لايتمكن من فعلها أو القيام بمثلها بحسب المعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته ، لولا أن الخالق العظيم أجراها على يديه ، تأييدا له في أنه رسول صادق فيما ينقل عن ربه .

الثاني : التحدي ، وذلك أن يتحــدى بها الرسول مــن تناولتهم دعوتــه ، وشملتهم رسالته ، وذلك بأن يطلب منهم أن يأتوا بمثله ، مع توفر الوسائل لديهم وازالة الموانع ، ووجود المقتضي .

الثالث : أن تكون على يد من يدعي النبوة أو الرسالة ، وأما اذا ظهرت عــلى يد عبد لله صالح من غير دعوى النبوة فهي « الكرامة » . وأما اذا ظهرت عــلى يد واحد من عوامّ الناس تخليصا له من شدة فهي « المعونة » .

وأما اذا ظهرت على يد فاسق خديعة له ومكراً به فهي « الاستدراج » .

وأما اذا ظهرت على يده تكذيباً لــه فهي « الإهانة » كمـا قيل انه قد وقــع لمسيلمة الكذاب من أنه تفل في عين أعور لتبرأ فعميت الصحيحة .

الرابع : أن تكون مقرونة بدعوى النبوة ، والرسالة ، حقيقية أو حكما ، بأن

(١) تحفة المريد : (٨١) .

تأخرت بزمـــن يسير ، وأما اذا وقعت قبـــل النبوة أو الرسالـــة تأسيساً لهـــا فهي « الإرهاص » كما وقع من تظليل الغمام له عليه الصلاة والسلام قبل البعثة .

الخامس : أن تكون موافقة للدعوى ، وأمـــا اذا كانت مخالفة لهـــا فليست بالمعجزة ، وذلك كأن يقول : الدليل على صدقي في انفلاق البحر ، فانفلق الجبل .

السادس : أن لا تكون مكذبة له ، فخرج ما اذا قال : آية صدقي نطق هـــذا الجمـــاد ، فنطق الجماد قائلا بأن هذا المدعي كذاب .

السابع : أن تتعذر معارضته ، فخرج بذلك السحر والشعبذة وما الى ذلك[1] وهذا ما يعبر به تارة بقولهم : أن تعجز الأمة وجميع البشر عن المعارضة بمثلها على الصورة الخارقة .

موقف العلم من المعجزة :

لقد مرّ بنا في مبحث قانون السببية أن الرابط بين الاسباب والمتسببات ليست رابطة عقلية ، يحيل العقل تخلفها ، بل ان الرابطة رابطة عادية ، تكرر فيها وجـــود المسبب عند وجـــود السبب ، فنظم العقل قاعـــدة هي أن المسببات توجد عندمـــا توجد أسبابهـــا .

ولقد دعى العقل الى هذا دوام الإلف لذلك ، وعدم التخلف ، فالشمس كـــل يوم تطلع من المشرق وتفيض على العالم النور ، فأخذ العلم قانونا يقـــول فيه : ان الشمس باستمرار تطلع من المشرق ، ولكن لو محصنا هذا الكلام تمحيصاً علميـــاً دقيقاً لرأينا أن هذا الحكم ليس بقانون عقلي لا يصح مخالفتـــه ، بل الذي دعانـــا الى ذلك هو الإلف والاستمرار وعدم التخلف .

هذا ولقد مرّ بك أن المعجزة هي أمر خارق للعادة يجريـــه الله على يد أحـــد

---

(١) انظر تحفة المريد : (٧٨) .

أنبيائه ، فالمعجزة ليست أمراً خارقاً للأمــور العقلية ، كما انهــا ليست من صنـــع الانسان الرسول ، بل هي من صنع الله سبحانه وتعالى ،

والله الذي آمنا بوجوده وقدرته ، وأنه خالق لكل شيء ، وأنه خالق الاسباب والمسببات ، وهو وحده الذي ربط بينها ، وأوجد المسببات عند وجــود أسبابها ، فالإله الذي هذا شأنه قادر أن يفــك الاسباب عن مسبباتها ، فيوجــد الاسبــاب ولا تترتب عليها مسبباتها ، ويوجد المسببات من غير أن تسبقها أسبابها . وإلا لكان لنظام السببية قدرة حاكمة على الإلــه نفسه ، فلا يمكن لــه أن يخالفها بحــال . فالترابط إذاً ترابط عادي لا عقلي ، وفي هذا يقول الفيلسوف مالبرانش :

« إنما نرى نحن توالي الحادثات ولا نرى الرابطة التي تربط أحد الطرفــين بالآخر ، فلماذا تبقى هذه الرابطة مستخفية عنا ؟ لكونها شيئا إلهيا لا يوجد مثــله في المخلوقــات[1] » .

وقال أميــل سسه :

« إن العلم مع كونه ترقى كثيراً في مطالعــة الطبيعة ، لم يثبت في وقت مــن الاوقات أن القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية » يعني أنها ليست مستحيلة التغــير[1] .

وقال لينبتز : « ليست القوانين الطبيعية عنديــة محضة كمــا ادعى « بايل » ولا ضرورية بالضرورة الهندسية » .

وقال الرياضي الشهير « هانري بووانكاريه » في كتابه « الفرضية والعلم » : « القانون التجريبي عرضــة دائمــا للتصحيح فهو لا يزال يتوقــع تبديله بقانــون أقوى منــه » .

---

(١) موقف العقل والعلم لمصطفى صبري : (٤/٣٢) .
(٢) موقف العقل والعلم : (٤/٣٠) .

وقال استوارت ميل : « إن الله الذي أوجد سلسلة الاسبـاب والعلل قـادر على تعطيل عمل هـذه السلسلة ، فلا تكون المعجزة خارقـة للعادة بهذا الاعتبار ولا يختل قانون السببية ، فسبب المعجزة إرادة الله » .

وكان استوارت ميل هذا لا يرى الوجوب والضـرورة في أي مسألـة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة في أزمنـة الماضي ، فهي ليست بشيء إزاء عدد الحالات غير المتناهية التي يحتفظ بها المستقبل احتياطا .

وقال هيوم : « اذا أمعنا في النظر فنحن لا نرى القوانين والاسباب ، وانمـا نرى الحادثات والنتائج فنقول بالعلية والضرورة من غير أن نراهما[1] » .

هذا من الناحية العلمية والعقلية ، وأما من ناحيـة الواقع فاننا قـد علمنا أن هناك رسلاً جاؤوا وأتوا بمعجزات متنوعة كلها خارق للعـادة وما تعارفه النـاس من بناء المسببات على الاسباب ، وحاول الناس أن يقوموا بشيء منها فأخفقـوا ، فلا مجال للعلم والعقل في إنكار المعجزة ما دامت قد ثبت وقوعها بالأدلة المتواترة ، وقد قالوا في القاعدة المشهورة المنطقية : « الوقـوع أقوى أدلة الإمكان » وقـد أصبح وقوع المعجزة واضحا وضوح الشمس .

وكيف يصح في الأذهان شيء   اذا احتاج النهـار الى دليل .

نبوة محمد ﷺ ومكانتها من النبوات السابقة :

اذا نظرنا الى نبوة سيدنا محمد ورسالته وجدناها تتصف بصفات تتميز بهـا عن غيرها من الرسالات السماوية ، وتكون بها في أعلى مستوى من الرسالات التي أنزلها الله على رسله ، وسنبرز فيما يلي أبرز هذه الصفات :

---

(١) هذه النصوص من المصدر السابق .

اولا ـ العمـوم :

اذا نظرنا الآيات التي تتحدث عن رسالات الرسل ، وجدنا أن هذه الرسالات مقصورة على الأمة التي أرسل فيها الرسول ، لا تتعداها الى سواهـا من الأمم ، حتى انه قد وجد في عصر واحد رسولان ، وذلك كرسالـة ابراهيم ولوط عليهمـا السلام ، فكل منهما قد أرسل الى قوم غير القوم الذي أرسل اليه الآخر ، وفي بلد غير البلد الذي أرسل فيه الآخر •

وفي بيان أن كل رسول أرسل الى قومه خاصة ، قال الله تعالى : « لقد أرسلنا نوحاً الى قومه » وقال سبحانه : « واذ قال موسى لقومـه •• » وقـال : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه » وقال جل وعزّ : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً الى قومهم فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكـان حقاً علينـا نصر المؤمنين[1] » الى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تتحدث عن ذلك •

أما رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقد كانت للناس جميعاً أسودهم وأبيضهم ، عربيهم وعجميهم ، في جميع جوانب الارض • سواء من وجد في عصره ومن أتى بعده الى يوم القيامة • ولقد دلت وتضافرت على ذلك الآيات القرآنيـة ، قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونـذيرا ولكن أكثر النـاس لا يعلمون[2] » وقال جلّ جلاله : « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعـاً الذي له ملك السموات والارض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسولـه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتـدون[3] » • وقال جـلّ وعزّ : « وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ[4] » •

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : « لأنذركم به » أي بالقرآن ، واكتفى بذكر

---

(١) الروم : (٤٧) .
(٢) سبـأ : (٢٨) .
(٣) الاعراف : (١٥٨) .
(٤) الانعـام : (١٩) .

الإنذار عن ذكر البشارة . ومن بلغ : عطف على ضمير الخاطئين ، أي لأنذركم بـه يا أهل مكة ، وسائر من بلغه من الأسود والأحمر ، أو من الثقلين ، أو لأنذركم به أيها الموجودون ، ومن بلغه الى يوم القيامة ، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم ، وأنه لا يؤاخذ بها من لم يبلغه » .

وقال تعالى : « وأرسلناك للناس رسـولا وكفى بالله شهيدا[1] » وقال جلت قدرته : « أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين[2] » . وقال عزّ من قائل : « تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا[3] » .

وقال ﷺ في الحديث الصحيح : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجـداً وطهوراً فأيما رجل مـن أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة[4] » وقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفس محمد بيـده لا يسمع بي أحد من هذه الأمـة يهـودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار[5] » .

هذا وكون سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مرسلاً الى الناس كافة هـو مما علم من الدين بالضرورة ، فيكفر من لم يؤمن بذلك .

وقد ذهبت فرقة من اليهود ــ وهم العيسوية ــ الى أن بعثـة محمد عليـه الصلاة والسلام خاصة بالعرب ، وكلامهم هذا ظاهر البطلان ، إذ إنهم لما صدقـوه بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به ، وقد قال رسول الله ﷺ : إنه رسـول

---

(١) النساء : (٧٩) .
(٢) يونس : (٢) .
(٣) الفرقـان : (١) .
(٤) اخرجه البخاري ومسلم .
(٥) اخرجه مسلم : (١/٩٣) .

الى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ، فلزم تصديقه حتما • وقد نسب هذا القول الى فريق من النصارى[1] •

هذا وقد قام الرسول عليه الصلاة والسلام بما كلف به من إبلاغ رسالته للناس في عصره ، فأرسل رسله وبعث كتبه الى الأقطار ، فأرسل الى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف ، يدعو الى الاسلام •

ثم كلف أتباعه عليه الصلاة والسلام أن يحملوا رسالته من بعده الى أهل الارض ، فقاموا رضوان الله عليهم بهذا الأمر خير قيام •

وكما إنه عليه الصلاة والسلام قد أرسل الى الإنس ، أرسل الى الجن أيضا ، وقد آمن به عليه الصلاة والسلام فريق من الجن في حياته ، وقد التقى عليه الصلاة والسلام بفئة منهم • قال تعالى : « قل أوحي اليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا • يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا[2] » وقال سبحانه : « وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم • يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم • ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين[2] » •

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم • انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية .
(٢) الجن : (١ ــ ٢) .
(٣) الاحقاف : (٢٩ ــ ٣٢) .

الشهب ، قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الارض ومغاربهـا ، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الارض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحـو تهامة ، وهو بنخـل ، عامدين الى سـوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا الى قومهـم فقالوا ، يا قومنا إنـا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيه محمد ﷺ : « قل أوحي اليّ أنه استمع نفر من الجن » .

وروى مسلم في صحيحه أيضا عن عامر قال : سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقلنـا : استطـير أو اغتيـل ، قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا اذا هو جاء من قبل حراء ، قال فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال : أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن ، قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليـه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعرة علف لدوابكم[1] » .

ثانيـا ـ الشمـول :

واذا نظرنا الى رسالة سيدنا محمد عليـه الصلاة والسلام من خـلال الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الصحيحة ، وجدناها شاملة لما يحتاج اليه الانسان مـن شؤون الدنيا والآخرة على وجه يكفل المصلحة للناس جميعا ، ويؤمن لهم السعادة الحقيقية اذا هم التزموا بها ، وعملوا على تحقيقها ، كما ان السير على خلافها يحقق للبشرية الشقاء والبؤس والاضطراب ، قال الله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فان

(1) انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة ، (١٤٩ ـ ١٥٠) .

له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى[٢] » •

واليك فيما يلي أبرز الأمور التي تضمنها القرآن الكريم والسنة الشريفة :

أ ـ الاحكام الاعتقاديـة :

فقد بينت الرسالة المحمدية الأحكام الاعتقادية أوضح بيان فقد تحدثت عمـا يجب على المكلف الاعتقاد به ، والايمان بموجبه ، قال الله تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا[١] »•

وقال رسول الله ﷺ : « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » •

وقـد فصل القرآن الكريم الاحكام الاعتقادية ، وكذلك السنة الشريفة ، مما نجده مفصلا في هذا الكتاب •

ب ـ الاحكام الخلقيـة :

ولقد انطوت الرسالة المحمدية على منهج أخلاقي متكامل ، يسمو بالانسان الى أرقى مثال من الفضيلة والاستقامة ، وكانت أحكام هذا المنهج أحكاما تفصلية ، فقد أوضحت ما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل ، وما يجب أن يتخلى عنـه من الرذائل •

إقرأ إن شئت قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى

---

(١) طـه : (١٢٤ ـ ١٢٦) .
(٢) النساء : (١٣٧) .

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون[١] • وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا[٢] » • وتأمل في الآيات التالية التي جاءت في سورة الاسراء ، قال الله تعالى : « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا • ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا • وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا • إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا • وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا • ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا • إن ربك هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا • ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيرا • ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا • ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً • ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا • وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا • ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا • ولا تمش في الارض مرحاً إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا • كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها • ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا[٣] » •

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا

---

(١) النحل : (٩٠) .
(٢) النساء : (٥٨) .
(٣) الإسراء : (٢٣ ــ ٣٩) .

خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون • يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أن يأكل أحدكم لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم • يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير[1] » •

وقال سبحانه : « فأما اليتيم فلا تقهر • وأما السائل فلا تنهر • وأما بنعمة ربك فحدث[2] » •

هذا وليس باستطاعتنا في هذه العجالة أن نحصي ونستقصي الآيات الكريمة التي تحدثت عن النظام الاخلاقي المتكامل في الاسلام ، والتي تناولت كل الجوانب الاخلاقية ، سواء أكان ذلك في نطاق الفرد أو الاسرة أو المجتمع ، وحسبك في استقصاء ذلك أن ترجع الى كتاب « دستور الاخلاق في القرآن الكريم » من تأليف الدكتور محمد عبد الله دراز لتجد فيه تحقيق ما ذكرت لك •

هذا في القرآن الكريم ، وأما السنة الشريفة فقد طفحت بالاحاديث التي تحث الانسان على التمسك بالاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة •

أنظر الى قوله عليه الصلاة والسلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى : ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء[3] » وقوله : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء[4] » وقوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه[5] ، وقوله عليه

---

(١) الحجرات : (١١ ــ ١٣) .
(٢) الضحى : (٩ ــ ١١) .
(٣) اخرجه احمد وابو داود والترمذي والحاكم .
(٤) اخرجه احمد والحاكم وابن حبان .
(٥) اخرجه البخاري وغيره .

الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، إن الله لا ينظر الى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، ـ ويشير الى صدره ـ ألا ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث[1] » وقال : « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة[2] » .

هذا قل من جل من الاحاديث التي تتحدث عن الاخلاق الاسلامية وقد ألفت كتب كثيرة في ذلك ، ولك أن ترجع الى كتاب إحياء علوم الدين للامام الغزالي لترى العجب العجاب من الاحاديث التي وردت في ذلك .

هذا ولا بدّ من الاشارة هنا الى أن الاخلاق في الاسلام لا تقتصر على معاملة الانسان للانسان ، بل تتعدى ذلك الى معاملة الانسان للحيوان ، فلقد قال رسول الله ﷺ : « دخلت النار امرأة في هرة حبستها ، لا هي أطعمتْها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض[4] » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج ، فاذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رقي فسقى الكلب . فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله ، وان لنا في البهائم أجرا ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر[3] » .

وفي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه دخل دار الحكم بن أيوب

---

(١) اخرجه مسلم .
(٢) اخرجه ابو داود .
(٣) اخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .
(٤) اخرجه البخاري ومسلم .

فاذا قوم قد نصبوا دجاجة يرمونها فقال : نهى رسول الله ﷺ أن تصبّر البهائم . ومعنى أن تصبر : أن تحبس لترمى حتى تموت .

وفي البخاري ومسلم أيضا عن ابن عمر : « أن النبي ﷺ لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا » والغرض هو المنصوب للرمي .

وعند أبي داود عن جابر : أن الرسول عليه الصلاة والسلام مرّ عليه بحمار قد وسم في وجهه فقال : أما بلغكم أني لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها .

هذا ولقد بلغ من تقدير الاسلام للاخلاق والعناية بها أن جعل من أجلّ الأهداف التي شرعت العبادات لتحقيقها تربية الانسان تربية أخلاقية كريمة .

فالصلاة : وسيلة لتطهير النفس حسيا ومعنويا ، قال الله تعالى : « وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون[1] » . وقال جلّ من قائل : « ان الانسان خلق هلوعاً . اذا مسه الشر جذوعاً . واذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون[2] » .

والزكاة : تجسيد عملي للتعاون ، وتطهير للنفس من رذيلة الشح والاخلاق الذميمة ، قال الله تعالى : « ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب[3] » وقال سبحانه : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي

---

(١) العنكبوت : (٤٥) .
(٢) المعارج : (١٩ ــ ٢٣) .
(٣) البقرة : (١٧٧) .

الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[1] » .
وقال جلت حكمته : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[2] » .

والصوم : خير وسيلة للاستقامة وضبط النفس وقوة الإرادة وتجنب الفواحش ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[3] » وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل بـه فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه[4] » وقال عليه الصلاة والسلام : « الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل اني صائم اني صائم ، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها[5] » .

والحج : ميدان رحب لتدريب النفس على جميل الاخلاق ، قال الله تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب[6] » وقال عليه الصلاة والسلام : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه[7] » .

جـ ـ الاحكام العملية :

الاحكام العملية هي التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود

---

(١) التوبة : (٦٠) .
(٢) التوبة : (١٠٣) .
(٣) البقرة : (١٨٣) .
(٤) اخرجه البخاري .
(٥) اخرجه البخاري .
(٦) البقرة : (١٩٧) .
(٧) اخرجه البخاري في المحصر .

وتصرفات توصف بالصحة أو الفساد والبطلان ، وهـذه الاحكام هي التي تشكل فقه القرآن الكريم والسنة المطهرة ،

وهذه الاحكام العملية ــ حسب اصطلاح الاصوليين والفقهاء ــ تنقسم الى قسمين أساسيين :

القسم الاول : أحكام العبادات ، وهي الاحكام التي تتعلق بما شرع من العبادات الخاصة التي تنظم علاقة الانسان بربه تبارك وتعالى ، كأحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج والنذر واليمين وما شاكل ذلك •

القسم الثاني : أحكام المعاملات ، وهي الاحكام التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من عقود وتصرفات ، وما يأتيه من جنايات ، وما يوقع عليه من عقوبات ، وغير ذلك من الاحكام التي تهدف الى تنظيم علاقات المكلفين ، ومعاملة بعضهم بعضا ، سواء أكان ذلك بين الافراد ، أم بين الجماعات ، أم بين الامم •

وهذا القسم من الاحكام يتنوع حسب الاصطلاحات الحقوقية الحديثة الى أنواع عدة ، حسب ما يتعلق به من تصرفات ، وما تهدف اليه من تنظيم ومصلحة • ومن هذه الانواع :

آ ــ نظام الأسرة : وهو ما يسمى بالاحوال الشخصية ، وهذا النظام يتناول الاسرة من بدء تكوينها الى النهاية ، وهذه الاحكام كثيرة ومفصلة في كل من القرآن والسنة • وذلك كمشروعية المهر ، ومشروعية التحكيم ، ومشروعية الطلاق ، ووجوب النفقة ، ومن تحل من النساء ومن تحرم ، وأحكام الإرث ، وحفظ أموال اليتامى ، وآداب دخول البيوت وما أشبه ذلك من الاحكام •

ب ــ الاحكام المدنية : وهي الاحكام التي تتعلق بمعاملات الافراد ومبادلاتهم، ويقصد بها تنظيم علاقاتهم المالية وحفظ ممتلكاتهم ، وصيانة كل حق لصاحبه ، ومن هذه المعاملات : البيع والإجارة والرهن والكفالة والشركة ، وما يترتب عليها من حقوق ، وما ينشأ عنها من التزامات •

جـ ـ الاحكام الجنائية : وهي الاحكام التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من جرائم وما يستحقه عليها من عقوبات ، وذلك كعقوبة القتل والسرقة والزنى والقذف وقطع الطريق وما أشبه ذلك •

د ـ الاحكام الدولية : وهي الاحكام التي تتعلـق بتنظيم معاملة المسلمـين لغيرهم ، سواء أكان ذلك داخل الدولة الاسلاميـة أم خارجهـا ، وذلك كالصلح والهدنة والقتال ومعاملة الاسرى وما أشبه ذلك •

هـ ـ الاحكام الاقتصادية والمالية : وهي الاحكام التي تتعلق بتنظيم الموارد والمصارف في الدولة ، ويقصد بها تنظيم العلاقات الماليـة بين الدولـة والافراد • كجباية الاموال وكيفية توزيعها •

و ـ أحكام المرافعـات : وهي الاحكام التي يقصـد بهـا تنظيم الاجراءات القضائية لتحقيق العدل بين الناس ، وذلك كالشهادة واليمين ، وعدالة الشهـود ، وما أشبـه ذلك •

ز ـ الاحكام الدستورية : وهي الاحكام التي تتعلق بنظام الحكم وأصوله ، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم ، وواجب كل منهما نحو الآخر ، وطريقة اختيار الحاكم ، وما أشبه ذلك •

ح ـ الاحكام العسكرية : وهي الاحكام التي تنظم سير القتال ، وتبين ما يجب على المكلف التزامه في ميادين المعارك •

ان كل ما ذكرته لك هو منصوص عليه في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال هذا العرض السريع والموجز ، تدرك أن رسالة نبينا محمـد عليه الصلاة والسلام كانت شاملة لكل ما يحتاج اليه الانسان فرداً ومجتمعـا ، في كل جانب من الجوانب الفكرية والعبادية والمالية وغير ذلك ، مما لا تراه مستوفى في أية رسالة سماوية غير الاسلام •

ثالثاً ـ الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات السماوية :

إن محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم الانبياء والمرسلين ، وان رسالته خاتمة الرسالات السماوية ، فلا رسول بعده ، ولا شريعة سماوية تأتي من بعده . والاعتقاد بذلك أصل من أصول الدين ، يكفر منكره ، ويخرج عن دائرة الاسلام جاحده .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك ، وكذلك السنة الصحيحة ، وأجمع على ذلك المسلمون سلفاً وخلفاً .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما[1] » وقال عليه الصلاة والسلام : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويته ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[2] » .

وجاء في صحيح البخاري : « أن رسول الله ﷺ خرج الى تبوك واستخلف علياً . فقال : أتخلفني في الصبيان والنساء ؟ قال : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه ليس نبي بعدي[3] » .

هذا ولقائل أن يقول : إنه قد ثبت بالأدلة التي بلغت مبلغ التواتر أن سيدنا عيسى عليه السلام سوف ينزل الى الارض ، ونزوله من أمارات الساعة ، وعيسى نبي ورسول ، فقد ثبت أنه يأتي نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام .

والجواب على هذا أن سيدنا عيسى لا ينزل بوصفه نبياً حاملاً لرسالة جديدة ، بل ينزل مصدقاً لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ومؤيداً لشريعته وحاكماً بها ، كما قد ورد في ذلك أحاديث .

---

(١) الاحزاب : (٤٠) .
(٢) اخرجه البخاري في المناقب ومسلم في كتاب الفضائل : (٢٢)
(٣) اخرجه البخاري في المغازي الباب الثامن والسبعين .

رابعا ـ رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ناسخة لكل الشرائع السابقة :

الرسالات السماوية تتضمن جانبين :

أحدهما : الأمور الاعتقادية : وهذه الأمور بما أنها حقائق ثابتة لا تتغير ، فلا يمكن أن يطرأ عليها نسخ أو تبديل أو تغيير ، فالايمان الذي نادى به ابراهيم هو الذي نادى به موسى وعيسى ومحمد وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام •

الثاني : الأمور التشريعية التي تتعلق بتصرفات الانسان من عبادة ومعاملة ، فهذه عرضة للتغيير والتبديل ، لأن مصالح العباد قد تغيرت بتغير الأحوال والأزمان، وهذا يقتضي تغير الاحكام تبعاً لتغير المصالح •

ومن هنا كانت تنزل رسالات من السماء فيها أحكام تشريعية تخالف أحكاماً سابقة ذكرت في رسالة سابقة نظراً الى حاجة الناس الى مثل هذه التشريعات الجديدة ، وهذا هو النسخ ، اذ النسخ بيان انتهاء حكم شرعي بدليل شرعي آخر ، أو رفع حكم شرعي بدليل شرعي آخر • ففي شريعة آدم عليه السلام كان يحل للرجل أن يتزوج بأخته التي لم تلد معه في بطن واحد ، وذلك نظراً لحاجة البشرية الى ذلك ، ولولا هذا لانقرضت البشرية من لدن آدم ، ولما انتشرت البشرية نزلت شريعة تحرم الزواج من الأخوات ، لكن كانت تبيح شيئا آخر مما جاء الاسلام بتحريمه • وفي بعض التشريعات السماوية تحريم تعدد الزوجات نظراً لقلة النساء وكثرة الرجال ، وفي بعضها على العكس من ذلك ففيها تعدد الزوجات ، نظراً لقلة الرجال وكثرة النساء •

واستمر الأمر على ذلك حتى جاء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فكان خاتم النبيين ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات ، وكانت أيضا ناسخة لجميع الشرائع قبله ، وقد أجمع المسلمون على ذلك ، ولم يقع بينهم خلاف في هذا ، إلا أن علماء المسلمين قد بحثوا في مسألة : وهي ما اذا قص علينا القرآن الكريم أو السنة الصحيحة من أحكام الشرائع قبلنا ، ولكن لم يرد في شرعنا ما يدل على أنه مكتوب علينا أو منسوخ في حقنا ، فهل يعد هذا شرعا لنا ، ويلزمنا العمل به ؟

ذهب الحنفية والمالكية في هذا فقط الى أن شرع من قبلنا شرع لنا ، وأنه حجة يلزمنا العمل بها .

وذهب الشافعية ، وهو قول لأحمد ، الى أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا ، بل على علماء المسلمين أن يجتهدوا في أمثال هذه القضايا . ولكل من الاتجاهين أدلة استدل بها ، ومكان البحث في هذه المسألة وما لها من أدلة وما عليها هو « علم أصول الفقه » فليبحث في هذه المسألة هناك .

والدليل بعد إجماع المسلمين على أن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ناسخة قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[1] » .

وكفى دليلاً على أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ناسخة للشرائع قبلها أن الله سبحانه وتعالى أخذ العهد على جميع الأنبياء ، إن أدركوا زمان رسالة محمد أن يتبعوه وينصروه ويؤمنوا برسالته ، قال الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[2] » .

دلائل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام

هناك أدلة كثيرة على نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته ، نذكر أهمها فيما يلي :

اولا ــ المعجزات واعظمها القرآن :

١ ــ لقد ذكرنا فيما مضى أن المعجزة هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد

---

(١) آل عمران : (٨٥) .
(٢) آل عمران : (٨١ ــ ٨٢) .

واحد من رسله ، وهي قائمة مقام صدق عبدي فيما يبلغ عني ، وذكرنا شروط الأمر الخارق ليكون معجزة ، وأن أبرز هذه الشروط التحدي .

وذكرنا أيضا أن الله جلت قدرته قد أيد رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام بمعجزات كثيرة مادية ومعنوية ، وأن أبرز معجزة وأعظمها هي المعجزة الخالدة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ألا وهي « القرآن الكريم » .

٢ ـ القرآن الكريم وتحدي العالم ان ياتوا بمثله :

سأل العرب محمداً عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم بآية تبرهن على صدق دعواه في رسالته ، فأخبرهم الله جل جلاله بأن القرآن الكريم الذي ينزل على محمد هو أعظم دليل وأقوى برهان على صدقه فيما يدعي . قال الله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون[١] » .

ولكن الكافرين ظلوا في عنادهم وجحودهم وإصرارهم ، وأنكروا أن يكون في شيء من آي القرآن ما يدل على صدق محمد ﷺ في دعواه ، وقالوا : « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين[٢] » .

وحينئذ تحداهم الله سبحانه ـ كما تحدى البشرية جمعاء ـ وطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فعجزوا عن ذلك ، وسجل القرآن الكريم عجزهم هذا فقال سبحانه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[٣] » .

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فعجزوا ، وقال الله سبحانه : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن

---

(١) العنكبوت : (٥٠ ـ ٥١) .
(٢) الانفال : (٣١) .
(٣) الاسراء : (٨٨) .

لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون[1] » .

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضـا ، قال الله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم مـن دون الله إن كنتم صادقين[2] » وقال عزّ وجل : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبـوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمـا يأتهم تأويله كذلك كـذب الذين من قبلهـم فانظر كيف كان عاقبـة الظـالمـين[3] » .

وقد كان من مقتضى بلاغتهم المعروفة ، وقولهم : لو نشـاء لقلنا مثل هـذا ، وما يعتلج في صدورهم من الحقد والكراهية لهذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، وما كانوا يقومون به مـن بحث دائب للوقوف عـلى وسيلة ما لإفساد أمره عليه ، ومنع دعوته من السير في طريق النجاح ، كان مـن مقتضى ذلك كله أن ينهضوا لمعارضته ومجاراته بفصول من كلامهم البليغ ، على نحو ما كانوا يفعلونه في أسواقهم الأدبية من المساجلة والمقارضة في فنون الكلام ، ليقطعوا بذلك خطره عنهم ، وليعلنوا بذلك لمن قد ينخدع بهذا الذي يأتيهم به ، أنهم قد جاؤوا بمثـله أو خـير منـه .

ولكنهم ــ رغم كل هذه الدواعي والحوافز ــ لم يفعلوا شيئا ، ولم يستجيبوا لتحدي القرآن في محاولة ما ، غير أنهم تحولوا عن قولهم السابق « لو نشاء لقلنـا مثل هـذا » الى زعم أن ما جاء به محمد هو سحر أو كهانة ، أو هو شعر فريـد ، كما قال الله تعالى : « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون[4] » وكمـا قال تعالى : « أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون[5] » .

ولقـد كتب القاضي عياض فصلاً عن عجز العرب عن معارضة القرآن مـع

---

(1) هـود : (١٣ ــ ١٤) .
(2) البقرة : (٢٣) .
(3) يونس : (٣٨ ــ ٣٩) .
(4) الزخرف : (٣٠) .
(5) الصافات : (٣٦) .

وجود الدواعي لذلك فقال فيه : « فلم يزل يقرعهم ﷺ اشد التقريع ، ويوبخهم أغلظ التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويذم آلهتهم وإياهم ، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته ، مجمعون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب وبالتكذيب ، والإغراء بالافتراء ، وقولهم إن هذا إلا سحر يؤثر ، وسحر مستمر ، وإفك افتراه ، وأساطير الاولين ، والمباهتة والرضى بالدنيئة ، كقولهم قلوبنا غلف وفي أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، والادعاء مع العجز بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ، وقد قال لهم الله ولن تفعلوا . فما فعلوا ولا قدروا ، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم[1] » .

ثم ان آيات التحدي ظلت مسجلة في كتاب الله تعالى ، تقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، في كل عصر وقرن ، فما استطاع واحد منهم مهما كان عصره وتاريخه أن يسجل عملاً ما يصحُّ أن يقال انه قد عارض به القرآن ، فأتى بشيء حسن .

فهذا من أجلى الدلالة المادية الملموسة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن الكريم ، اذ هو دلالة الواقع خلال التاريخ والقرون .

ومما يدل على عجزهم عن المعارضة ما ذكره صاحب المواقف اذ قال : « أمّا أنه تحدى به فقد تواتر ، وآيات التحدي كثيرة ، وأمّا أنه لم يعارض فلأنه لو عورض لتواتر ، سيما والخصوم أكثر من حصى البطحاء ، وأحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه[2] » .

وبعد فما هي الجوانب والوجوه التي كان بها القرآن الكريم معجزا ؟

---

(١) الشفا : (٢٢٠/١) .
(٢) المواقف : (٣٤٩) .

٣ ــ وجوه إعجاز القرآن الكريم :

لقد تحدث العلماء عن وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيراً ، وأفردوها بمؤلفات تفـوق الحصـر •

فهناك الإعجاز من حيث اللفظ ، سواء أكان ذلك من حيث الأسلوب البديع ، أم من حيث اختيار الكلمة ، أم مـن حيث الجمـلة القرآنية وصياغتهـا • وهناك الإعجاز التشريعي •

وهناك الإعجاز من حيث الإخبار بالمغيبات ووقوعها كما أخبر •

وهناك الإعجاز العلمي ، الى غير ذلك من وجوه الإعجاز •

وقد درست قسماً كبـيراً منها في السنـة الاولى في مادة « علـوم القرآن » فلا حاجة لإعادته هنـا •

ثانيا ــ حياة النبي ﷺ وشخصيته واخلاقه دليل على نبوته :

إن الدارس لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والمطلع على الاخلاق التي كان يتخلق بها ﷺ ليؤمن تمام الإيمان ، ويذعن حقيقة الإذعان بأنه عليه الصـلاة والسلام هو رسول من عند الله تعالى ، قد أحاطـه بالعصمة ورعاه بعين رعايتـه ، ليقدمه الى الناس بشراً كاملاً ، ورسولاً مبلغاً ، وانساناً فذاً تتحقق فيه كل صفات الرجولة والكمال ، وقال سبحانه في حقه : « لقـد كان لكم في رسول الله أسـوة حسنة[1] » وقال سبحانه : « وإنك لعلى خلق عظيم[2] » •

وحسبك أن ترجع الى أي كتاب من كتب السيرة التي تتحدث عن شخصيـة الرسول لتدرك من خلالها أنه لا يمكن أن تتجمع هذه الصفات إلا في رسول قـد اصطفاه الله واختاره لتحمل رسالته وأدائها الى الناس •

ونشير لا على سبيل التحديد الى كتاب « الشفا في تعريف حقوق المصطفى »

---

(١) الاحزاب : (٢١) •
(٢) القـلم : (٤) •

للقاضي عياض رحمه الله ، فقد جمع فيه من خصائص الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وصفاته ما لا تجده مذكوراً إلا في كتب عدة .

ولقد ذكر صاحب المواقف أن ما يتمتع به محمد عليه الصلاة والسلام من صفات رفيعة وأحوال عالية ، هو من جملة المسالك التي يستدل بها على صحة رسالته عليه الصلاة والسلام ، فقال :

« المسلك الثاني ــ وارتضاه الجاحظ والغزالي ــ الاستدلال بأحواله قبل النبوة ، وحال الدعوة ، وبعد تمامها ، وأخلاقه العظيمة وأحكامه الحكيمة وإقدامه حيث يحجم الأبطال ، ولولا ثقته بعصمة الله إياه من الناس لامتنع ذلك عادة ، وأنه لم يتاون حاله وقد تلونت به الأحوال ، من أمور من تتبعها علم أن كل واحد منها ، وإن كان لا يدل على نبوته ، لكن مجموعها مما لا يحصل إلا للأنبياء[1] » .

وإليك طرفاً مما ورد في كتب السيرة من اتصافه عليه الصلاة والسلام بالأخلاق الفاضلة ، سواء أكان ذلك قبل النبوة أو بعدها .

١ ــ شهادة خديجة رضي الله عنها عند بدء الوحي :

فلقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء ، وقد حبب اليه الخلوة فيه للتعبد ، وكان لنزول الوحي وقع عظيم في نفسه لأنه لم يعتده من ذي قبل ، فرجع الى زوجه خديجة يرجف فؤاده رعباً وهلعاً ، وقال : زملوني زملوني فزملوه ، حتى اذا ذهب عنه الروع قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت له خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

وذهبت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فأخبره رسول الله بما وقع ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى ، ياليتني فيها جذع ليتني أكون حياً ، إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيّ هم ، قال : نعم : لم يأت

---

(١) المواقف : (٣٥٦) .

رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرا[1] ».

فهذه خديجة رضي الله عنها تستدل من خلال صفاته التي تعرفها فيه ، على أن الله لا يخزيه أبداً ، ولذلك حينما أمر الرسول بالتبليغ كانت خديجة أول من آمن به عليه الصلاة والسلام .

٢ ـ شهادة أبي سفيان قبل إسلامه وتصديق هرقل له :

في البخاري ومسلم عن ابن عباس : أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل اليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً في الشام ، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهو بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان : قلت أنا أقربهم نسباً ، قال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبني فكذبوه ، قال : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عليه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ، قلت لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه : قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال : ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه ، قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل

---

(1) انظر البخاري كتاب بدء الوحي .

يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه مـن ملك ، فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونـه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمـان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينـه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين يخالطه بشاشـة القلوب ، وسألتك هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فان كان ما تقو لحقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ...[1] » .

٣ ـ ما استدل به الجلندي ملك عمان على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام :

بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص الى الجلندي يدعـوه الى الاسلام فقـال الجلندي : لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول ما آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وانه يَغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يهجر ، وانه يفي بالعهد وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي[2] .

٤ ـ ما قاله العلاء بن الحضرمي للمنذر بن ساوى ملك البحرين :

بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي بكتاب الى المنذر بـن ساوى ملك البحرين ، فلما قدم العلاء على المنذر قال له : « يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيـا فلا تصغرن عن الآخرة ، ان هذه المجوسية شر دين، ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامـة ، ولست بعديم عقل ولا رأي ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا نصدقه ، ولمن

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي .
(٢) انظر الاصابة لابن حجر في ترجمة الجلندي .

لا يخون أن لا نأتمنه ، ولمن لا يخلف أن لا نثق به ، فان كان هذا هكذا فهذا هـو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر بـه نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليته زاد في عفوه أو نقص مـن عقابه ، اذ كل ذلك منـه على أمنية العقل ، وفكر أهل النظر[1] » .

٥ ـ شهادة قريش له بالأمانة والصدق :

عندما بنت قريش الكعبة البيت الحرام ، وأرادت وضـع الحجر في موضعه ، اختلفوا فيما بينهم من الذي يضع هذا الحجر ، لأنهم يرون أن في ذلك شرفـاً لهم ، فقال أبو أمية المخزومي : يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضـون بحكمه ، فقالوا : نكل الأمر لأول داخل ، فكان هذا الداخل هو محمد الأمين المأمون عليـه الصلاة والسلام ، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصـدق الحـديث ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ، لأنهم كانوا يتحاكمون اليه في الجاهلية ، فكان لا يداري و لا يماري[2] .

ولما أنزل الله سبحانه قوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » صعد على الصفا ، وجعل ينادي بطون قريش بطناً بطناً ، فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسـولا لينظر الخبر ، فقال عليه الصـلاة والسلام : « أرأيتم لـو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال فإني نذير لكم بين يدي عذات شديد[3] » .

وبالجملة فان الصفات التي كان يتصف بها عليه الصلاة والسلام من بدء حياته حتى قبضه الله اليه لهي أعظم دليل على أنه رسول من عند ربه ، وأنه صادق فيمـا يتحدث به عـن ربه ، وهـو كما قال هرقـل ، لم يكن ليذر الكذب عـلى الناس ويكذب على الله .

هذا ولقد قال القاضي عياض في كتابه « الشفا » عند التحدث عـن الاخلاق

---

(١) انظر السيرة الحلبية : (٣ ـ ٣٥٠) .
(٢) انظر السيرة الحلبية : (١ ـ ١٩٤) .
(٣) انظر البخاري في كتاب التفسير ومسلما في كتاب الايمان .

المحمودة والخصال الجميلة : « أما أصل فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتهـا ، فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة ، ويتفرع عـن هذا ثقوب الرأي وجـودة الفطنة والإصابة وصـدق الظن والنظر للعـواقب ، ومصالح النفس ومجاهـدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل ، وقد أشرنـا الى مكانه منه ﷺ ، وبلوغه منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سـواه ، واذ جلالة محله من ذلك ومما تفرع عنه متحققة عند من تتبع مجاري أحوالـه واطراد سيرته ، وطالع جوامع كلامه وحسن شمائله ، وبدائع سيره وحِكَم حديثه ، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلـة ، وحكم الحكماء وسير الأمم الخاليـة وأيامها ، وضرب الأمثال وسياسات الأنام وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفسية والشيم الحميدة ، الى فنـون العلم التي اتخـذ أهلها كلامـه ﷺ فيها قـدوة ، وإشاراته حجة ، كالعبارة والطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك ، ممـا سنبينه في معجزاته ان شاء الله تعالى ، دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب مـن تقدم ، ولا الجلوس الى علمائهم ، بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك ، حتى شرح الله صدره وأبان أمره ، وعلمه وأقرأه ، يعلم ذلك بالمطالعة والبحث عن حاله ضرورة، وبالبرهان القاطع على نبوته نظراً ، فلا نطول بسرد الأقاصيص وآحاد القضايا[1] » .

وقال الامام السنوسي في « شرح الكبرى » عند الحديث على دلائل نبوتـه عليه الصلاة والسلام : « الوجـه الخامس : الاستدلال بسيرتـه وأوصافـه التي تواترت الينا وهي كثيرة .

أحدها : ملازمة الصدق من أول عمره الى آخره ، فان أحـداً ما سمع منـه كذبة قط ، وقد اعترف له أعداؤه بذلك ، وأيضا لو صدر منـه الكذب ولو مرة في عمره لنبذه أعداؤه بذلك .

وثانيها : ترك الدنيا والإعراض عن زخارفهـا على الدوام ، حتى ان قريشـاً عرضوا عليه المال والزوجة والرياسة لترك هذه الدعوى فلم يلتفت اليها .

(١) الشفا : (١/٧٨ ـ ٧٩) .

وثالثها : كان في أعظم الدرجات في السخاوة ، حتى انه سبحانه عاتبه عليه بقوله : « ولا تبسطها كل البسط » والشجاعة حتى انه لم يفر قط ولا تزحزح للفرار ، حتى في يوم أحد ونحوه مما عظم فيه الرعب .

ورابعها : كان في غاية الفصاحة والبلاغة ، حتى ان فصاحته قد أعيت بلغاء الخطباء من العرب العرباء ، ولذا قال ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم » .

وخامسها : أنه عليه الصلاة والسلام تحمّل في أداء الرسالة أنواعا من المشاق والمتاعب ، لا يثبت معها إلا من هو على الحق من الله تعالى ، وهو مع ذلك مصر على دعوى الرسالة ، ولم يظهر في عزمه فتور ، ولا في إصراره قصور .

سادسها : أنه عليه الصلاة والسلام كان مع أهل الدنيا في غاية الترفع ، ومع الفقراء والمساكين في غاية التواضع .

وسابعها : ما كان عليه من حسن الخلق حتى انه لا يزداد مع الغضب إلا حلما .

وثامنها : حسن ذاته الكريمة وما اشتملت عليه من المحاسن التي هي خرق عادة ولم توجد لبشر سواه . وما أحسن قول عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه في ذلك يشير الى محاسنه ﷺ خلقاً وخلقا .

لو لم يكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخبر

ولهذا لما أسلم أبو ذر رضي الله عنه عند رؤيته إياه قال : لما رأيت وجهه عرفت أنه ليس وجه كذاب ، ولا خفاء أن مجموع هذه الاوصاف ، بل بعضها لا يكون لغير الانبياء عليه الصلاة والسلام[1] » .

---

(١) شرح الكبرى بحاشية الحامدي : (٤٨٤ ـ ٤٨٥) .

إخبار الرسل السابقين برسالته عليه الصلاة والسلام وذكرهم بعض صفاته :

قد مرّ بنا أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالته هي خاتمة الرسالات السماوية ، وأنها ناسخة للشرائع التي قبلها جميعها ، وأن الله سبحانه قد أخذ العهد على جميع الأنبياء إن هم أدركوا زمانه أن يؤمنوا به وينصروه « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه قال أ أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين • فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[1] » •

ولهذا بشر الله برسالته في لسان أنبياء كثيرين ، ولكنه بشكل خاص بشّر به في كتب الديانتين : اليهودية والنصرانية ، ليحث أتباعهما على اتباع رسالة محمد ﷺ حينما يجيء من بعثته ، وليجعل في كتبهم حجة عليهم اذا هم أخذتهم العصبية في غير الحق ، أو حجبهم حسدهم للأمة التي سيكون منها هذا النبي العظيم ، ولقد أخبر القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام بشّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، قال الله تعالى في كتابه العزيز حكاية عن عيسى عليه السلام :

« وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين[2] » •

ولقد كان أهل الكتاب قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام يعلمون هذا جيداً ، وكانوا يترقبون ظهور هذا النبي الذي يختم الله به النبوات والرسالات ، وكان اليهود في الجزيرة العربية يستنصرون به على أعدائهم من المشركين ، ويقولون اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة •

---

(١) آل عمران : (٨١ – ٨٢)
(٢) الصف : (٦) •

ولكنهم عندما بعث محمد عليه الصلاة والسلام ، ورأوا أن هذا النبي لم يكن من بني اسرائيل ، بل جاء من العرب أولاد عمهم اسماعيل عليه السلام ، حسدوهم على ذلك ، وكفر به كثير منهم بغياً من عند أنفسهم ، وهم يعلمون صدق رسالته ، وقد سجل القرآن عليهم ذلك ، فقال الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين • بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين[1] » •

ولقد نص القرآن الكريم على أن أهل الكتاب يعرفون محمداً أنه رسوله لا يشكون في رسالته ، كما يعرف أحدهم ابنه فلا يشك في أنه ابنه ، قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون • الحق من ربك فلا تكونن من الممترين[2] » •

ووعد الذين يؤمنون منهم بمحمد الذي بشرت به كتبهم ، وعدهم بأن يدخلهم في رحمته وينعم عليهم بجنته ، وأخبر أن هؤلاء هم المفلحون ، قال الله تعالى : « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا اليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة وهم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فأولئك هم المفلحون[3] » •

---

(١) البقرة : (٨٩ ـ ٩٠) .
(٢) البقرة : (١٤٦ ـ ١٤٧) .
(٣) الاعراف : (١٥٦ ـ ١٥٧) .

اعتراف كثير من اليهود والنصارى بما جاء في كتبهم في وصف محمد عليه الصلاة والسلام وايمانهم بناء على ذلك .

وبناء على ما جاء في كتبهم من التبشير بنبي آخر الزمان ، وبيان صفاته ومكان مبعثه ، ووصف رسالته ، آمن كثير منهم بمحمد عليه الصلاة والسلام وأيقنوا بالحق الذي جاء به ، ولنذكر لك أمثلة على ذلك .

١ - عبد الله بن سلام كان من أحبار اليهود وعلمائهم ، وقد كان أعلم اليهود بالتوراة ، وقد قرأ في التوراة صفات محمد عليه الصلاة والسلام ، ولما قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام الى المدينة التقى به وأيقن برسالته وآمن به بعد أن اختبر صدقه في دعواه الرسالة .

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد الى أبيه ، ومن أي شيء ينزع الى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ : خبرني بهن آنفاً جبريل ، قال : فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله ﷺ : أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما الشبه في الولد فان الرجل اذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، واذا سبق ماؤها كان الشبه لها ، قال : أشهد أنك رسول الله ، ثم قال : يا رسول الله ان اليهود قوم بهت ، أن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت ، فقال رسول الله ﷺ : أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم ان أسلم عبد الله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج عبد الله اليهم فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه[1] » .

---

(١) البخاري كتاب الانبياء .

٢ ـ النجاشي ملك الحبشة : فلقد أرسل النبي ﷺ اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ، وقد حمل الكتاب عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه ، ولما وصل الكتاب اليه وعلم مضمونه قال : « أشهد بالله إنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب » .

وقد كان النجاشي نصرانياً نسطورياً ، ومذهب نسطور قائم على التوحيد ، وإنكار ألوهية المسيح عليه السلام . وفيما يلي نص كتاب النبي عليه الصلاة والسلام الى النجاشي ، ونص كتاب النجاشي الى رسول الله ﷺ .

نص كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى النجاشي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك الى الله عزّ وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » .

ولما وصل الكتاب اليه وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الارض، ثم أسلم ، ودعا بحق من عاج وجعل فيه كتاب رسول الله ﷺ وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم .

ثم كتب النجاشي الى رسول الله ﷺ الكتاب التالي :

نص الكتاب الذي ارسله النجاشي الى النبي عليه الصلاة والسلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الى محمد رسول الله ، من النجاشي الأصحم بن أبجر : سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني الى الاسلام ، أما بعد : فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والارض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به

الينـا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد إنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين » .

وقال لعمرو حامل الكتابين : « أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وإن بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار ، كبشارة عيسى عليه الصلاة السلام براكب الجمـل ، وإن العيان ليس بأشفى مـن الخبر ، ولكن أعواني مـن الحبشة قليل ، فانظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب[1] » .

٣ ــ اعتراف عبد الله بن صوريا ــ وهو من علماء اليهـود ــ بنبوة محمـد عليه الصلاة والسلام :

أخرج ابن سعد عن أبي هريرة قال : أتى رسول الله ﷺ المدراس ــ موضـع يجلس فيه أهل الكتاب مـن اليهود للدراسـة والقراءة ــ فقال : أخرجـوا الي أعلمكم ، فقالوا : عبد الله بن صوريا ، فخلا به رسول الله ﷺ فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى ، وظللهم به من الغمام ، أتعلم أني رسول الله ؟ قال : اللهم نعم ، وان القوم ليعرفون ما أعرف ، وان صفتك ونعتـك لمبين في التوراة ، ولكنهم حسدوك ، قال : فما يمنعـك أنت ؟ قال : أكره خلاف قـومي ، وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم .

٤ ــ إسلام مخيريق : مخيريق عالم من علماء يهود المدينـة ، وهو مـن بني النضير ، وعندما اخرج رسول الله ﷺ الى أحد قال لليهود : ألا تنصرون محمداً ، والله انكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم ، فقالوا : اليوم السبت ، فقال لا سبت ، وأخذ سيفه بعد أن أسلم ، ومضى الى النبي ﷺ ، فقاتل حتى أثبتته الجراح ، فلما حضره الموت قال : أموالي الى محمد يضعها حيث شاء ، وكانت له بساتين كثيرة ، فجعلها رسول الله ﷺ صدقة تصدق بها على المحتاجين من المسلمين[2] .

---

(١) انظر الكتابين وما بعدهمـا في السيرة الحلبيـة المسماة بانسان العيـون : (٣٤٤/٣ فما بعدها) .
(٢) انظر الاصابة : (٧٣/٦) .

هذا وقصص كثير من اليهود والنصارى الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام بناء على ما قرؤوه في كتبهم وعلموه عن أنبيائهم قصص كثير لا مجال هنا لاستيعابه ، ولكن لقائل أن يقول : أين هذه النصوص من التوراة أو الإنجيل التي تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وتذكر بعض صفاته لتكون دلالة عليه ؟

تبشير النصوص السابقة بمحمد عليه الصلاة والسلام :

النقول الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام مما ورد في الكتب السابقة كثيرة ، تتضمنها بطون كتب العقيدة والسيرة والتاريخ ، ولكننا ننقل هنا حديث العلماء عنها .

إليك بعضاً منها مما كتبه جهابذة العلماء في ذلك :

أولا : قال الامام السنوسي في شرح الكبرى في معرض الاستدلال على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام :

« وأما النقلي فهو نصه تعالى على نبوته في الكتب الماضية ، وذكر الأنبياء له وايصاؤهم على اتباعه ، وهذا الدليل وحده كاف بدون المعجزة ، فان شهادة من ثبتت نبوته لأحد بالنبوة دليل قاطع على ثبوت نبوته ، وان لم تظهر معجزة على يده .

وقد تواترت عن الأحبار الأخبار عن كتبهم وأنبيائهم ، قبل بعثته معينين اسمه وبلده وصفته ، وأيضا فلم يزل نص ثبوته ــ والحمد لله ــ موجودا في التوراة والإنجيل والزبور الى الآن مع مبالغتهم في تبديلها ، وذلك يدل على الاعتناء بأمره فيها ، وكثرة ترديد ذكره فيها على وجه لا يزيل جميعه التبديل ، وقد اطلع علماؤنا رضي الله عنهم على كثير من تلك النصوص فيما بأيدي اليهود والنصارى من الكتب الآن[1] » .

---

(١) انظر شرح الكبرى للسنوسي : (٤٨٥ ــ ٤٩٢) .

ثانيا : وقال القاضي عياض في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى :

« ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب ، من صفته وصفة أمته واسمه وعلاماته ، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه ، وما وجد من أشعار الموحدين المتقدمين من شعر تبع والأوس بن حارثة وكعب بن لؤي وسفين بن مجاشع وقس بن ساعدة ، وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم ، وما عرّف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعثكلان الحميري ، وعلماء يهود وشامول عالمهم صاحب تبع من صفته وخبره ، وما ألفي من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وكتبوه وبينوه، ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم مثل ابن سلام وبني سعية وابن يامين ومخيريق وكعب وأشباههم ، ممن أسلم من علماء يهود ، وبحيراء ونصطور الحبشة وصاحب بصرى وضغاطر واسقف الشام ، والجارود وسلمان والنجاشي ونصارى الحبشة وأساقف نجران وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى .

وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصارى ورئيساهم ، ومقوقس صاحب مصر والشيخ صاحبه ، وابن صوريا وابن أخطب وأخوه ، وكعب بن أسيد والزبير بن باطيا وغيرهم من علماء اليهود ، ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء ، والأخبار في ذلك كثيرة لا تنحصر .

وقد قرع أسماع يهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه ، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم ، وذمّهم بتحريف ذلك وكتمانه وليهم ألسنتهم ببيان أمره ، ودعوتهم الى المباهلة على الكاذب ، فما منهم إلا من نفر عن معارضته ، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره ، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والاموال وتخريب الديار ونبذ القتال ، وقد قال لهم : قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين .

الى ما أنذر به الكهان ، مثل شافع بن كليب ، وشق وسطيح وسواد بن قارب، وخنافر وأفعى نجران ، وجذل بن جذل الكندي ، وابن خلصة الدوسي ، وسعد ابن نبت كريز ، وفاطمة بنت النعمان ومن لا ينعدّ كثرة .

الى ما ظهر على ألسنة الاصنام من نبوته وحلول وقت رسالته ، وسمع من هواتف الجانّ ومن ذبائح النصب وأجواف الصور ، وما وجد من اسم النبي ﷺ والشهادة له بالرسالة مكتوبا في الحجارة والقبور بالخط القديم ما أكثره مشهور ، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور[1] » .

ثالثا : وجاء في كتاب نور اليقين مما بشر به موسى عليه السلام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، ونقله عن الاصحاح الثامن من سفر التثنية :

« وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بني إخوتهم ، وأجعل كلامي في فمه ، ويكلمهم بكل شيء آمره به ، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه ، فأما النبي الذي يجترىء علي بالكبرياء ، ويتكلم باسمي بما لم آمره به ، أو باسم آلهة أخرى فليقتل » .

وجاء فيه أيضا : وروى القاضي عياض في الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فقال : والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزاً للأميين . أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة[2] ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

ومما جاء فيه أيضا عن بشارة عيسى عليه السلام به ﷺ : « بشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ، ومعناه قريب من محمد أو أحمد ... في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي

(١) الشفا : (٣٠٣ - ٣٠٤) .
(٢) روى بعض هذا الحديث الامام الترمذي .

اسمه أحمد » • وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا فقال: « إنه يوبخ العالم على خطيئته ، وأنه يعلّمهم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع • وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم : « وما ينطق عن الهوى • إن هو إلا وحي يوحى » •

وقد ورد في إنجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب ، وأخفته حجب الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة[1] •

وإنجيل برنابا هذا عثر على أول نسخة منه سنة ١٩٠٧ م مكتوبة باللغة الايطالية ، عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا ، وقد ترجمه الى العربية الدكتور خليل سعادة •

رابعا : وكما جاءت البشارة به في الكتابين التوراة والإنجيل جاءت أيضا في كتب أخرى •

ففي كتاب « لماذا أسلمنا » الذي نشرته رابطة العالم الاسلامي ما يلي : « جاء في الكتاب « البارسي » المقدس « دساتير ١٤ » مترجما أصلا من البهلوية : « عندما ينحدر الفارسيون الى الحضيض الخلقي ، سيولد رجل في الجزيرة العربية، يزلزل أتباعه عرشهم ودينهم وكل شيء لديهم ، وسيغلب جبابرة الفرس المتغطرسين ، وإن البيت المعمور ــ أي الكعبة ــ الذي يضم كثيراً من الأصنام سيطهر من هذه الأصنام ، وسيصلي الناس متجهين اليه ، وسيتولى أتباعه على مدن بارسيس وتاوس وبلخ والمواقع الكبرى المحيطة بها ، سيختلف الناس كثيراً بشأنه ، أما عقلاء فارس فسينضمون الى أتباعه[2] » •

هذا وفي الباب نقول كثيرة ، كلها تدور حول أن الكتب القديمة والرسالة السماوية قد بشرت بقدومه ، ووصفته بصفات لا تنطبق هذه الصفات إلا عليه ، عليه الصلاة والسلام •

---

(١) انظر نور اليقين : (٢١ ــ ٢٤) •
(٢) من كتاب لماذا أسلمنا : (١٧٦) •

الغيب والمعـــاد

ويتضمـــن :

١ ـ الملائكة : طبيعتهم وصفاتهم ووظائفهم .

٢ ـ الجن والشياطين : (رفض العقيدة الاسلاميـــة لكل مـــن موقفي الإنكار والخرافـــة .

٣ ـ الحياة الآخرة وعوالمها ومسؤولية الانسان امام الله تعالى .

ـ القبر والبرزخ .

ـ علامات قيام الساعـــة .

ـ البعث والنشور والحشر .

ـ الحساب والميزان .

ـ الحوض والصراط .

ـ الجنـــة والنـــار .

الايمـان بالغيب والمعـاد

تمهيـــد :

الغيب ما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداهة العقل . وهذا الغيب قسمان:

أحدهما : غيب لا دليل عليه ، وهذا النوع هو ما أورده الله سبحانه وتعالى بقوله : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين[1] » . ولا شأن لنا بهذا القسم في هذا المقام .

القسم الثاني : ما نصب عليه دليل من عقل أو خبر صادق ، وذلك كالصانع وصفاته والنبوات وما يتعلق بها من الاحكام والشرائع ، والملائكة واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء .

ولقد امتدح القرآن الكريم المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب مما قام عليه الدليل . فقال سبحانه في أوائل كتابه المجيد : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون[2] » . وقال سبحانه : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير[3] » . وقال سبحانه : « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون[4] » .

---

(١) الانعام : (٥٩) .
(٢) البقرة : (١ ــ ٣) .
(٣) الملك : (١٢) .
(٤) الانبياء : (٤٨ ــ ٤٩) .

وفرض على المؤمنين الإيمان بمغيبات لم يدركوها بأعينهم فقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا[1] » . وقال سبحانه : « ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[2] » .

وعدّ رسول الله ﷺ أركان الايمان ، فذكر هذه المغيبات وجعلها هي أركان الايمان فقال رسول الله ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره[3] » .

والذي يعنينا في هذا المبحث أن نتحدث عن ثلاثة من أمور الغيب مما يجب علينا الايمان به ايماناً جازماً لا ريب فيه وهي :

أولا : الملائكة . ثانيا : الجن . ثالثا : اليوم الآخر وما يتعلق به .

ونحب أن ننبه هنا أن هذه الامور لا مجال لحكم العقل بوجودها أو عدمها ، لأنها ليست من خصائصه ، وحسبه أن يؤمن بإمكانها ، كما إنه لا مجال للتجربة بها أيضا ، وطريق العلم بها هو الخبر الصادق فحسب .

---

(١) النساء : (١٣٦) .
(٢) البقرة : (١٧٧) .
(٣) اخرجه مسلم .

المبحث الاول : الملائكة عليهم السلام

آ ـ الإيمان بهم :

الكتب السماوية السابقة أخبرت بوجود مخلوقات لله سبحانه يسمون الملائكة، كما إن القرآن الكريم تحدث عنهم أيضا ، قال سبحانه : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم[1] » وقال تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر[2] » الى آيات كثيرة في هذا الشأن .

وجعل الاسلام الايمان بهم ركنا من أركان الايمان ، فاذا فقد الانسان الايمان بهم فقد الايمان كله ، فلا يقبل الله ايمانا به حتى ينضم اليه بقية أركان الايمان من ايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر .

وأما الأدلة على وجوب الايمان بهم فآيات قرآنية كثيرة ذكرنا آنفاً شيئاً منها . ومن الآيات ما جاء في خواتيم سورة البقرة ، قال الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير[3] » .

وهناك أيضا أحاديث كثيرة تتحدث عن الملائكة والايمان بهم ، ولقد مرّ بك آنفا حديث عمر بن الخطاب وفيه تعداد أركان الايمان .

---

(١) البقرة : (٣٠ ـ ٣٢) .
(٢) القدر : (٥) .
(٣) البقرة : (٢٨٥) .

ومن الاحاديث التي تدل على الملائكة ووجودهم حديث بدء الوحي ، عندما التقى جبريل مع رسول الله ﷺ أول النبوة في غار حراء ، وقال له : اقرأ ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : ما أنا بقارىء .

وروى مسلم عن أبي عثمان الهندي عن حنظلة الأسيّدي ، قال وكان من كتّاب رسول الله ﷺ ، قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال قلت نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ما تقول ؟ ! قال قلت : نكون عند رسول الله ﷺ ، يذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنّا نراها رأي عين ، فاذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا ، قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ ، قلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنا رأي عين ، فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا . فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » ثلاث مرات[1] .

ب ـ حقيقة الملائكة وصفاتهم :

بما أن الملائكة من عالم الغيب الذي لا نراه بأعيننا ، ولا ندركه بعقولنا ، كان لزاماً علينا أن لا نصفهم إلا بالصفات التي ورد عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وصفهم بها ، سواء أكان ذلك عن طريق القرآن الكريم ، أم عن طريق السنة الصحيحة والمتواترة ، ولا يجوز لنا أن نطلق عليهم صفات من عند أنفسنا من [illegible] الصفات التي ورد عن الشارع [illegible]

[1] أخرجه مسلم في كتاب التوبة رقم (٢٧٥٠) ، ومعنى عافسنا [illegible] .

١ ـ أنهم مخلوقون من نور : ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم[1] » .

٢ ـ أنهم أجسام : وليسوا بأرواح مجردة ، ولكنهم أجسام لا نستطيع رؤيتهم بأعيننا هذه ، فقد يكونون بيننا ولا نراهم .

وقد كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ ولا يراه من كان جالساً معه ، جاء في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : ثم فتر عني الوحي فترة ، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبل السماء فاذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد عن كرسي بين السماء والارض ، فجئثت منه حتى هويت الى الارض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله تعالى « يا أيها المدثر ... الى قوله والرجز فاهجر[2] » .

فالقعود على كرسي بين السماء والارض هو من صفات الاجسام .

وجاء في البخاري أيضا : عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام ، فقالت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى ما لا أرى ، تريد النبي ﷺ[3] .

٣ ـ أنهم أصحاب أجنحة : ولقد ورد ذلك في القرآن الكريم : « الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير[4] » أي إنهم طوائف متنوعة ، فمنهم من لهم جناحان جناحان ، ومنهم من لهم ثلاثة ثلاثة ، ومنهم من لهم أربعة أربعة وهكذا .

---

(١) اخرجه مسلم في كتاب الزهد .
(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق . ومعنى جئثت : رعبت .
(٣) اخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق .
(٤) فاطر : (١) .

وفي البخاري عن عبد الله بن مسعود : « أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح[1] » .

وهل هذه الاجنحة عن الايمان والشمائل كالطيوز ، أو في مقدمتهم أو مؤخرتهم ، أو من فوقهم أو في مكان آخر ؟ لم يرد في ذلك شيء عن الشارع ، فلذلك لا نكلف معرفة هذه الكيفيات التي سكتت عنها النصوص ، ولا تتوقف صحة الايمان بهم على معرفة ذلك .

٤ ـ أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ولا ينامون ، فليس لهم من هذه العادات البشرية شيء ، حتى إنهم لا يموتون إلا بعد النفخة الاولى ، قال تعالى: « ونفخ في الصور فصعق من في السموات والارض[1] » .

ولقد ذم الله سبحانه الكافرين الذين وصفوا الملائكة بالأنوثة ، وتوعدهم بكتابة هذه الشهادة الكاذبة التي ليس عليها من دليل ، وبيّن لهم أنهم سيسألون يوم القيامة عن هذه الافتراءات ، قال تعالى :

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون[1] » .

٥ ـ أنهم منحوا القدرة على التشكل بأشكال مختلفة : لكن بالاشكال الجسمانية الحسنة ، ثبت ذلك في القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

ففي سورة مريم أن جبريل عليه السلام نزل على مريم بأمر الله سبحانه ، في صورة انسان سوي الخلقة يبشرها بعيسى عليه السلام ، قال الله تعالى : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا

---

(١) البخاري في كتاب بدء الخلق .
(٢) الزمر : (٦٨) .
(٣) الزخرف (١٩) .

فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا • قالت إني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيـا • قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا[1] » •

وفي سورة الذاريات الحديث عن الملائكة الذين حلّوا ضيوفاً على ابراهيـم عليه السلام : « هل أتاك حـديث ضيف ابراهيم المكرمين • إذ دخلوا عليـه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ الى آهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم[2] » •

وفي سورة هود عن الملائكة ضيوف لوط ، حينما جاؤوا اليه على صورة شبان مرد حسان أطمعت بهم قومه ، قال لله تعالى :

« ولما جاءت رسلنا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب • وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئآت قال يا قوم هؤلاء بناتي هـن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد[3] » •

وفي صحيح مسلم في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما جاء جبريل الى رسول الله ﷺ على صفة انسان شديـد بياض الثياب شديد سـواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر و لايعرفه أحد من الصحابة ، وأخذ يسأل رسـول الله ﷺ عن الاسلام والايمان والاحسان والساعة وأماراتها ، وبعد أن انصرف بمدة سـأل رسول الله عمر : أتدري من السائل ؟ قال الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم[4] •

ولقد ورد في الحديث أن جبريل كان ينزل على رسـول الله ﷺ في صـورة دحية بن خليفة الكلبي ، وكان حسن الصورة ، وكان من الصحابة •

---

(١) مريم : (١٦ — ١٩) •
(٢) الذاريات : (٢٤ — ٢٨) •
(٣) هـود : (٧٧ — ٧٨) •
(٤) رواه مسلم •

قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة عند الكلام عن دحية :

« كان يضرب به المثل في حسن الصورة ، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته ، جاء ذلك من حديث أم سلمة ، ومن حديث عائشة ، وروى النسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضي الله عنهما : كان جبرائيل يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة دحية الكلبي . وروى الطبراني من حديث عفير بن معدان عن قتادة عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي[1] » .

٦ ــ أنهم لهم قدرات خارقة متعهم الله بها : فهم جنود الله جعلهم قادرين على أشياء يعجز عن الإتيان بمثلها البشر ، كقطع المسافات البعيدة في أسرع من لحظات ، وكحمل الاشياء الثقيلة جدا ، أو نقلها من مكانها ، وذلك مثل الجبال والبلاد وما أشبهها .

وقد قال الله سبحانه وتعالى في بيان سرعتهم وقطعهم المسافات في لحظات : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[2] » .

والروح هنا هو جبريل عليه السلام .

وفي بيان قدرتهم على حمل الجبال وقلب المدن قال الله تعالى في شأن اليهود : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون[3] » . أمر الله تعالى جبريل بأن يرفع فوق رؤوسهم جبل الطور تخويفاً وتهديداً لهم ، فرفعه حتى أصبح كأنه سقيفة فوق رؤوسهم ، وذلك عند تقاعسهم عن العمل بما في التوراة .

---

(١) الاعراف : (١٧١) .
(٢) المعارج : (٤)
(٣) الإصابة : (١٦٢/٢) .

وقال الله سبحانه في شأن الملائكة الذين أرسلوا الى لوط عليه السلام : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود • مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد[1] » وقال تعالى : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون • فأخذتهم الصيحة مشرقين • فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل • إن في ذلك لآيات للمتوسمين • وإنها لبسبيل مقيم[2] » أي قلب الملائكة بأمر الله مدينة لوط فجعلوا عاليها سافلها ، وذلك بسبب كفرهم وارتكابهم الفواحش •

وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : « هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فاذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعثت اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ ثم قال : يا محمد فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ــ هما جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله ــ فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا[3] » •

٧ ــ أنهم مخلوقون قبل خلق آدم عليه السلام ، يدل على ذلك قصة خلق آدم التي ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، منها ما جاء في سورة البقرة « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون • وعلّم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن

---

(١) هود : (٨٢ ــ ٨٣) •
(٢) الحجر : (٧٢ ــ ٧٦) •
(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب « ذكر الملائكة صلوات الله عليهم » •

كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون • وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين[1] » •

٨ ــ أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون : فهم طائعون الله تعالى فيما يأمر ، وهم معصومون عن المعاصي فلا تقع منهم أية معصية ، صغيرة كانت أم كبيرة ، قال الله تعالى : « وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون الليل والنهار لا يفترون[2] » وقال سبحانه : « بل عباد مكرمون • لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[3] » •

٩ ــ أنهم يخافون الله خوف تعظيم : قال الله تعالى : « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته[4] » •

قال سبحانه : « ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون • يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون[5] » •

١٠ ــ أنهم مقربون من الله ومكرمون عنده : قال الله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون[6] » وقال تعالى : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين • وما أدراك ما عليون • كتاب مرقوم • يشهده المقربون[7] » أي الملائكة وقال تعالى في تكريمهم والرد على من جعلهم أولاد الرحمن : « وقالوا

---

(١) البقرة : (٣٠ ــ ٣٤) .
(٢) الانبياء : (١٩) . ومعنى لا يستحسرون : لا يعيون ولا يتعبون .
(٣) الانبياء : (٢٦ ــ ٢٧) .
(٤) الرعد : (١٣) .
(٥) النحل : (٤٩ ــ ٥٠) .
(٦) النساء : (١٧٢) .
(٧) المطففين : (١٨ ــ ٢١) .

اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون • لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » •

اعداد الملائكة :

أعداد الملائكة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، إلا أنه قد ورد في بعض الأحاديث ما يدل على أنهم خلق كثير • كما أشار قوله سبحانه الى ذلك : « وما يعلم جنود ربك إلا هو [1] » • ومما جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله[2] » والأطيط : التصويت •

وظائف الملائكة :

جاء في النصوص الشرعية ما يدلّ على أن الملائكة أصناف ، وأن لكل منهم وظائف أقامه الله سبحانه فيها ، من غير حاجة اليهم ، بل ليدل بذلك على عظمته وقدرته سبحانه وعلو ملكه وسلطانه ، والله سبحانه غني عن العالمين ، فمن وظائفهم الموكلة اليهم :

أولا : الوحي ، وهذه وظيفة خاصة بجبريل عليه السلام ، فهو الذي كان ينزل على الأنبياء والرسل بالوحي ، قال الله سبحانه منوهاً بوظيفته هذه ومبيناً أمانته فيها : « وإنه لتنزيل من رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين[3] » •

ولقد أشار القرآن الكريم الى أفضليته على سائر الملائكة ، إذ خصه بالذكر وقدمه في الترتيب على سائر الملائكة في القرآن الكريم ، وجعله ناصراً لرسوله في معرض تهديد نساء الرسول ، فقال تعالى : « فإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير[4] » •

---

(١) المدثر : (٣١) .
(٢) اخرجه الترمذي برقم : (١/٢٣١٣ واخرجه ابن ماجه في الزهد .
(٣) الشعراء : (١٩٢ — ١٩٤) .
(٤) التحريم : (٤) .

وسماه الله سبحانه روح القدس ، وذلك تكريماً له ، فقال تعالى : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروخ القدس[1] » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فان الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته[2] » .

ثانيا : الموكلون بالأرزاق وأسبابها من السحب والأمطار والرياح ، وذلك كميكائيل عليه السلام .

ثالثا : النفخ في الصور ، وهذا وارد في اسرافيل عليه السلام ، فانه قد ورد أنه صاحب الصور الذي ينفخ فيه بأمر الله النفخة الاولى ، فيهلك من في السموات والارض إلا من شاء ربك استثناءهم من الموت بهذه النفخة ، لأن الله يتولى قبض أرواحهم بيده ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث الى الحياة بعد الموت . قال الله تعالى :

« ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون[3] » . والصور : شيء كالبوق .

رابعا : قبض الأرواح . وهل الذي يتولى ذلك ملك واحد ، أو يقوم بذلك ملائكة كثر ؟ ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن ملائكة الموت أكثر من واحد ، فقال الله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون[4] » وقال سبحانه : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق[5] » . وورد أيضا ما يدل على أنه واحد ، فقال الله تعالى : « وقالوا أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون[6] » .

---

(1) البقرة : (٨٧) .
(٢) اخرجه أبو نعيم في الحلية .
(٣) الزمر : (٦٨) .
(٤) الانعام : (٦١) .
(٥) الانفال : (٥٠/١) .
(٦) السجدة : (١١) .

فكيف يكون الجمع بين هذه الآيـات ؟

الواقع أن الذي يتولى عملية الموت هم صنف من الملائكة يرأسهم ملك الموت عزرائيل عليه السلام ، فتارة أسند هذا العمل الى رئيس الملائكة ، وتارة أسند ذلك الى أتباعه من الملائكة ، والأتباع يقومون بمعالجة الروح من الجسد ، وملك الموت يقبض الروح • هذا وقد ورد تسمية ملك الموت بعزرائيل في بعض الآثار ، ومعناه عبد الجبار • قال ابن كثير : « وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وهكذا ورد أن أعوانه ينتزعون الارواح من سائر الجسد حتى اذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت • قال مجاهد : حويت له الارض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء ، ورواه زهير بـن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسلا ، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما[1] » •

وقد ورد في الحديث ما يدل على أن ملك المـوت يأتي الكافر بشكل مخيف مرعب ، وينزع روحـه بشدة وعنف ، وأنـه يأتي المؤمـن بشكل حسن ، ويقبض روحه بلين ورفق • ولقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله : « والنازعات غرقا • والناشطات نشطا » • قال الفخر الرازي في تفسيره عند ذكر هذه الآية : « فقولـه والنازعات غرقا هي الملائكة الذين ينزعـون نفوس بني آدم ، فاذا نزعـوا نفوس الكفار نزعوها بشدة ، وهو مأخوذ مـن قولهم : نزع في القوس فأغرق ، يقـال : أغرق النازع في القوس اذا بلغ غاية المد حتى ينتهي الى النصـل ، فتقدير الآيـة : والنازعات إغراقا ، والغرق والإغراق في اللغـة بمعنى واحد ، وقولـه والناشطات نشطاً ، النشط هو الجذب ، يقال : نشطت الدلو أنشطها ، وأنشطتها نشطا : نزعتها برفق ، والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها ، وانما خصصنا هـذا بالمؤمن والاول بالكافر ، لما بين النزع والنشط من الفرق ، فالنزع جذب بشـدة ، والنشط جذب برفق ولين ، فالملائكة تنشط أرواح المؤمنين ، كما تنشط الدلو من البئر ، فالحاصل أن قوله : والنازعات غرقا والناشطـات نشطا قسم بملك المـوت

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣/٤٥٨) •

وأعوانه ، إلا أن الاول إشارة الى كيفية قبض أرواح الكفار ، والثاني الى كيفية قبض أرواح المؤمنين [1] » .

خامسا : حفظ الانسان من شر كل ذي شر : فلا يصيب الانسان شيء من ذلك إلا اذا كان فيه قضاء لله وقدر ، قال الله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال [2] » .

ومعنى الآية : أن للانسان ملائكة يتعقبونه ، لا يفارقونه ، بل يرافقونه من جميع الجهات ، من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من المخاطر الظاهرة والخفية ، وذلك بأمر من الله تعالى ، وإن الله لا يغير ما نزل بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة ، واذا أراد الله بقوم هلاكا وعذابا ، فلا يقدر أحد من المعقبات ولا من غيرها أن يردّ ما نزل بهم من قضائه وقدره ، وليس لهم اذا أراد الله بهم ذلك من والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم من دون الله سبحانه .

سادسا : نفخ الارواح في الأجنة وكتابة مستقبل أعمالها وآجالها وأرزاقها ، وسعادتها أو شقاوتها .

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك ، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن منكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ،

---

(١) تفسير الفخر الرازي : (٣١٥/٨) .
(٢) الرعد : (١١) .

فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[1] » .

سابعا : كتابة أعمال المكلفين : من خير أو شر ، فلقد وكل الله بكل مكلف ملكين اسم كل واحد منهما رقيب عتيد ، لا أن واحداً منهما يسمى رقيباً والآخر عتيداً ، قال الله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[2] » .

وهذان الملكان لا يغفلان شيئاً مما يفعله الانسان ، وقد أعطاهما الله سبحانه القدرة على علم جميع ما يقوم به الانسان من عمل دقّ أو عظم ، قال الله تعالى : « كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون[3] » .

قال الامام اللقاني في جوهرة التوحيد :

بكل عبد حافظون وكلوا   وكاتبون خيرة لن يهملوا

من أمره شيئاً فعل ولو ذهل   حتى الأنين في المرض كما نقل

ثامنا : القيام برعاية أهل الجنة ونعيمهم : قال الله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[4] » وقال سبحانه : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين[5] » .

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، ومسلم في كتاب القدر .
(٢) ق : (١٧ – ١٨) .
(٣) الانفطار : (٩ – ١٢) .
(٤) الرعد : (٢٢ – ٢٤) .
(٥) الزمر : (٧٣) .

تاسعا : القيام بشؤون أهل النار وعذابهم : قال الله سبحانه : « سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ...[1] » وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[2] » .

وملائكة العذاب هؤلاء يسمون « الزبانية » قال الله تعالى : « كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندعو الزبانية[3] » .

ورئيس ملائكة النار اسمه مالك ، قال الله تعالى :

« إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون[4] » .

عاشرا : بشارة المؤمنين عند الموت : قال الله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون[5] » . وهناك وظائف أخرى للملائكة مذكورة في القرآن الكريم والاحاديث النبوية .

اثر الايمان بالملائكة في حياة الانسان :

للايمان بالملائكة على اختلاف صفاتهم ووظائفهم آثار وفوائد كثيرة في حياة الانسان نذكر لك أهمها فيما يلي :

---

(١) المدثر : (٢٦ — ٣١) .
(٢) التحريم : (٦) .
(٣) العلق : (١٥ — ١٨) .
(٤) الزخرف : (٧٤ — ٧٧)
(٥) فصلت : (٣٠ — ٣١) .

١ ـ البرهان على صدق الايمان : إذ إن الملائكة ليسوا من عالم الشهادة ، بل هم من عالم الغيب ، وقد أوجب الله علينا الايمان بهم ، وجعل الايمان بالغيب من أبرز صفات المؤمن ، قال تعالى : « الم • ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » فاذا آمن الانسان بهم مع أنه لم يرهم ، واعتمد في ذلك على الأخبار الصادقة ، دلّ ذلك على صدق ايمانه وتمامه وصحته •

٢ ـ تنمية الشعور بالمسؤولية ودوام المراقبة لله سبحانه : الايمان باليوم الآخر يعني الايمان بالبعث بعد الموت ، وبالحشر والحساب ، والثواب والعقاب ، وهذا معناه ، أن نؤمن بمسؤوليتنا أمام الله في الدار الآخرة •

ومما يقوي وينمي الشعور بالمسؤولية اعتقادنا أن الله سبحانه قد وكل بنا ملائكة يحصون علينا أعمالنا صغيرة كانت أم كبيرة ، وهم معنا يطلعون علينا ، ويسجلون ذلك في سجلات سوف تنشر في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم •

٣ ـ تقوية الشعور برحمة الله وعظمته : وذلك حينما يعلم أن الله جلت حكمته ، قد وكل بهذا الانسان من يحافظ عليه ويصونه من الأذى ، كما أنه يستغفر للعصاة من المؤمنين • قال الله سبحانه : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم[1] » •

٤ ـ تقوية ثقة المؤمن بنصر الله وتأييده : وذلك عندما يعتقد المؤمن أن هناك ملائكة قد كلفوا بنصره وتأييده ، كما حدث ذلك لرسول الله ﷺ في بدر وفي حنين ، فتقوى عند ذلك ثقة المؤمن بأن الله سينصره ويؤيده بالملائكة ما دام ينصر دين الله بصدق •

---

(١) غافر : (٧) •

٥ ــ حمل الانسان على التشبه بهم ، في الإقدا معلى الطاعات ، والإبتعاد عن المعاصي : وذلك حينما يعلم أن الملائكة دأبهم طاعة الله وتمجيده ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فيحمله ذلك على التشبه بهم ، والسير على نهجهم ، فتقوى بذلك معانيه الروحية ، ويتدرج في مدارج الكمال .

المبحث الثاني

الجن والشياطين والاعتقاد بوجودهم

من الأمور المغيبة التي لا يصل الانسان الى معرفتها عن طريق الحس ، ولا عن طريق العقل ولا عن طريق التجربة ، الجن والشياطين ، وإليك فيما يلي بيان حقيقتهم وحكم الايمان بوجودهم وما يتصل بذلك.

آ ــ معنى الجن والشياطين لغة وشرعاً :

الجن في اللغة مأخوذ من جنّ ، وهذه المادة تدل على الاستتار والاختفاء ، ومنها أخذ المجنون لاستتار عقله ، والمجن الترس الذي يستجن به المقاتل ويستتر ، والجنين لاستتاره واختفائه في بطن أمه ، والجنة ذات الشجر والنخل ، لسترها الارض . والجن في عرف الشرع هم هؤلاء المخلوقات التي سيأتي وصفهم ، وانما سموا جناً لاستتارهم واختفائهم عن أبصارنا .

وأما الشياطين فهم جمع شيطان ، وهو مأخوذ من شطن ، وأصل المادة هذه تدل على البعد ، فيقال : بئر شطون اذا كانت بعيدة القعر ، وغزوة ونية شطون أي بعيدة ، والشيطان كل عات متمرد من إنس أو جنّ أو دابة ، سمي بذلك لبعده عن رحمة الله ، وقيل هو مأخوذ من شاط ، بمعنى هلك ، سمي بذلك لأن نهايته الى الهلاك ، وليس المراد من الشيطان هنا العموم واللغوي ، بل المراد بالشيطان هذا

الكائن من الجن الذي خرج عن طاعة الله وأمره ، وعتى عتواً كبيراً • فالشياطين اذاً هم صنف من الجن ، وليسوا شيئا غير ذلك •

ب ـ وجوب الاعتقاد بوجودهم وادلة ذلك .

الاعتقاد بوجود الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة ، تضافرت الأدلة على وجودهم فمن أنكر وجودهم فقد خرج من الاسلام ، كالايمان بالملائكة سواء بسواء • والأدلة على وجودهم هي أدلة سمعية متواترة ، وحسب العقل في هذا الميدان أن يعتقد أن وجودهم من الأمور الممكنة •

فمن الأدلة القرآنية الدالة على وجودهم أن الله أنزل سورة أسماها باسمهم ، وتحدث عنهم فيها ، وكان في مطلعها قوله تعالى : « قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً • يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً[1] » •

وقال سبحانه وتعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[2] » وقال تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان[3] » •

وأخبر الله سبحانه أنه صرف اليه جماعة من الجن ليستمعوا اليه ، قال تعالى : « وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم • يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم[4] » •

---

(١) الجن : (١ ـ ٢) .
(٢) الذاريات : (٥٦ ـ ٥٨) .
(٣) الرحمن : (٣٣) .
(٤) الاحقاف : (٢٩ ـ ٣١) .

كا لا يحصره العدّ لكثرته ، وقد بلغ مبلغ التواتر .

ففي البخاري أن رسول الله ﷺ قال لأبي سعيد الخدري : « اذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ، فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة[1] » .

وفي البخاري أيضا عن ابن عباس قال : « انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الارض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ، فانطلقوا فضربو امشارق الارض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء ، قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة الى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد الى سو قعكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا الى قومهم فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ..[2] » .

وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : « اذا كانت أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، ونادى منادٍ : يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، ولله عتقاء من النار ، وذلك في كل ليلة[3] » .

الى غير ذلك من الحديث الوارد في مختلف كتب الحديث .

---

(١) البخاري في كتاب التوحيد وغيره .
(٢) البخاري كتاب التفسير .
(٣) سنن ابن ماجه برقم : (١٦٤٢) .

جـ ـ عقيدة الناس بالجن :

أكثر أهل الملل والنحل ، وخاصة أتباع الرسل ـ معتقدون بوجود الجن ، باعتبار أن الانبياء ـ وهم صادقون بلا مرية ـ قد أخبروا بوجودهم ، ولا يتم إيمان المؤمن بالله إلا بأن يصدق بجميع ما يخبر به رسوله .

قال الامام الفخر الرازي : « وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجو دالجن ، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ، ويسمونها بالأرواح السفلية ...[1] » .

لكن الجدل قد كثر بين أهل الملل من ناحية ، وبين بعض الفلاسفة القدماء ومتفلسفة المحدثين من ناحية أخرى ، حول اثبات هؤلاء المخلوقات ، ولا تعدو أدلة المنكرين أن تكون أدلة تافهة ، لا تقوى على المناقشة لو سلموا بمبدأ صدق خبر الرسل اذ ان هؤلاء ليس لهم من دليل على نفي وجودهم إلا أن يقولوا : لم يثبت لنا وجودهم عن طريق حواسنا . فهم غير موجودين ، وقد سبق في مباحث العقيدة وثبوتها سقوط هذا الاستدلال ، وأنه لا يصح الاعتماد عليه بحال من الاحوال . لأن عدم الوجدان لا يستلز مءدم الوجود ، وأن مسالك اليقين ليست منحصرة في في الادراك الحسي ، فهنالك مسلك الاستنتاج العقلي ، وهناك مسلك الخبر الصادق ، ويكفي في اثبات حقيقة من الحقائق أن تعتمد على أي مسلك من مسالك اليقين .

ويظهر سقوط استدلال هؤلاء المنكرين بشكله الخاص ، بعد أن كشف العلم الحديث م نخفايا الكون الشيء الكثير ، وأظهر من القوى المعنوية الكامنة في هذا الكون ما يدهش العقول ، ولا يزال العلم مطرداً في بحثه وكشفه ، حتى كادت العقول أن تستسهل التسليم بالمستحيلات فضلا عن الممكنات .

---

(١) مفاتيح الغيب : (٨/٢٢١) .

د ـ حقيقة الجن وصفاتهم :

الجن كالملائكة من الأمور الغيبية التي لا نعلم عن وجودها إلا عن طريق الخبر الصادق ، وكذلك لا نعلم عن حقيقتها وصفاتها إلا من الطريق نفسه ، وقد جاءنا عن طريق الخبر الصادق ـ أي عن رسول الله ﷺ ـ ذكر بعض من حقيقتهم وصفاتهم وحسبنا أن نقتصر في ذلك على ما وردت به النصوص ، ولقد أوضح القرآن الكريم الصفات التاليـة :

١ ـ أنهم صنف غير صنف الملائكة والانسان ، فهم مخلوقون من مارج من نار ، أي من أخلاط نار صافية ، قال تعالى : « خلق الانسان من صلصال كالفخار • وخلق الجانّ من مارج من نار[١] » وقال سبحانه : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون • والجان خلقناه من قبل من نار السموم[٢] » • وقـال سبحانه في احتجاج إبليس حين أمره بالسجود لآدم : « قال ما منعك أن تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين[٣] » •

زعم إبليس أن عنصر النار أشرف من عنصر التراب ، ولذلك لا يليق بـه أن يسجد لآدم ، وبرر استكباره عن طاعة الله تعالى بذلك ، ظاناً أن المسألة مسألة تفاوت في العناصر ، وجاهلاً أن الافضل هو الاكثر تقربا الى الله بطاعته •

وقال سبحانه في بيان حقيقـة الملائكة وأنهم غـير الجن : « الحمـد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلا ث وربـاع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير[٤] » وقال سبحانـه : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عـن أمر ربه أفتتخذونـه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا[٥] •

---

(١) الرحمـن : (١٤ ـ ١٥) . الصلصال : الطين اليابس الذي لم يطبـخ ، اذ له صلصلة اذا نقر ، فاذا طبخ فهو الفخار .

(٢) الاعراف : (١٢) .

(٣) الحجر : (٢٦ ـ ٢٧) .

(٤) فـاطر : (١) .

(٥) الكهف : (٥٠) .

٢ ــ أنهم مخلوقون قبل الإنس ، ولقد مرّ آنفاً آيات تدل على ذلك ، وقصة آدم التي ذكرت في القرآن أكثر من مرة توضح أن إبليس وهو من الجن ، قد كان موجودا قبل آدم عليه السلام .

٣ ــ أنهم يتناسلون ولهم ذرية : قال الله سبحانه : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » .

ولقد أقر الله سبحانه ما ذكره النفر من الجن الذين استمعوا للقرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام ، حين ذكروا أن في الجن رجالا أي ذكورا ، ومتى كان فيهم رجال فمن الطبيعي أن يكون فيهم إناث ، وذلك يستلزم وجود التناسل ، قال الله تعالى في حكاية ذلك عنهم : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا[1] » .

أخرج ابن جرير عن منصور عن ابراهيم في قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن .. » كانوا اذا نزلوا الوادي قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي ، من شر ما فيه ، فتقول الجن : « ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعا » .

ونقل ابن جرير مثل ذلك عن جمهرة من مفسري السلف .

٤ ــ أن من شأنهم أنهم يروننا من حيث لا نراهم ، قال الله تعالى في صفة الشيطان وأتباعه ــ وهم من الجن كما مرّ ــ : « يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون[2] » قال الاما مالفخر الرازي عند تفسير هذه الآية :

---

(١) الجن : (٦) . يعوذون : يحتمون ويلتجئون. رهقا : اي إثما وتعبا وضلالا.
(٢) الاعراف : (٢٧) .

« قال أصحابنا : إنهم يرون الإنس لأنه تعالى خلق في عيونهم إدراكا ، والإنس لا يرونهم لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس . وقالت المعتزلة : الوجه في أن الإنس لا يرون الجن لرقة أجسام الجن ولطافتها ، والوجه في رؤية الجن للإنس كثافة أجسام الإنس ، والوجه في أن يرى بعض الجن بعضاً أن الله تعالى يقوّي شعاع أبصار الجن ويزيد فيه ، ولو زاد الله في قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضا ، ولو أنه تعالى كشف أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة لرأيناهم ، فعلى هذا كون الإنس مبصراً للجن موقوف عند المعتزلة إما على زيادة كثافة أجسام الجن ، أو على زيادة قوة إبصار الإنس[1] » .

ويفهم من هذا الكلام أن الإنس لا يرون الجن ما داموا على حالتهم التي هم عليها ، وأما لو تحولوا الى شكل آخر فمن الممكن رؤيتهم ، وسيأتي بحث عن هذا ان شاء الله تعالى .

٥ ـ أنهم مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة ، وذات إرادة واختيار ، فهم في ذلك كالإنس ، وهم مكلفون بالايمان والعبادة ، منهيون عن الكفر والعصيان ، اذ كثير من خطابات التكليف والتحدي في القرآن الكريم ، يجمع الله فيها بين الجن والإنس، قال الله تعالى :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[2] » وقال سبحانه :

« يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين[3] » وقال جل وعلا :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[1] » .

---

(١) مفاتيح الغيب : (٢٠٢/٤ ـ ٢٠٣) .
(٢) الذاريات : (٥٦ ـ ٥٨) .
(٣) الانعام : (١٣٠) .
(٤) الاسراء : (٨٨) .

٦ ــ أن الجن قسمان : مؤمنون وكافرون ، وهذا تابع لما منحهم الله إياه من الإرادة والاختيار ، والكافرون منهم شياطين ، وهم جنود الشيطـان الأكبر إبليس اللعين ، الذي كان أول من عصى أمر ربه من الجن ، وأول من كفر بنعمة الله منهم ، قال الله تعالى حكاية عنهم :

« وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا • وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا[٢] » •

٧ ــ أنهم يحشرون يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم ، فيثابون ويعاقبون ، قال الله سبحانه وتعالى :

« ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم[٣] » وقال الله تعالى مقررا عقوبـة الكافرين من الجـن :

« وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعـين[٤] » ولا تكون عقوبة إلا بعد مخالفة ناشئة عن تكليف •

٨ ــ أن لهم قدرات كبيرة ومهارات صناعية فائقة • فقد سخر الله لسليمـان الجن يقومون له بأعمال البناء الضخـم والغوص في البحار ، والاعمال الصناعيـة الرائعة كالجفان الكبيرة والقدور الراسية ، والاعمال الفنية كالتماثيل والصـور ، وقد كانت جائزة ثم حرمت في الاسلام ، الى غير ذلك من الاعمال ، قال الله تعالى :

« فسخرنا الريـح تجري بأمره رخاء حيث أصاب • والشياطـين كـل بنـاء وغواص[١] » • وقال سبحانه حكاية لقول أحد الجن من جنود سليمان عليه السلام الذين سخرهم الله له : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك

---

(١) الجـن : (١٤ ــ ١٥) . والقاسطون : الظالمون الجائرون الحائدون عـن الصراط الحـق .
(٢) الانعـام : (١٢٨) .
(٣) هـود : (١١٩) .
(٤) ص : (٣٦ ــ ٣٧) .

وإني عليه لقوي أمين[1] » وقال الله سبحانه في وصف أعمال الجن الذين سخرهم الله لسليمان عليه السلام : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات[2] » •

٩ ـ أنهم كانوا قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام يسترقون السمع من أفواه الملائكة من السماء ، وينقلونها الى قرنائهم من الإنس في الارض •

قال الاما مالقرطبي : « قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعاً ، فيحدثون بها أهل الارض ، الكلمة حق والتسع باطل ، فاذا أرادوا شيئا مما قالوه صدقوهم فيما جاؤوا به ، فلما ولد عيسى ابن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب[3] » •

وقد ذكر الله هذا حكاية عن النفر من الجن الذين آمنوا بالرسول الكريم ، قال تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا • وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا[4] » • وقال تعالى :

« ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين • وحفظناها من كل شيطان رجيم • إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين • وقال تعالى[5] •

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب•وحفظاً من كل شيطان مارد•لا يسمّعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب • دحوراً ولهم عذاب واصب • إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب[6] •

١٠ ـ أن لهم قدرة على التشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية ، وهذا ما جاء في الاحاديث الصحيحة • فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

---

(١) النمل : (٣٩) . والعفريت : الماكر القوي .

(٢) سبأ : (١٣) . المحاريب : الابنية المرتفعة يصعد اليها بدرج . الجفان : القصاع . الجوابي : احواض الماء .

(٣) الجامع لاحكام القرآن : (١٠/١٠٠) .

(٤) الجن : (٨ ـ ٩) .

(٥) الحجر : (١٦ ـ ١٨) .

(٦) الصافات : (٦ ـ ١٠) . دحوراً : طردا . واصب : دائم .

« وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : والله لأرفعنّك الى رسول الله ﷺ ، قال : إني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال فقلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما إنه قد كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنك الى رسول الله ﷺ ، قال : دعني فإني محتاج وعليّ عيال لا أعود ، فرحمته فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ، قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما إنه قد كذبك وسيعود ، فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك الى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم لا تعود ثم تعود ، قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هي ، قال : اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي : الله لا إله إلا هو الحي القيوم .. حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ، قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله ، قال : ما هي ؟ قلت قال لي : اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، وقال لي :لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي ﷺ : أما إنه قد صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان[1] » .

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي ، فأمكنني الله منه فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا اليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان: ربّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي . فرددته خاسئاً[2] » .

---

(1) البخاري في كتاب الوكالة : (٣/٦٣ — ٦٤) .
(2) البخاري في كتاب الانبياء : (٤/١٣٦) .

وفي النسائي عن أبي الدرداء : « والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً بها ، يلعب به ولدان أهل المدينة[1] » .

هذا وكان الجن يظهرون لسليمان عليه السلام ، وكان يسخرهم في أعمال جسيمة كما سبق ، كما كان عليه السلام مسلطا على عقاب المسيئين منهم ، فيقرنهم في الأصفاد ، قال الله تعالى : « والشياطين كل بنّاء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد[2] » .

هذا ومهما قلنا بجواز تشكلهم بأشكال جسمية ، فان هذه الاشكال تبقى محصورة في اطار كثافة يكون بها قدرة عند الانسان على رؤيتهم ، لا أن لهم قدرة على أن يتشكلوا بالشكل الذي يريدونه كما يتوهم بعض الناس . قال الفخر الرازي : « قال بعض العلماء :ولو قدر الجن على تغيير صورة أنفسهم بأي صورة شاؤوا وأرادوا لوجب أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس ، فلعل هذا الذي أشاهده وأحكم عليه بأنه ولدي أو زوجتي جني صوّر نفسه بصورة ولدي أو زوجتي ، وعلى هذا التقدير فيرتفع الوثوق عن معرفة الاشخاص[3] » .

هـ ـ هل للجن تأثير على اجسام الإنس ؟

قد يؤثر بعض خبثاء الجن بعض التأثير في أجسام بعض من الإنس ، ولكن يكون هذا التأثير على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم من ذكر أو أنثى ، أو يتعرض لتقبل مسّهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم والتماسه نفعهم ، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس ، أو يغفل عن ذكر وتلاوة القرآن ، ويتجافى عن التحصن من شرهم بالأوراد المأثورة ، والاستعاذات الدائمة بالله من كيدهم . أما من لم يكن كذلك فلا سبيل للشيطان عليه بحال .

---

(١) النسائي في كتاب سجود السهو : (١٣/٣) .
(٢) ص : (٣٧ ـ ٣٨) .
(٣) مفاتيح الغيب : (٢٠٣/٤) .

وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نستعيذ بالله من همزات الشياطين ومن حضورهم • ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « اذا فزع أحدكم في النوم فليقل : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فانها لن تضره » وهذا ما جاء طلبه في القرآن الكريم من الرسول عليه الصلاة والسلام : « وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك ربّ أن يحضرون[1] » •

وروى أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذه الحشوش محتضرة ــ أي يحضرها الشياطين يترصدون بني آدم بالأذي ــ فإن أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخُبث والخبائث » الخبث : جمع خبيث ، والخبائث جمع خبيثة •

قال الامام الفخر الرازي : « لو كانوا قادرين على تخبيط الناس وإزالة العقل عنهم مع أنه تعالى بيّن العداوة الشديدة بينهم وبين الإنس ، فلم لا يفعلون ذلك في حق أكثر البشر ، وفي حق العلماء والأفاضل والزهاد ، لأن هذه العداوة بينهم وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى ، ولما لم يوجد شيء من ذلك ثبت أنه لا قدرة لهم على البشر بوجه من الوجوه ، ويتأكد هذا بقوله تعالى : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي[2] » •

و ــ هل يلقي الجن للإنس علوماً واخباراً ؟ :

أما العلوم والأخبار التي يمكن أن يلقيها الجن الى قرنائهم من الكهان ، فهي بحسب مواضيع هذه العلوم التي يلقونها :

آ ــ فإن كانت من العلوم التي تتعلق بالأمور المشهودة أو الاخبار عن الوقائع

---

(١) المؤمنون : (٩٧ ــ ٩٨) •
(٢) مفاتيح الغيب : (٢٠٣/٤) •

الماضية ، فانها أخبار تحتمل الصدق والكذب كأخبار الناس ، وليس ببعيد أن يوجد في الجن كذابون ، وقد بيّن الله أن منهم العصاة والكافرين ، ومن جهة ثانية فانه لا يصح الثقة بشيء من أخبارهم ، لانعدام مقاييس تحديد الصادقين والكاذبين فيهم بالنسبة الينا .

ب ـ وإن كانت من المغيبات فهي إما أن تكون من المغيبات التي استأثر الله بعلمها ، وهذه لا يمكن لإنس ولا جن معرفة شيء منها ، ولا يكون التحدث بشيء منها إلا كذبا وافتراء على الله تعالى ، وارداً على لسان أحد القرينين من الإنس والجن .

وإما أن تكون من المغيبات التي قضي أمرها في السماء ، وأصبحت معلومة لذوي الاختصاص من الملائكة ، كما أصبحت معدة لتبليغها للملائكة الموظفين بتنفيذ أمر الله فيها ، فهذه قد جاء فيها عن رسول الله ﷺ ما يلي :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الملائكة تنزل في العنان ـ السحاب ـ فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه الى الكهان فيكذبون مائة كذبة من عند أنفسهم[1] » .

وهذا هو استراق الشياطين السمع من الملائكة بعد نزولها الى جوّ الارض ، وليس هو استراقها السمع من السماء ، كما كان دأبهم قبل بعثة محمد ﷺ الذي منعوا منه بالشهب .

وفي تكذيب من يلقي سمعه للشياطين ، وإثمه الكبير في ذلك ، قال الله تعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون[2] » .

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق .
(٢) الشعراء : (٢٢١ ـ ٢٢٣) .

ز ـ هل للشياطين سلطان على الإنس في عقائدهم وإراداتهم واعمالهم ؟ :

أمّا أن يكون للشياطين سلطان على الإنس في عقائدهم ، وتوجيه إراداتهم للاعمال السيئة ، فذلك مما لا سبيل لهم اليه ، لأن الله جلّ وعلا حجزهم عن ذلك ، ولم يجعل لهم سلطانا على بني آدم ، لتكون إرادة الناس حرة في اختيارها طريق الخير أو طريق الشر .

ويخاطب الله رأس الشياطين إبليس ، وأقدرهم على سلطان ، إن كان للشياطين سلطان ، فيقول سبحانه وتعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين[1] » .

ولكن ينحصر عمل الشيطان في نفس الانسان بالوسوسة الخفية ، وهذه تخنس وتتخاذل أمام حزم المؤمن وإرادته القوية الملتجئة الى الله تعالى ، بالاستعاذة والذكر والمراقبة .

أما إخوان الشياطين فانهم يستجيبون لوسوستهم ، وينساقون معهم ، فيتسلط الشياطين عليهم ، ويمدونهم في الغي والضلال ، ويزينون لهم أصناف الشر ، ولا يألون جهداً في ذلك ، ويشهد لجميع ذلك قوله تعالى : « قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين[2] » وقوله جل وعلا : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم . ان الذين اتقوا اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون[3] » .

كما يشهد بأن حدود عمل الشيطان انما هي الوسوسة الخفية ، والدعوة الى

---

(1) الحجر : (٤٢) .
(٢) الحجر : (٣٦ ـ ٤٠) .
(٣) الاعراف : (٢٠٠ ـ ٢٠٢) .

الشر من داخل النفس ، تبرؤ الشيطان يوم القيامة من أنه كان ذا تأثير على الانسان في إغوائه في الدنيا ، ففي حكاية ما سيقوله الشيطان يوم القيامة قال الله تعالى :

« وقا لالشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم[1] » .

وقد جعل الله في مقابلة وسوسة الشيطان ــ التي هي من دواعي الشر ــ داعياً للخير عن طريق ملك من الملائكة ، لإيجاد التوازن في امتحان إرادة الانسان ، فلقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال :

« إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا[2] » .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير[3] » .

ح ــ الاعتقاد بوجود الجن بين الإفراط والتفريط :

لقد علمت فيما مرّ أن الاعتقاد بوجود الجن ليس طريقه العقل ولا التجربة

---

(١) ابراهيم : (٢٢) .
(٢) الترمذي برقم : (٢٩٩١) .
(٣) اخرجه مسلم .

ولا المشاهدة ، وانما طريقه الوحيد هو الخبر الصادق الوارد في كتاب الله ، وما صح من سنة رسول الله ﷺ ، وقد ورد فيهما ما يدل دلالة قطعية على وجودهم ، ولذلك لا مجال لإنكار ذلك ، وفي شريعة الاسلام أن منكر وجودهم كافر خارج عن الملة الاسلامية لمخالفته الأدلة القطعية في ثبوتها ودلالتها •

إلا أن هناك جماعة ألقوا بهذه الأدلة دبر آذانهم فلم يؤمنوا بوجودهم ، وما ذلك إلا لانعدام الايمان بالله وبما جاء من عند الله ، فما لم يؤمنوا بذلك فمن العسير الإقناع بوجود الجن كالإقناع بوجود الملائكة ، بل كالإقناع بوجود اليوم الآخر ، اذ جميع ذلك لم يأتنا إلا عن طريق الخبر الصادق •

وإني لأعتقد أن من الاسباب التي حملت كثيرا من الناس على إنكار وجود الجن هو ما أدخل على مفهوم الجن من خرافات وأكاذيب وأضاليل ، مما لا يقبله عقل عاقل مما سنذكره قريبا ، ونحن اذ ننادي بضرورة الايمان بوجود الجن ، فانما نعني بذلك المخلوقات التي مرّ ذكرها وأوصافها آنفاً ، وهذا ما ليس عند العقل دليل على امتناعه واستحالته ، بل إن العقل الصحيح والتفكير السليم ينادي بإمكانه وجوازه •

في مقابلة هذه الفئة المنكرة قامت فئة أخرى تؤمن بالجن ، ولكن لا على الكيف الذي تحدثت عنه الأدلة القرآنية والاحاديث النبوية ، بل إنها أدخلت على هذه العقيدة الادعاءات الكاذبة التي يقوم بها بعض من يدعي الاتصال بالجن ، والافتراءات التي يفترونها ، على الله ، فينسبون الى الجن بعض العلم بالغيب ، وينقلون عنهم كذبا يزعمونه من علم الغيب ، ويتلاعبون بعقول السذج من النساء وصغار العقول • وما يخبرون به وان كان يقع بعضه فانما يقع من قبل المصادفات ، لا من قبيل العلم الحقيقي بما يقع ، وقد يدعي هؤلاء قدرة الجن على النفع أو الضر ، والجن أنفسهم لا حول لهم ولا طول ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا أن يشاء الله تعالى •

وقد بيّن القرآن الكريم أن أهل الجاهلية الذين كانوا يعوذون برجال من

الجن لم ينفعهم الجن بشيء ، بل زادوهم غياً وضلالا ، وبعـداً عن الأمن الـذي يرجونـه منهـم •

كما نددت الأحاديث الكثيرة بالذين يصدقون الكهنة والمنجمين ، ويعتمدون عليهم ويرجون نفعهم أو يخشون ضرهم ، وعدّت ذلك شركاً بالله سبحانه •

روت حفصة أن رسول الله ﷺ قال :

« من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة[1] » •

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال : « قلت يا رسول الله ، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان ، قال : فلا تأتوا الكهان[2] » •

وروى أبو داود وابن ماجه والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة عـن النبي ﷺ قال : « من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ[3] » •

فهؤلاء المنجمون والمنجمات والمشعوذون والمشعوذات والساحرون والساحرات الذين ينسبون للجن النفع أو الضرر ، ويتحدثـون عنهم بالمغيبـات ، إنهم ــ وإن صدقوا في بعض ما يخبرون به كما ذكرنا ــ كذابون دجالون عصاة لله والرسول ، يريدون أن يستولوا على المغفلين ضعفاء الايمان والعقـول ، ليضللوهم ويسلبوا منهم أموالهم بغير حق •

فالاستعاذة لا تكون إلا بالله ، والاستعانة لا تكون إلا بالله • وإن يكن للجن شيء من القوة المادية فيما بينهم ، فقد صرفهم الله في مجرى العادات عـن أن يكون لهم سلطان على الإنس في نفع أو ضر إلا أن يشاء الله شيئا من ذلك • ولعل تسلط

---

(١) اخرجه مسلم في كتاب السلام ولم يذكره عن صفية •
(٢) اخرجه مسلم •
(٣) انظر الترمذي رقم (١٣٥) •

بعضهم إنما يكون على من يستعيذ بهم ، أو يتخوف منهم ويخشاهم ، دون من يلتجيء الى الله مستعيذاً من شرهم ، ومن شر كل ذي شر كما أسلفنا .

هذا وأختم الكلام عن هذا الموضوع بواقعة جرى أمامي شيء منها واطلعت على بعضها من الثقات . وإليك ذلك .

أصيب شاب بصرع كان ينتابه مرة بعد أخرى ، فأخذه أقرباؤه الى رجل ممن يدعي أن له اتصالاً بالجن ، فأعلمهم ذلك الرجل أن مريضهم قد دخل به جني وأنه قادر على اخراجه ، وأن ذلك يحتاج الى جلسات .

أذعن أقرباؤه لذلك ، وأخذ ذلك الرجل يعالجه على مسمع من أقربائه ، وكان هؤلاء يسمعون أصواتا غريبة لا يدرون مصدرها ، وهـذا الرجل يقـول : اخرج، فيسمعون صوتا يقـول : لا أخرج ، فيقول الرجـل : ان لم تخرج أحرقتـك ، فيسمعون صوتا يقول : لا لا سأخرج ، وهكذا وبعد مضي جلسات قال لهم الرجل : إن مريضكم قد شفي وخرج منه الجني .

وكنت ذات مرة في زيارة له ، واذا به تنتابه نوبة الصرع وأنا حاضر ، فساءني ما رأيت من أمر الشاب ، ولما تركته بعد صحوه وذهبت اذا بي أجد في طريقي طبيبا من أصدقائي فاستوقفته وقصصت عليه ما رأيت ، فقال لي : إن هـذا أمر بسيط جدا ، إن هذا الشاب في رأسه شيء له إفراز ، وعندما يزداد هذا الإفراز يحدث عند الانسان هذا الصرع ، وهناك حبوب لمعالجة هذه الظاهرة ، ودلنا على طبيب مختص بذلك ، فذهب هـذا المريض الى الطبيب ووصف له هذا العـلاج ، فأخذ المريض يتناوله فلم يصبه بعد ذلك شيء ما دام يتناول من هذا الدواء ، فانظروا الى دجـل هؤلاء الدجالين المستغلين ، لقد قال رسول الله ﷺ : « يا عبـاد الله تداووا فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، إلا داء واحـداً ، قالوا : يا رسـول الله وما هو ؟ قـال : الهرم[1] » .

---

(1) اخرجه الترمذي برقم : (٢٠٣٩) واخرجه ابو داود والنسائي وابن ماجه برقم : (٣٤٣٦) .

المبحث الثالث

الحياة الآخرة وعوالمها ومسؤولية الانسان امام الله

لقد مرّ بنا ـ ونحن نتحدث عن الانسان ـ أنه مخلوق مكرّم عند ربه ، وأنه مستخلف في هذه الارض ، وأن الله سبحانه قد جعل هذا الكون كله مسخراً لخدمته ومنفعته ، وأنه مكلف من قبل ربه بتكاليف متعددة ، وبينّا فيما مضى أنه مخلو قحرّ مختار ، وأن هذه الحياة هي ميدان اختبار له ، وأنه مسؤول أمام ربه تبارك وتعالى ، ثم يكون بعد ذلك الجزاء ،

ولكن يا ترى متى يكون الجزاء ؟ إن الله سبحانه جعل يوماً يقوم فيه الناس لرب العالمين ، ويحاسب فيه كل انسان على ما عمل ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره • ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » •

إن هذا اليوم الذي جعله الله للحساب وللثواب وللعقاب هو ما يسمى في عرف الشارع باليوم الآخر ، سمي بذلك لأنه آخر يوم ولا يوم بعده • وفيما يلي نتحدث عن هذا اليوم العظيم •

إلا أننا قبل أن نخوض في بيان هذا اليوم وما يحدث فيه ، لا بدّ من الاشارة الى أن جعل هذا اليوم هو تحقيق لصفة من صفات الله تعالى ، ألا وهي العدل ، فان هذه الصفة تستدعي أن لا يسوّى بين المحسنين والمسيئين ، ولا بين المتقين والمجرمين ، ولا بين المصلحين والمفسدين • وفي بيان ذلك يقول الله تعالى :

« وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون • إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون[1] » •

---

(١) غافر : (٥٨ ـ ٥٩) •

وقال سبحانه : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون[1] » .
وقال جل جلاله : « أم حسب الذين اجترحوا السيئآت أن نجعلهم كالـذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون[2] » .

هذا وفيما يلي نتحدث عن اليوم الآخر وما يكون قبله وما يحدث فيه ، وإليك بيـان ذلك :

اولا ـ عالم البرزخ :

الموت حقيقة مدركة لا يصح مـن أحد إنكارها ، والمـوت واقع بالانسـان لا محالة ، ومهما أراد الانسان الفرار من الموت واقامة الحواجز والحصون بينـه وبينه فانه ليس بقادر على ذلك ، ولو وصل في العلم الطبي الى أعلى الدرجـات ، ولقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة في كتابه العزيز في أكثر من موضع ، فمما قالـه سبحانه في ذلك :

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يـوم القيامة فمن زحزح عـن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[3] » وقال جلّ وعلا :

« قل إن الموت الـذي تفرون منه فانـه ملاقيكم ثم تردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون[4] » وقال عزّ وجل :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة[5] وقال سبحانه :

« وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد[6] » .

---

(1) القلـم : (٣٥ ـ ٣٦) .
(2) الجاثيـة : (٢١) .
(3) آل عمران : (١٨٥) .
(4) الجمعة : (٨) .
(5) النسـاء : (٧٨) .
(6) ق : (١٩) .

هذا هو الموت فما الذي يكون بعد الموت ؟ إن ما يكون من بعد الموت هـو من الأمور الغيبية كما ذكرنا فلا سبيل للعقل ولا للتجربة اليه ، بل مردّ العلم بـه الى خبر الصادق ، وقد أخبر الصادق أن الانسان اذا مات ، انتقل الى عالم جديـد هو عالم البرزخ ، فما هذا البرزخ وما يحدث فيه ؟

مفهوم البرزخ : البرزخ في اللغة العربية الحاجز بين شيئين ، ومنه قوله تعالى ،

« مرج البحرين يلتقيان • بينهما برزخ لا يبغيان[1] » وقوله سبحانه : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهمـا برزخاً وحجراً محجـورا[2] » •

والبرزخ في عرف الشرع ما يكون بين المـوت ويوم القيامة ، أو هـو ما بين الدنيا والآخرة ، فأهل البرزخ ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ، ولا مع أهل الآخرة يجازون على أعمالهم في جنة أو نار • ولقد بلغنا مـن أحوال البرزخ ثلاثـة أمور : ضغطة القبر ـ سؤال الملكين ـ عذاب القبر ونعيمه ، وإليك بيان ذلك :

١ ـ ضغطة القبر :

ورد في الحديث أن الانسان بعدما يلحد في قبره يضغط عليـه ضغطة لا يعلم حقيقتها ولا كيفيتها إلا الله سبحانه ، وهذه الضغطة لا ينجو منها أحد ، سواء أكان مؤمناً أم كافرا ، صالحاً أم طالحاً • ولكن الفرق بين الصالح والطالـح أن الصالح الذي يقف عند حدود الله تعالى يضغطه القبر ضغطة واحدة لطيفة ثم ينفرج عنـه ، وأما الطالح فان الضغط الشديـد يدوم عليـه الى يوم القيامة ، يـدل على ذلك ما أخرجه النسائي أن رسول الله ﷺ قال : « هذا الذي تحرك لـه العرش ـ يعني سعد بن معاذ ـ وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقـد ضم ضمة ثم فرج عنه » •

---

(١) الرحمـن : (١٩ ـ ٢٠) •
(٢) الفرقـان : (٥٣) •

وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ » .

٢ ـ سؤال الملكين منكر ونكير للميت :

ما إن يموت الميت ويواريه أهله التراب ، حتى يحضر الله سبحانه اليه ملكين ليسألاه عن أقواله في الله والرسول ﷺ ، أ آمن بهما أم كفر ؟

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن سؤال الملكين للميت في قبره عام لجميع المكلفين المسلم منهم والكافر .

أما غير المكلفين كالصبيان والمجانين ومن لم تبلغهم الدعوة ، فانهم لا يسألون في البرزخ ، لأن سؤال القبر نتيجة للتكليف في الدنيا ، وهؤلاء غير مكلفين فكيف يسألـون ؟!

ومن الأدلة التي يستدل بها على سؤال الملكين في القبر قولـه تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الـدنيا وفي الآخرة ويضـل الله الظالمين ويفعـل الله ما يشاء[1] » . ويوضح وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمـة ما رواه مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « يثبت الله الذيـن آمنوا بالقـول الثابت » قا لنزلت في عذاب القبر ، يقال له : من ربك ؟ فيقـول : ربي الله ، ونبيي محمد ﷺ ، فذلك قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيـاة الدنيـا وفي الآخرة » .

وما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رسـول الله ﷺ قال : « إن العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهـم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ ـ لمحمـد ﷺ ـ فأما المؤمـن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله

---

(١) ابراهيم : (٢٧) .

به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً ، قال : وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقوله الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت — تلوت — ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين — الإنس والجن — » •

وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة أن أحد الملكين يسمى منكراً والآخر نكيراً ، سميا بذلك لنكارة منظرهما •

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير ، فيقولان •••[1] » الى آخر الحديث وهو حديث طويل •

والمراد من سؤال القبر السؤال في البرزخ بين الموت والبعث ، سواء أكان ذلك في القبر أو في غيره ، وقد أضيف السؤال الى القبر بالنظر الى أن أكثر الموتى من الناس يقبرون •

٣ـ عذاب القبر ونعيمه :

في هذه الفترة — فترة البرزخ — مرحلة من مراحل الجزاء الرباني بالثواب والعقاب ، ويدل عليه مجموعة من نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فمما ورد في القرآن الكريم قوله في شأن آل فرعون : « فوقاه الله سيئآت ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب • النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب[2] » •

ومما ورد في الحديث الشريف ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، ان

---

(١) انظر الحديث بطوله في سنن الترمذي برقم (١٠٧١) . وسيأتي في عذاب القبر •

(٢) غافر : (٤٥ — ٤٦) •

كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » .

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرّ النبي ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى انه كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » . ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ، فغرز في كل قبر واحدة ، قالوا : يا رسول الله لم فعلت هذا ؟ قال : « لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا[1] » .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع الى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي الذي لا يوقظه إلا حب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وان كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للارض التئمي عليه ، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله في مضجعه ذلك[2] » .

هل عذاب القبر ونعيمه جسماني وروحاني معاً ، اي على النفس والبدن ؟

إن هذا السؤال قد طرح على الامام ابن تيمية ، وقد أجاب عنه فيما نقله تلميذه ابن القيم ، قال : « وقد سئل شيخ الاسلام عن هذه المسألة ، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال : بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة

---

(١) اخرجه البخاري في الوضوء وغيره واخرجه مسلم في كتاب الطهارة .
(٢) سنن الترمذي برقم : (١٠٧١) .

والجماعة ، تنعم النفس وتعــذب منفردة عن البدن ، وتنعم وتعذب متصــلة بالبدن والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كمـا تكون على الروح منفردة عن البدن[1] » .

هذا وقد عرض ابن القيم سؤالا حو لعذاب القبر ونعيمه وســؤال الملكين ، ثم أجاب عنه ، أما نص السؤال فهو : « ما جوابنا للملاحــدة والزنادقــة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقه ، وكونه حفرة من حفر النــار ، أو روضة مــن رياض الجنة ، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه ، قالوا : فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً وصماً يضربون الموتى بمطــارق من حديــد ، ولا نجــد هناك حيات ولا ثعابين ، ولا نيرانا تأجج ، ولو كشفنا حاله في حالة مــن الاحوال لوجــدناه لم يتغير ، ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل ، لوجــدناه على حاله ، وكيف يفسح مدّ بصره أو يضيق عليه ، ونحن نجده بحاله ، ونجد مساحته عــلى حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص ، وكيف يسع ذلك اللحد الضيق لــه وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه ؟ قال إخوانهم من أهل البدع والضلال : وكــل حديث يخالف مقتضى العقول والحس ، يقطع بتخطئة قائلــه ، قالوا : ونحــن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب ، ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه ناراً ، ومن افترسته السباع ونهشته الطيــور وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وخواصل الطيور وبطون الحيتان ، ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها ، وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه ؟ وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، وكيف يضيق عليه حتى تختلف أضلاعه ؟ » .

وأما الجواب عن هذا السؤال فقد ذكره في أمور ، ونحن فيمــا يلي نوجز لك بعضا مما ذكره رحمه الله ، وإليك ذلك :

الامر الاول : أن يعلم أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، لم يخبروا بمــا حيله العقول وتقطع باستحالته بل أخبارهم قسمان :

أحدهما : ما تشهد به العقول والفطر .

---

(1) كتاب الروح لابن القيم : (٥١) .

الثاني : ما لا تدركه العقول بمجردها ، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر ، وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالا في العقول أصلا ، وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون الخبر كذبا عليهم ، أو يكون ذلك العقل فاسدا .

الامر الثاني : أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان .

وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ، ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الاسلام ، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ، ولا سيما اذا أضيف الى ذلك سوء القصد .

الامر الثالث : أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثاً ، دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها ، وركب هذا الانسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الارواح ، والابدان تبعاً لهما ، فكما تبعت الارواح الابدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها ، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب ، تبعت الابدان الارواح في نعيمها وعذابها ، والارواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم ، فالابدان هنا ظاهرة والارواح خفية ، والابدان كالقبور لها ، والارواح هناك ظاهرة والابدان خفية في قبورها ، تجري أحكام البرزخ على الارواح فتسري الى أبدانها نعيما أو عذابا ، كما تجري أحكام الدنيا على الابدان فتسري الى أرواحها نعيما أو عذابا ، ومثال ذلك مثال النائم فانه تجري الاحكام على روحه فيتأثر الجسم بذلك .

الامر الرابع : أن الله جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً ، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار ، وذلك من كمال حكمته ، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم . فالمحتضر يرى الملائكة ويشاهدهم عيانا ، ومن حوله لا يرون شيئا .

الامر الخامس : أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروعها فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرتها ، بل ذلك هو من نار وخضرة الآخرة فلا يحس به أهل الدنيا ، وهناك أمور كثيرة يحس بها غير الانسان في دار الدنيا ، ولا يحس بها الانسان ، لأنه ليس مؤهلاً لذلك في هذه الدار ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[1] » .

الامر السادس : أن الله سبحانه يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك ، فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ ، ويتمثل له رجلاً فيكلمه بكلام يسمعه ، ومن الى جانب النبي ﷺ لا يراه ولا يسمعه ، وكذلك غيره من الانبياء ، وأحيانا يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ، ولا يسمعه غيره من الحاضرين ، وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالاصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم ، فكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقرّ بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم ، لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها ، والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر .

الامر السابع : أنه غير ممتنع أن ترد الروح الى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها ، لأن ذلك الردّ نوع آخر غير المعهود ، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء ، وأرواحهم معهم ، ولا نشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك

---

(١) ق : (١٩ - ٢٢) .

الاجزاء على تباعد ما بينها وقربه ، ويكون في تلك الاجزاء شعور بنوع من الألم واللذة ، واذا كان الله تعالى قد جعل في الجمادات شعورا وإدراكا تسبح ربها به ، وتسقط الحجارة من خشيته ، وتسجد له الجبال والشجر ، ويسبح له الحصا والمياه والنبات فاذا كانت هذه الاجسام فيها الاحساس والشعور ، فالاجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك ، قال الله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم[1] » وقال سبحانه : « إنا سخرنا الجبال يسبحن بالعشي والإشراق[2] » وقال جل جلاله : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس[3] » . وقد كان بعض الصحابة يسمعون تسبيح الطعام ، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد ، وسمع الناس تسبيح الحصى بيد رسول الله وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما[4] » .

هذا ولأن عذاب القبر أمر عظيم أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ من عذاب القبر ، وكان يأمر أصحابه بذلك ، فقد روى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال : « تعوذوا من عذاب القبر ، فقالوا نعوذ بالله من عذاب القبر[5] » . وفي البخاري : « كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم اني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال[6] » .

وفي مسلم عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول : « قولوا اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم

---

(١) الاسراء : (٤٤) .
(٢) ص : (١٨) .
(٣) الحج : (١٨) .
(٤) انظر هذا المبحث في كتاب الروح لابن القيم : (٦١ ـ ٧٤) .
(٥) مسلم برقم : (٢٨٦٩) .
(٦) صحيح البخاري رقم : (١٣١١) .

وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيـح الدجال ، وأعوذ بك مـن فتنة المحيا والممات[1] » .

ثانيا ـ علامات قيام الساعة « اشراط الساعة » :

لقد تضافرت الرسالات السماوية على أن حياة البشر سوف تنتهي مـن على سطح الارض ، وسيمر على الارض زمان ليس فيها من حي مـن بني الانسانية ، ثم يبعث الله الناس من قبورهم ليحاسب كلاً على ما عمل في هـذه الدار ، ثم يجازيه بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا .

ولكن جلت حكمته جعـل قبل انتهاء الحيـاة على الارض علامات وأشراطـا تدل على قرب هذا الحدث العظيم ، وهـذه العلامات هي ما يسمى بعلامات يـوم القيامة ، أو بأشراط الساعة ، والساعة يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تأتي بغتة في ساعة أي مدة قليلة .

والأشراط : الأمارات والعلامات ، مفردها شرط ــ بفتح الشين والراء ــ قال تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها[2] » .

اشراط الساعة :

تنقسم أشراط الساعة وعلاماتها الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول : أشراط ظهرت وانقضت ، وهي الأمارات الصغرى ، منها بعثة النبي ﷺ ، فقد روى البخـاري ومسلم وغيرهما قوله عليه الصلاة والسـلام : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرب بين أصبعيه السبابة والوسطى .

ومنها انشقاق القمر : فقد قال الله تعالى : « اقتربت السـاعـة وانشق القمر » وقد وقع ذلك في عهد النبي ﷺ .

---

(١) اخرجه مسلم برقم : (٥٩٠) .
(٢) محمـد : (١٨) .

أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، فقال النبي ﷺ : « اشهدوا[1] » ٠

وأخرج أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر[2] » ٠

ومنها ظهور نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى ٠ فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » ٠

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، وكان شيخ المحدثين في زمانه ، وأستاذ المؤرخين في أوانه : « إن في سنة أربع وخمسين وستمائة في يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة منها ، ظهرت نار بأرض المدينة المنورة ، في بعض تلك الأودية ، طول أربعة فراسخ ، وعرض أربعة أميال ، تسيل الصخر حتى يبقى مثل الآنك ــ الرصاص الأبيض أو الأسود ــ ثم يصير مثل الفحم الأسود ، وأن ضوءها كان الناس يسيرون عليه بالليل الى تيماء ــ بلد في أطراف الشام ــ وأنها استمرت شهراً ، وقد ضبط ذلك أهل المدينة وعملوا فيه أشعارا ، وذكر غير واحد ممن كانوا صبيحة تلك الليلة بحاضرة بصرى الشام أنهم شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار[3] ٠

القسم الثاني : الأمارات الوسطى ، وهي ما ظهر ولم ينقض ، بل لا يزال في ازدياد ، منها ما أخرجه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) البخاري في المناقب برقم : (٣٤٣٧) ٠
(٢) البخاري في المناقب برقم (٣٤٣٨) ٠ وانظر صحيح مسلم في صفات المنافقين رقم (٢٨٠٠ و ٢٨٠٢ و ٢٨٠٣) ٠
(٣) انظر النهاية لابن كثير : (١٣/١ فما بعدها) ٠ وانظر الاشاعة للبرزنجي : (٣٨ ــ ٣٩) ٠

« لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد النّاس بالدنيا لكع بن لكع[1] » أي حتى يكون اللئام والحمقى ونحوهم رؤساء الناس .

ومنها : إسناد الأمور الى غير أهلها : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم ، جاءه أعرابي فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى اذا قضى حديثه قال : أين أُراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله ، قال : فاذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال كيف إضاعتها ؟ قال : اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة[2] » .

ومنها : انتصار المسلمين على اليهود : فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فانه من شجر اليهود[3] » .

ومنها عود أرض العرب مروجاً وأنهاراً : فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض ، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً[4] » ، وفي قوله عليه الصلاة والسلام « تعود » إشارة الى أن أرض العرب كانت كذلك في غابر الأزمان ، وفي هذا معجزة للنبي ﷺ ، وقد أثبت العلماء أن الجزيرة العربية كان فيها من الاشجار والمروج الشيء الكثير ، إلا أنها منيت بعد ذلك بالجدب .

---

(١) اللكع : العبد الاحمق اللئيم .
(٢) البخاري : رقم (٥٩) .
(٣) مسلم في الفتن برقم : (٢٩٢٢) . والغرقد : شجر يسمى العوسج ذو شوك .
(٤) مسلم في الزكاة برقم : (١٥٧) .

ومنها كثرة القتل : فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ، قالوا وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل القتل[1] » .

ومنها كثرة الجهل ورفع العلم : فقد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ، ويكثر الزنى ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد[2] » ، والمراد بالعلم الذي يرفع العلم بالدين ، وقد بيّن رسو لالله ﷺ كيف يرفع هذا العلم ، ففي البخاري ومسلم : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا[3] » .

وهناك الشيء الكثير من هذه الأمارات قد حوته كتب الحديث ، مما أخبر به عليه الصلاة والسلام من الفتن والزلازل والأحداث والملاحم التي تقع بين يدي الساعة ، وقد وقع معظم ذلك .

القسم الثالث : الأمارات العظمى ، وهي التي يعقبها قيام الساعة ، وهي المقصودة عند الإطلاق ، وهي كثيرة ، إلا أننا نتحدث منها عن العشر التي جمعت في حديث واحد .

أخرج مسلم والترمذي وأبو داود عن حذيفة بن اليمان قال : « اطّلع النبي علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوفات : خسف

(١) اخرجه مسلم برقم : (٢٨٨٨) .
(٢) البخاري برقم (٨١) .
(٣) اخرجه البخاري في العلم برقم : (١٠٠) . واخرجه مسلم في العلم برقم : (٢٦٧٣) .

بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم[(١)] » •

الامارة الأولى ــ خروج الدجال :

١ ــ الدجال مأخوذ من الدجَــل بمعنى الكذب أو بمعنى التغطيــة ، سمي بذلك لأنه كذاب أو لأنه يموه ويغطي الحق بالباطل •

٢ ــ صفته : بيَن لنا رسول الله ﷺ بعض الصفات الخلقية للدجال ، فمــن صفاته أنه قصير ، جسيم ، أحمر الوجه ، أعور العين اليسرى قد غطتها جلدة غليظة ، أما عينه اليمنى فهي جاحظة ، فوق رأسه شعر شديد الجعودة ، بشع المنظر ، منفرج الرجلين في المشي •

روى مسلم عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الدجال ممسوح العــين عليهــا ظَفَرَة غليظــة ، مكتــوب بــين عينيه كــافر ، يقرؤه كل مؤمــن كاتب وغــير كاتب[(٢)] » •

وأخرج البخاري ومسلم عن أبن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « بينما أنا نائم بالكعبة فاذا رجل جسيم أحمر ، جعد الشعر أعــور العين ، كأن عينه عنبة طافئــة ، قالوا : هــذا الدجــال[(٣)] » •

وفي مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما مــن نبي إلا وقد حذر أمته الأعور الكذاب ، ألا انه أعــور وان ربكم ليس بأعــور ، ومكتوب بين عينيــه ك ف ر[(٤)] » •

---

(١) مسلم في كتاب الفتن واشراط الساعــة برقم : (٩٢٠١) • والترمــذي برقم : (٢١٨٢) •

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم : (٢٩٣٤) • والظفرة : جلدة تعشى البصر ، وقال الاصمعي : لحمة تنبت عند الماقي •

(٣) البخاري برقم : (٣٢٥٧) ومسلم رقم : (١٦٩) •

(٤) مسلم برقم : (٩٢٣٣) •

وروى أبو داود « أن المسيح الدجال رجل أفحج » والأفحج المنفرج الرّجلين في المشـي .

٣ ــ مكان خروجه وتطوافه في الارض : اتفقت روايات الحـديث على أن الدجال سيخرج من جهة المشرق .

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال : « الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان ، يتبعه أقوام كأن وجوههـم المجانّ المطرقـة[1] » .

ثم يتجه نحو الغرب فيمر بأصبهان ، فيتبعه من يهودها سبعـون ألفا . روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الدجال مـن يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة[2] » .

ثم يتابع سيره نحو الغرب ، فيدخل البلاد ويتبعه أهل الفساد ، ويدخل المـدن والقرى ، إلا مدينتين لا يستطيع دخولهما ، وهما مكة والمدينة المنورة ، يمنعـه الله مـن دخولهمـا .

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول رالله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال ، إلا مكة والمدينـة ، وليس نقب من أنقابهـا إلا عليه ملائكة صافين ، تحرسها ، فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات ، يخرج اليـه منها كل كافر ومنافق[3] » .

٤ ــ دعوته : لقد ورد في الاحاديث ما يدلّ على أنه يدعي الألوهية ، ويقوم

---

(١) الترمذي برقم : (٢٢٣٨) . والمجانّ : جمع مجن ، وهو الترس الـذي يستر حامله .

(٢) مسلم برقم : (٢٤٩٤) . الطيالسة : جمع طيلسـان ، وهو ثوب يلبس على الكتف ، يحيط بالبدن ، ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة .

(٣) مسلم برقم : (٢٩٤٣) .

بأعمال عجيبة ليسيطر بها على عقول السدج وضعاف الايمان ويلفهم عن الايمان ولذلك حذر الرسول عليه الصلاة والسلام أمته منه ومن فتنته ، وأخبر أن الأنبيـاء من قبله كانوا يحذرون أممهم منه أيضا .

روى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قـال : « قام النبي ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : أنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه ، لقد أنذره نوح قومه ، ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي ، انه أعور ، وان الله ليس بأعور » . ورواه مسلم أيضا(١) .

هذا وقد روى مسلم حديثاً يذكر فيه بعض ما يفعله الدجال من الامور العجيبة التي سلطه الله عليها ، ففيه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ :

« يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل مـن المؤمنين ، فتلقاه المسالح مسالـح الدجال ــ المسالح قوم معهم سلاح يرقبون في المراكز كالخفراء ــ فيقولـون له : أيـن تعمد ؟ فيقول : أعمد الى هذا الـذي خرج ، قال فيقولون له أوما تؤمـن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه ، فيقول بعضهـم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونـه ، قال فينطلقون به الى الدجـال ، فاذا رآه المؤمـن قال : يا أيها الناس هـذا الدجال الـذي ذكر رسـول الله ﷺ ، قـال فيأمر به الدجال فيشجّ ، فيقول خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً ، قـال فيقول : أوما تؤمن بي ؟ قال فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال فيؤمر به فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجليـه ، قال ثم يمشي الدجـال بين القطعتين ثم يقول له : قم فيستوي قائما ، قال ثم يقـول له : أتؤمن بي ؟ فيقـول : ما ازددت فيك إلا بصـيرة ، قال ثم يقـول : يا أيها الناس إنه لا يفعـل بعدي بأحد مـن النـاس ...(١) » .

٥ ــ مدة لبثه في الارض ونهايته : لقد تساءل أصحاب رسول الله ﷺ عـن

---

(١) مسلم برقم : (٢٩٣١) .
(٢) مسلم برقم : (٢٩٣٨) .

مدة لبثه في الارض ، فذكر لهم رسـول الله ﷺ أن مدة لبثـه أربعون يوما تم فصّل لهم ذلك . ثم بيّن أن عيسى عليه السلام يقتله بفلسطين بباب لد .

فقد أخرج مسلم عـن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال :

« ذكر لنا رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفّض فيه ورفّع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفّضت فيه ورفّعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شـاب قطط ، عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلّة بين الشـأم والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمـالا ، يا عباد الله فاثبتوا ، قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الارض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره ، قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه في الارض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والارض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهـم أطول ما كانت ذراً ، وأسبغة ضروعاً ، وأمـده خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قولـه ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ، ليس بأيديهـم شيء من أموالهـم ، ويمرّ بالخربة فيقول لهـا : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلا ممتلئـا شبابا ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضك ، فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق ، بين مهرودتين ـــ ثوبين مصبوغين بورس ـ واضعاً كفيه على أجنحـة ملكين ، اذا طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلـؤ ، فلا يحلّ لكافر يجـد ريحْ نفَسـه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ـــ فيطلبه حتى يدركه بباب لـد ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عـن وجوههم ،

ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ...[1] » .

٦ ـ الاستعاذة منه : ولما كان أمر الدجال من الخطورة بمكان ، فقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ من فتنته ، ويأمر أصحابه بذلك .

روى البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم » ، فقال له قائل : ما أكثر ما تستعيذ من المغرم ؟ فقال : إن الرجل اذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف[2] .

٧ ـ الحكمة من وجود الدجال : الحكمة من ذلك اختبار الناس ليتحقق التمايز بين المؤمن وغير المؤمن ، وخاصة المنافقين الذين يتظاهرون بالايمان .

وعلى العموم فان لله أن يبتلي عباده ويختبرهم بما يعلم أنه صالح للاختبار ، سواء أكان ذلك علماً أو غنى أو صحة أو فقرا ، وقد قال الله سبحانه : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين[3] » .

الامارة الثانية ـ نزول عيسى ابن مريم عليه السلام :

١ ـ عيسى بن مريم لم يمت بعد ولم يقتل ولم يصلب : فقد نص القرآن الكريم على أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ، بل بقي على قيد الحاية ، وأن الله سبحانه قد رفعه اليه ، تكريما له . قال الله سبحانه وتعالى في شأن اليهود :

---

(١) مسلم برقم : (٢٩٣٧) .
(٢) البخاري برقم : (٧٩٨) .
(٣) البخاري بالرقم السابق .
(٤) البقرة : (١٥٥) .

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما • وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً • بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما[1] » •

٢ ــ ثبوت نزوله عليه السلام الى الارض : لقد ثبت نزول عيسى عليه السلام الى الارض في آخر الزمان بالكتاب الكريم والسنة الشريفة •

أما ثبوت ذلك في الكتاب الكريم ففي آيتين :

إحداهما قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا[2] » •

وجه الاستدلال أن الضمير في موته عائد على عيسى عليه السلام ، ليصبح معنى الآية أن أهل الكتاب من يهود ونصارى سيؤمنون بعيسى عليه السلام إيماناً صحيحاً ، وذلك بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، ولا يكون ذلك إلا قبل موته وبعد نزوله من السماء قبيل قيام الساعة • وهذا يؤكد ما يعتقده المسلمون من أن عيسى عليه السلام لم يمت ، وأنه رفع حياً الى السماء ، وأنه يحيا الآن حياة الله أعلم بكيفيتها ، وأنه سيعود الى الارض مرة ثانية ، ليقيم شريعة الاسلام وأحكامه ، ولا يأتي برسالة جديدة وتصبح الملة آنذاك ملة واحدة •

وقد ورد تفسير هذه الآية بنزول عيسى عليه السلام عن ابن عباس رضي الله عنه ، وعن أم سلمة رضي الله عنها ، وعن قتادة وهو من علماء التابعين ، وعن ابن زيد وهو شيخ مالك والزهري ، وعن الحسن البصري وعن غيرهم[3] •

---

(١) النساء : (١٥٦ ــ ١٥٨) •
(٢) النساء : (١٥٩) •
(٣) انظر تفسير الطبري وابن كثير •

الآية الثانية : قوله تعالى : « ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون، وقالوا أ آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قو مخصمون ، ان هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ، ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم[1] » .

مكان الشاهد الآية الأخيرة « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها » فالضمير فيها كما ترى عائد على ابن مريم الذي تتحدث عنه الآيات السابقة ، والمعنى أن عيسى ابن مريم دليل على قيام الساعة ، وإنما يكون كذلك بنزوله من السماء حكما عدلا مقسطا ، ويوضح هذا المعنى القراءة السبعية الاخرى « وإنه لعلَم للساعة » أي علامة ودليل عليها ، ولا ينبغي أن يكون للآية أي معنى غير هذا ، وهو المعنى الذي فسرها به ابن عباس والحسن البصري وقتادة وغيرهم من مشاهير المفسرين .

وأما ثبوت ذلك في الحديث الشريف فقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة نذكر بعضاً منها :

١ — ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا[1] » .

٢ — ما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين الى يوم القيامة ، قال فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة[2] » .

---

(١) الزخرف : (٥٧ — ٦١) .
(٢) اخرجه البخاري برقم : (٣٢٦٤) . واخرجه مسلم في الايمان برقم : (١٥٥) واللفظ للبخاري .

٣ ـ ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن النواس بن سمعان ، وقد مر بك هذا الحديث عند الكلام عن الدجال ، وفيه يقول : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، اذا طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله »[1] .

٤ ـ ما رواه أحمد وأبو داود وابن جرير بطرق مختلفة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم ، لأنه لم يكن نبي بينه وبينه ، وانه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع الى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران ـ فيهما صفرة خفيفة ـ كأن رأسه يقطر وان لم يصبه بلل ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويدعو الناس الى الاسلام ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الاسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الارض أربعين سنة ، ثم يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون[2] » .

سيرته واعماله ومكثه في الارض :

دلت الأحاديث الصحيحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام بعد نزوله يقوم بأعمال عدّة منها :

١ ـ يكسر الصليب ، ويثبت للذين قالوا عنه إنه إله أنه عبد الله ورسوله ، أرسله الى بني اسرائيل ، ويبطل ما يدعيه النصارى أنه ابن الله سبحانه .

٢ ـ يقتل الخنزير : لأن الخنزير نجس العين ويحرم أكله .

---

(١) اخرجه مسلم في الايمان برقم : (١٥٦) .
(٢) اخرجه ابو داود في كتاب الملاحم .

٣ — يضع الجزية : أي يرفعها على معنى أنه لم يبق من تجب عليه الجزية ، لأن الناس يصبحون آنذاك على ملة واحدة .

٤ — يقتل الدجال : وقد مرّ أنه يدركه بباب لد بفلسطين فيقتله ويقضي على فتنته .

٥ — يقضي على يأجوج ومأجوج بدعائه عليهم كما سيأتي .

٦ — يحكم بالأحكام الشرعية المحمدية ، إذ إنه لا يأتي بتشريع جديد ، فلا يتناقض نزوله مع كون محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين .

ولقد مرّ بنا أنه يمكث في الارض أربعين سنة ، وجاء أيضا فيما أخرجه الامام أحمد : أنه بعد ذلك يتوفى ويصلي عليه المسلمون ، ويدفنونه عند نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

موقفان منحرفان في شان عيسى عليه السلام :

علمت مما سبق أن عيسى عليه السلام هو رسول من عند الله ، وأن الله أنجاه من كيد اليهود ، وأن الله رفعه اليه جسداً وروحاً ، وأنه سينزل الى الارض جسداً وروحاً ، وقد أثبتنا ذلك كله إما بالآيات القرآنية ، وإما بالاحاديث النبوية الصحيحة ، وإما بكليهما . ومع هذا لم تمنع الأدلة التي أقمناها من ظهور طائفة من الناس قد باعت نفسها للشيطان ، بثمن بخس دراهم معدودة ، أو مناصب زائفة ، أو مكاسب دنيوية زائلة ، فكانوا في هذه الصفقة من الخاسرين . وفيما يلي تتحدث عن فئتين من هؤلاء :

الفئة الاولى : هي فئة بعض من الكتّاب الذين تخرجوا في مدارس الاستعمار ، فهؤلاء أنكروا أن يكون عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قد رفع بجسمه الى السماء ، وحتى لا يقفوا موقفاً عدائياً من صريح الآية القرآنية ، أخذوا يؤولون بأنه رفع الروح أو رفع الدرجة ، ومن ثم فانهم أنكروا نزوله الى الارض أيضا

قرب قيام الساعة ، نابذين كتاب الله وراء ظهورهم ، وسنة رسوله دبر آذانهم ، متجاهلين مواقف جمهرة علماء المسلمين والجهابذة من المفسرين والمحدثين .

ولقد اتخذوا ذريعة لهذا الإنكار ، ووسيلة لهذا الشذوذ قوله تعالى : « واذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون[1] » .

لقد فهموا من قوله تعالى : « متوفيك » أن معناها مميتك ، ولو رجعوا الى اللغة العربية لوجدوا أن التوفي معناه أخذ الشيء وقبضه وافياً ، ويرادفه الاستيفاء ، تقول : استوفيت حقي وتوفيته ، أي قبضته وافياً كاملاً .

أما التوفي بمعنى الإماتة التي هي قبض الروح ، فهو نوع من أنواع التوفي الذي يشملها ويشمل غيرها ، وإنما سرى الوهم الى هؤلاء من كثرة استعمال العامة من الناس ، هذه الكلمة بمعنى الموت فقط ، وغفلتهم عن معناها الاصلي في اللغة .

على أن الزمخشري في كتابه « أساس البلاغة » نص على أن استعمال الوفاة بمعنى الموت انما هو من قبيل المجاز . ولا يعدل عن الحقيقة الى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة ، بأن هناك قرينة صارفة .

ومما يقوي نفي احتمال المجاز في « متوفيك » دلالة الآية القاطعة الاخرى التي لا مجال للتأويل فيها ، يقول الله عزّ وجل :

« وقولهم إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما[2] » .

---

(١) آل عمران : (٥٥) .

(٢) النساء : (١٥٧) .

ثم أليس في قوله تعالى : « رفعه اليه » في هذا الموطن دلالة على أن المراد رفع الجسم لا رفع الدرجة ، اذ ما فائدة هذه الجملة بعد نفي القتل والصلب ، أولم يكن مرفوع الدرجة قبل ذلك .

الفئة الثانية : فئة تسمى « القاديانية » أو « الأحمدية » وتنتسب لغلام أحمد القادياني الذي ظهر في الهند في بلدة « قاديان » وادّعى أنه هو المسيح الموعود ، وادّعى أن الذي وعد الله بظهوره هو مثيل عيسى وليس عيسى نفسه ، وأنه إنما يظهر في الارض دون أن ينزل من السماء ، وأنه هو المثيل الذي وعد الله بظهوره ، ثم راح يزعم أنه نبي ورسول مستقل مؤيد بتشريع ، ثم صاغ لنفسه وحياً كالقرآن ، ومضى يختلق لنفسه معجزات يزعم أنها مؤيدات له ، وابتنى لنفسه مسجداً في بلدته وسماه « المسجد الاقصى » وسمى بلدته مكة المسيح ، وجعل مقبرة سماها مقبرة الجنة ، وسمى أزواجه أمهات المؤمنين ، واستمر يقوم بدعوته هذه والاستعمار البريطاني من ورائه الى أن مات في الخلاء بوباء الكوليرا سنة ١٣٢٦ هـ ولم يزل له أتباع ينادون بدعوته ويبشرون بها وخاصة في أوربا . ولقد تبين لك كذب هذا المدعي بما أوردناه من صفات عيسى عليه السلام ، ولقد كنا تحدثنا عن شيء من هذا عند الكلام على أن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين ، وسيمر بك هذا البحث في منهاج السنة الثالثة ان شاء الله .

الامارة الثالثة ــ خروج ياجوج وماجوج :

٢ ــ حقيقتهم ودليل وجودهم :

يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لأقوام يبلغون من الكثرة مبلغاً عظيماً ، ويفسدون في الارض أيما إفساد .

غير أن القرآن الكريم أخفى على الناس ميعاد ظهورهم ، فلا يعلم أجل ذلك أحد إلا الله عزّ وجل ، ولكنه نص على أن ظهورهم علامة من العلامات الكبرى لاقتراب الساعة ، قال الله تعالى :

« حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون • واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين[1] » •

وقال جلّ جلاله :

« ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا • قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا • قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما • آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا • فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا • قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا • وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا[2] ... » •

وفي الحديث الشيء الكثير الذي يدل على خروجهم ، من ذلك :

١ ــ ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من النوّم محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » حلّق بأصبعه الابهام والتي تليها • قالت زينت بنت جحش فقلت : يا رسول أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث[3] » •

٢ ــ ما رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن النوّاس بن سمعان من

---

(١) الانبيــاء : (٩٦ ــ ٩٧) •
(٢) الكهف : (٩٢ ــ ٩٩) •
(٣) اخرجه البخاري برقم : (٣١٦٨ و ٦٦٥٠) وغيرهما ، واخرجه مسلم في الفتن برقم : (٢٨٨٠) •

الحديث الطويل الذي ذكرناه سابقا وفيه : « ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيهــا ، ويمرّ آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ...[1] » .

٣ ما رواه مسلم وأبو داود والترمــذي وابن ماجه عن حذيفــة بن أسيــد الغفاري رضي الله عنه قال : اطلع علينا النبي ﷺ ونحن تتذاكر ، فقال : ما تذاكرون؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، وعدّ منهــا يأجوج ومأجوج ، وقد مر بك الحديث في أول بحث أشراط الساعة .

فأنت ترى أن الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الصحيحة ، قــد دلت دلالة قاطعة على أن من أشراط الساعة ظهور هذه الأمة التي تعثوا في الارض فســاداً ، فكان الايمان بذلك من الضروريات التي لا بدّ منها للإيمان بالكتاب والسنة .

ب ـ سيرتهم ونهايتهم :

ورد في مسلم بيــان ذلك في حديث النــواس بن سمعان الــذي مرّ ذكره ، وفيــه يقــول :

« فبينما هو كذلك اذ أوحى الله الى عيسى : إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرّز عبادي الى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمرّ آخرهــم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى ـ قتلى ـ كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه الى الارض ، فلا يجدون في الارض موضــع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه الى الله ، فيرسل الله طــيراً

---

(١) انظر مسلماً رقم : (٢٩٣٧) .

كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الارض حتى يتركها كالزلقة[1] » .

هذا ولا بدّ من التنبيه هنا الى أن أناساً أخذوا يذكرون أحاديث عن يأجوج ومأجوج ويبالغون في ذكر صفاتهم ، ان هذه الاحاديث لا أساس لها من الصحة ونحن لم نكلف بأن نؤمن إلا بما جاء في القرآن أو بما صح من حديث رسول الله ﷺ .

الامارة الرابعة ـ ظهور دابة الارض :

دابة الارض تعبير قرآني عن حيوان نكل علم نوعه وشكله وهيئته الى الله عزّ وجل ، وهذا الحيوان يظهر للناس قبيل الساعة ، والحكمة من ظهورها تمييز المؤمن من الكافر ، فتسم المؤمن بما يدل على ايمانه ، وتسم الكافر بما يدل على كفره ، وحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها إذ لم تكن آمنت من قبل . ولقد ورد ذكر الدابة هذه في القرآن وفي السنة .

أما القرآن الكريم ففي قوله تعالى : « واذا وقع عليهم القول أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون[2] » .

وأما السنة الشريفة فما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً[3] » .

وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(1) مسلم برقم : (٢٩٣٧) والزلقة : المرآة .
(2) النمل : (٨٢) .
(3) مسلم برقم : (٢٩٤١) .

« بادروا بالأعمال ستة : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدجال ، والدابة ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة[1] » .

وقد مرّ بك قريباً حديث حذيفة بن أسيد حينما عدّ أمارات الساعة العشر ، وذكر منها دابة الارض .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الارض[2] » .

الأمارة الخامسة : طلوع الشمس من مغربها :

ومعنى طلوع الشمس من مغربها أنها تظهر للناس طالعة من جهة المغرب في وقت الصباح ، على عكس ما هي عليه الآن من طلوعها من جهة المشرق ، ولعل هذا بدء اختلال الكون ، لأن طلوع الشمس من مغربها هو آخر أمارات الساعة .

ولقد وردت آيات كثيرة تدل على اختلال نظام الكون عند قيام الساعة ، من ذلك قوله تعالى : « إذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الجبال سيرت . واذا العشار عطلت . واذا الوحوش حشرت . واذا البحار سجرت . واذا النفوس زوجت » . ومنها قوله سبحانه : « اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت » . الى غير ذلك من الآيات .

وطلوع الشمس من مغربها ثابت بالقرآن مفسراً بالسنة النبوية .

قال سبحانه وتعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو

---

(١) مسلم : (٢٩٤٧) .
(٢) مسلم برقم : (٢٤٩) . والترمذي في تفسير سورة الانعام .

يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنّا منتظرون[٥] » .

وقد ورد تفسير هذه الآية على لسان رسول الله ﷺ بخروج الشمس من مغربها ، روى البخاري في كتاب التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها ، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

الأمارة السادسة ــ خروج الدخان :

وهذه الأمارة ثابتة في السنة ، وقد مضى حديث مسلم في ذلك ، وروى الطبراني : « إن ربكم أنذركم ثلاثاً ، الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة . ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال[١] » .

الأمارة السابعة والثامنة والتاسعة ــ ثلاثة خسوفات :

خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وقد مرّ الحديث في ذلك .

الأمارة العاشرة ــ نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم :

وهذه الأمارة هي من آخر الأمارات ، وتكون قبيل قيام الساعة.ومكان محشر الناس الذي تسوقهم النار اليه أرض الشام ، وقد ثبت ذلك في عدة أحاديث عن النبي ﷺ .

---

(١) الانعام : (١٥٨) .
(٢) قال ابن كثير في تفسيره عن هذا الحديث : إسناده جيد .

ثالثاً ـ قيام الساعة والبعث والحشر والنشر :

أ ـ قيام الساعة :

بعد أن يفتضح أمر الناس بظهور الدابة ويتميز الكافر من المؤمن ، يرسل الله تعالى ريحاً طيبة يموت بها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

روى مسلم في صحيحه : « أن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير ، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته[1] » .

وهكذا لا يبقى على وجه الارض إلا الكفار ، فتقوم عليهم الساعة .

روى مسلم في صحيحه والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله[2] » .

وفي مسلم آخر حديث النواس بن سمعان الذي مرّ ذكره : « فبينما هم كذلك اذ بعث الله ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة[3] » .

ب ـ النفخ في الصور :

بعد ذلك ينفخ في الصور النفخة الاولى ، فيهلك من في السموات والارض إلا من شاء الله . ويكون بهذه النفخة انتهاء الحياة من على ظهر الارض ، وتسمى هذه النفخة نفخة الصعق ، والصور شيء كالبوق ، قال الله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون[4] » .

---

(1) مسلم برقم : (١١٧) .
(2) اخرجه مسلم برقم (١٤٨) والترمذي برقم : (٢٢٠٨) .
(3) مسلم برقم : (٢٩٣٧) .
(4) الزمر : (٦٨) .

وقد وصف القرآن الكريم ما يحدث بهذه النفخة ، فقد جاء فيه أن الله يطوي السماء كطي السجل للكتب ، وإن الله يقول سبحانه : « لمن الملك اليوم » فلا يجيبه أحد ، فيجيب نفسه قائلاً « لله الواحد القهار » وتتبدل الارض غير الارض والسموات ، فيبسطها ويسطحها ثم يمدها مدّ الأديم كما قال سبحانه : « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا » .

النفخة الثانية :

وبعد أن يمرّ على الناس زمان طويل في باطن الارض ، ينفخ في الصور نفخة ثانية ، فيخرج الناس من قبورهم ، قال الله تعالى : « ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون، قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون[1] » . وقال سبحانه : « إن يوم الفصل كان ميقاتا يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » . وهذا ما يسمى بالبعث ، وهو ما يسمى أيضا بالنشر والنشور ، وبهذا البعث يبدأ اليوم الآخر الذي نتحدث عنه فيما يلي :

ج ـ اليوم الآخر واحواله :

اليوم الآخر هو اليوم الذي ليس بعده يوم أبدا ، حيث تتلاشى حدود الزمان ويبقى الزمن المطلق .

وقد أوجب الله سبحانه علينا الايمان باليوم الآخر ، وجعله ركناً من أركان الايمان وهو ــ كما ذكرنا ــ برهان على عدالة الله سبحانه .

احوال يوم القيامة :

تجري على الناس يوم القيامة أحوال كثيرة ، وها نحن نسوقها حسب ترتبها في الوقوع .

(١) يس : (٥١ ــ ٥٢) .

اولاً ـ البعث :

لقد ذكرنا أنه يبتدىء اليوم الآخر بالبعث ، فكيف يكون هذا البعث ؟

اذا مات ابن آدم بلي جسده كله ، ولا يبقى منه إلا ذرة صغيرة تسمى « عجب الذنب » وهذا يكون في رأس العصعص ، وقد ثبت ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وليس شيء من الانسان إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة[1] » . فاذا أراد الله تعالى البعث أنزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقي ، ثم يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، وهي نفخة الإحياء ، فتنبت الخلائق كما ينبت البقل ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل » أخرجه البخاري ومسلم ، وينادي الرب الأرواح فتعود الى أجسادها التي كانت فيها في هذه الدنيا ، فيقوم الخلائق قائلين : « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

والبعث يتناول جميع مخلوقات الله تعالى من انسان وحيوان وجماد وملك وأحوال ، روى الترمذي عن أبي هريرة قال : « قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : « يومئذ تحدث أخبارها » قال : أتدرون ما أخبارها ؟ أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كذا وكذا ، فهذه أخبارها » ولا يمكن أن تشهد إلا اذا بعثها الله .

وقد جاء في البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « أراك تحب الغنم والبادية ، فاذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ[2] » .

---

(1) البخاري برقم : (٤٦٥١) . ومسلم برقم : (٢٩٥٥) .
(2) البخاري : (٥٨٤) .

هذا ولما كان البعث بعد الموت مكان استغراب عند الانسان ، بيّن الله سبحانه قدرته على ذلك في كثير من الآيات ، وبأساليب شتى ، ومما قاله الله سبحانه في ذلك

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور[1] » •

وقال عزّ من قائل : « أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم • الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون • أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم • إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون • فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون[2] » •

وقال جل جلاله : « ويقول الانسان أ إذا مامت لسوف أخرج حيا • أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً • فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا[3] » •

ثانيا ــ الحوض :

● لقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام نهراً في الجنة

---

(١) الحج : (٥ ــ ٧) .
(٢) يس : (٧٧ ــ ٨٣) .
(٣) مريم : (٦٦ ــ ٦٨) .

يسمى « الكوثر » يصب منه ميزابان على أرض في الموقف ، وهـذه الارض التي يصب فيها هذان الميزابان تسمى الحوض .

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال :

« بينما أنا أسير في الجنة اذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فاذا طينه أو طيبه مسك أذفر » .

وفيه أيضا عن عائشة رضي الله عنها ، وقد سألها أبو عبيدة عن قولـه تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » قالت : نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجـوف ، آنيته كعدد النجوم[1] » .

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، ومجراه على الـدر والياقوت ، تربته أطيب مـن المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض مـن الثلج[2] » قـال الترمـذي : هـذا حديث حسـن صحيـح .

وروى الامام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « بينما رسـول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً ، قلنا : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أنزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ : « بسم الله الرحمـن الرحيـم . إنا أعطينـاك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر » ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثـير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجـوم في السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتي فيقول ، إنك لا تدري ماذا أحدث بعدك[3] » .

---

(1) انظر هذا الحديث والذي قبله في البخاري عند تفسير سورة الكوثر .
(2) الترمذي برقم : (٣٣٥٨) .
(3) مسلم برقم : (٤٠٠) .

● والحوض هو أول ما يتجه اليه الخلق بعد البعث ، لأنهم قد خرجوا من قبورهم عطاشا ، فيردون حياض الأنبياء ، إذ إن لكل نبي حوضا ، كما قال ﷺ : « إن لكل نبي حوضاً ، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة[1] » أخرجه الترمذي .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ترد أمتي عليّ الحوض ، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله . قالوا : يا نبي الله أتعرفنا ؟ قال : نعم . لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء ، وليصدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون ، فأقول : يارب هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟[2] » .

وفي البخاري أحاديث كثيرة تدل على وجود الحوض . منها : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورده شرب منه ، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم » ومنها : « اصبروا حتى تلقوني على الحوض[3] » .

● وقد ورد في صفات هذا الحوض أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفس محمد بيده ، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ، ألا في الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه ، يشخب فيه ميزابان من الجنة ، من شرب منه لم يظمأ ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمّان الى أيلة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل[4] » .

ومنها ما رواه مسلم عن جابر بن سمرة عن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) الترمذي برقم (٢٤٤٥) .
(٢) اخرجه مسلم برقم : (٢٤٧) .
(٣) انظر البخاري أول كتاب الفتن .
(٤) مسلم برقم : (٢٣٠٠) .

« ألا إني فرط لكم على الحوض ، وإن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة، كأن الأباريق فيه النجوم[1] » .

ثالثاً ـ الحشر :

● الحشر لغة : الجمع ، قال تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون[2] » وقال سبحانه : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى[3] » .

والحشر شرعاً : جمع الخلائق يوم القيامة للعرض على الله تعالى والحساب بين يديه .

● ولقد جاءت آيا تكثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن يوم الحشر ، من ذلك قوله تعالى : « ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً[4] » .

● وفي هذا المحشر تقع أهوال عظيمة تفوق حدّ التصور ، ويكفي أن تعلم أن الشمس يوم القيامة تدنو من الخلائق حتى تكون منهم قدر ميل ، فيكون الناس على قرب منها .

عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم لمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما[5] » قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده الى فيه .

---

(١) اخرجه مسلم برقم : (٢٣٠٥) .
(٢) النمل : (١٧) .
(٣) طه : (٥٩) .
(٤) الكهف : (٤٧) .
(٥) اخرجه مسلم برقم : (٢٨٦٤) .

ويطول قيام الناس في هذا الموقف العصيب ، ويهوج الناس ويموجون ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

● ولكن هول الموقف لا يكون على جميع الناس ، فهناك أناس صدقوا الله تعالى في هذه الدنيا فنجاهم من هول ذلك الموقف ، وأظلهم بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه[1] » .

وهناك فريق من المؤمنين المخلصين لا يشعرون بطول ذلك اليوم رغم طوله ، فلقد جاء في مسند الامام أحمد : « قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا .

ولقد أشار القرآن الكريم الى لطف الله بالمؤمنين في ذلك اليوم ، قال الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون[2] » وقال سبحانه :

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه

---

(١) البخاري برقم : (١٣٥٧) . ومسلم برقم : (١٠٣١) .
(٢) الانبياء : (١٠٣ - ١٠٥) .

مسكيناً ويتيماً وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا[1] » .

وقال سبحانه : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا[2] » .

● ويحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، ويحشر معهم جميع أجزائهم المتصلة والمنفصلة عنهم في حال حياتهم في الدنيا .

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قلت : يارسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم الى بعض ؟ ! قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم الى بعض[3] » .

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إنكم محشورن حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » . وأول من يكسى يوم القيامة ابراهيم ، وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي أصحابي ، فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح : « وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ... الى قوله الحكيم[4] » .

---

(١) الانسان : (٧ ــ ١٢) .
(٢) الاسراء : (٩٧) .
(٣) البخاري برقم : (٦٢٦٢) . ومسلم برقم : (٢٨٥٩) . والترمذي في التفسير . وغرلا : جمع اغرل ، وهو الذي لم تقطع منه الجلدة التي على حشفة الذكر .
(٤) البخاري برقم : (٣١٧١) .

● أما أرض المحشر فقد مرّ بنا أن نظام الكون يختل ، فالارض تهتز وتمور ، والكواكب تنتثر ، وقال الله سبحانه : « يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار[1] » . فالتبديل لا بدّ كائن وواقع ، ولكن كيف يكون ذلك ؟

لقد اختلف العلماء في تحديد كيفية هذا التبديل على قولين :

أحدهما : أن تبديل الارض هو عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومدّ أرضها ، وروي هذا مرفوعاً الى النبي ﷺ ، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « تبدل الارض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » .

وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها ، وقيل اختلاف أحوالها ، فتارة تكون كالمهل ، وتارة تكون كالدهان .

ثانيهما : أن التبديل هنا هو إزالة السموات والارض والاتيان ببدلهما ، ولقد رجح القرطبي هذا القول وأيده بمؤيدات ، وعلى كل فقد ورد في صفات الارض التي يكون عليها المحشر أحاديث ، منها ما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي عن النبي ﷺ قال : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة النقي ـ الدقيق الحواري ـ ليس فيها معلم لأحد[2] » المعلم : علامة الملك ببناء أو غيره .

رابعاً ـ الشفاعة :

● ثبوتها : الشفاعة يوم القيامة ثابتة بالقرآن والسنة الصحيحة .

أما القرآن الكريم فقوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » وقوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشية ربهم مشفقون » .

---

(1) ابراهيم : (٤٨) .
(2) البخاري برقم : (٦١٥٦) . ومسلم برقم : (٢٧٩٠) .

وأما السنة فما رواه الترمذي عن ابن عباس قال : « جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، قال فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً ، اتخذ من ابراهيم خليلاً، وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه الله تكليما ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم ، إن ابراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجي الله وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يو مالقيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر[1] » .

ومـا روا هالبخـاري « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبـلي ... وأعطيت الشفاعة » . والأحاديث التي تثبت الشماعة كثيرة ، وهي مثبوتة في كتب الحديث .

● أنواع الشفاعة : والشفاعة على نوعين : الاولى شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والثانية شفاعة غيره من الانبياء والشهداء وصالحي المؤمنين .

شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام :

للرسول عليه الصلا ةوالسلام شفاعة عامة وشفاعة خاصة .

آ ـ أما الشفاعة العامة ـ وهي من خصائصه عليه الصلاة والسلام إكراماً له وإعلاء لقدره ـ فتكون عندما يشتد هول الموقف على الخـلائق ، ويطـول عليهم الوقوف ، ويتمنى أحدهم الخلاص من هذا الموقف ولو الى جهنم ، ويلجأ الخلائق الى الانبياء ليشفعوا لهم عند الله ليتفضل بفصل الحساب ، ويعتذر الجميع ، ويتقدم سيدنا محمد ﷺ ، فيشفعـه الله في الخلائق فيشفـع لهم ، ويتفضل الله تعـالى بفصـل الحسـاب .

(١) الترمذي رقم : (٣٦٢٠) .

وقد ورد في هذه الشفاعة العامة أحاديث كثيرة رواها البخاري ومسلم وغيرهما .

ب ـ وأما الشفاعة الخاصة له عليه الصلاة والسلام ، فتكون خاصة لأمته ، وتحصل بإدخال قوم الجنة بغير حساب ، كما تحصل الشفاعة في قوم استوجبوا النار بأعمالهم ، فيشفع لهم عند الله فلا يدخلونها ، كما تكون شفاعته عليه الصلاة والسلام في إخراج من قال لا إله إلا الله من النار ، كما تكون في رفع درجات قوم في الجنة .

شفاعة الأنبياء والصالحين والقرآن :

لقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن هناك من يشفع غير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فلقد قال الله تعالى في كتابه الكريم : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا[1] » .

ولقد بينت السنة أصنافاً ممن يشفعون يوم القيامة ، من ذلك ما رواه ابن ماجه بسند حسن عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

والعلماء هم العاملون بعلمهم ، والذين يعلمون الناس ما ينجيهم في الآخرة من عذاب الله تعالى . ويشفع كل واحد من هؤلاء على قدر مكانته عند الله تعالى ، فقد قال ﷺ : « إن من أمتي من يشفع للفئام ـ الجماعة الكثيرة ـ ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة[2] » .

« فيشفع عثمان بن عفان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر[3] » .

هذا ومهما قلنا في الشفاعة فانها لا تتناول من مات على كفره ، ولقد قال الله

(١) طه : (١٠٩) .
(٢) اخرجه الترمذي برقم : (٢٤٤٢) .
(٣) اخرجه الترمذي برقم : (٢٤٤١) .

تعالى في كتابه الكريم : « إن الله لا يغفر أن يشرك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما[1] » .

خامسا ـ الحساب :

● بعد أن يقبل الله شفاعة الرسول عليـه الصلاة والسلام للخلائق الواقفـة في المحشر يتفضل الله سبحانه بحساب الخلائق على أعمالها .

والحساب هو إطلاع الله عباده على أعمالهـم ، وما جنوه في دار الـدنيا من تصرفات فعلية أو قوليـة أو اعتقادية ، خـيراً كانت أو شراً ، يطلعهم ربهم عـلى ذلك تفصيـلا .

والحكمة من هـذا الحساب أن يظهر الله فضائل أعمـال المتقين ومناقبهـم ، وفضائح العصاة ومثالبهم ، وذلك على رؤوس الاشهاد .

هذا بالاضافة الى إبراز عدل الله تعالى وفضله على المؤمنين من خلقه جلّ وعلا .

● والآيات الدالة على الحساب كثيرة ، منها : قوله تعالى : « والـذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن مـاء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجـد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب[2] » .

وقوله سبحانه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئـاً وانْ كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين[3] » .

وقوله تعالى : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

---

(1) النساء : (٤٨) .
(2) النور : (٣٩) .
(3) الانبياء : (٤٧) .

وقوله عز وجل : « فذكر إنما أنت مذكر • لست عليهم بمصيطر • إلا من تولى وكفر • فيعذبه الله العذاب الاكبر • إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم[1] » •

وقال جل وعلا : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق • يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار • اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب[2] » •

اصناف الناس في الحساب :

والناس في الحساب ليسوا على درجة واحدة ، إذ لا يعقل أبداً أن يتساوى في الحساب من ألزم نفسه التقيد بأحكام الله تعالى ، مع من دخل في جند الشيطان فهو يعمل بوحيه وارشاده ، ولذلك كان الناس في الحساب على ثلاثة أصناف :

الصنف الاول ــ صنف يدخل الجنة بغير حساب :

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « عرضت علي الأمم ، فأجد النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فاذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ولكن أنظر الى الأفق ، فنظرت فاذا سواد كثير : قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت : ولم ؟ قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون • فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام اليه رجل آخر قال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : سبقك بها عكاشة[3] » •

---

(١) الغاشية : (٢١ ــ ٢٦) •
(٢) غافر : (١٥ ــ ١٧) •
(٣) البخاري برقم : (٦١٧٥) •

الصنف الثاني ـ صنف يحاسب حساباً يسيراً بلا مناقشة ولا تشديد :

وهؤلاء تعرض عليهم أعمالهم عرضـا ، ثم يتجاوز الله تعالى عـن سيئاتهم ، وهؤلاء هم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعـالى فيهم : « فأما مـن أوتي كتابه بيمينـه فسوف يحاسب حساباً يسـيرا • وينقلب الى أهله مسـرورا[1] » •

وقد نقل البخاري لنا صورة حساب هؤلاء ، فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يدنى المؤمن من ربه ، حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه : تعرف ذنب كذا ؟ يقول : أعرف ، يقـول : ربّ أعرف مرتين ، فيقول : سترتها في الدنيا وأغفرهـا لك اليوم ، ثم تطوى صحيفـة حسناته ، وأما الآخرون أو الكفار ، فينادى على رؤوس الاشهاد : « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين[2] » •

الصنف الثالث ـ يحاسب حساباً عسيراً :

وهؤلاء يناقشون ويدقـق عليهم في الحساب • وهؤلاء الذين تحـدث عنهم البخاري فقد روى في صحيحه أن عائشـة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمـع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وأن النبي ﷺ قال : « مـن حوسب عذب » قالت عائشة فقلت : أوليس يقول الله تعالى : « فسوف يحاسب حسابا يسـيرا » ، قالت فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك[3] » •

● هذا ولا بدّ من الاشارة هنا الى أن أول ما يحاسب عليه المرء من حقـوق الله تعالى الصلاة ، وأول ما يحاسب عليه من حقوق العباد الدماء •

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقـول :

---

(١) الانشقاق : (٧ ـ ٨) •
(٢) البخاري برقم : (٤٤٠٨) •
(٣) البخاري برقم : (١٠٣) •

« إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فان صلحت فقد أفلح وأنجح ، وان فسدت خاب وخسر ، فان انتقص من فريضته شيء قال الرب عزّ وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك[1] » .

وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يقضى بين العباد في الدماء[2] » .

● ولا بد من الاشارة هنا أيضا أن هناك ذنوبا لا يغفرها الله تعالى ، من ذلك الشرك ، قال الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ومن ذلك الذنوب المرتكبة بالاعتداء على حقوق العباد ، كالسب والسرقة ونحو ذلك فهذه الذنوب الاصل فيها عدم المغفرة ، ولكن قد يتجاوز الله تعالى عنها بعد إرضاء صاحب الحق . ولقد قال رسول الله ﷺ : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار[3] » .

كيف يتم تسلم صحف الأعمال ؟ :

أخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله[4] » .

---

(١) الترمذي برقم : (٢٤١٣) .
(٢) البخاري برقم : (٦٤٧١) . ومسلم برقم : (١٦٧٨) .
(٣) مسلم برقم : (٢٥٨١) .
(٤) الترمذي برقم : (٢٤٢٧) .

فأما الذين يأخذون كتابهم بيمينهم فهم المؤمنون المخلصون ، فاذا أخذوها بأيمانهم طاروا فرحا ، وأخذوا يعرضون كتبهم على الناس ، سعداء بما آل اليه أمرهم من نعيم الله ، قال الله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه • إني ظننت أني ملاق حسابيه • فهو في عيشة راضية • في جنة عاليه • قطوفها دانية • كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية[1] » •

وأما الذين يأخذون كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم فهم الكافرون الذين لا يؤمنون بالله تعالى ، وما إن يستلمون كتبهم حتى يسقط في أيديهم ، ويتمنوا الموت الأبدي ، قال الله تعالى : « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه • ولم أدر ما حسابيه • يا ليتها كانت القاضية • ما أغنى عني ماليه • هلك عني سلطانيه • خذوه فغلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه • إنه كان لا يؤمن بالله العظيم • ولا يحض على طعام المسلكين • فليس له اليوم ههنا حميم • ولا طعام إلا من غسلين • لا يأكله إلا الخاطئون[2] » • وقال تعالى : « وأما من أوتي كتابه وراء ظهره • فسوف يدعو ثبورا • ويصلى سعيرا[3] » أي يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره •

سادسا ــ وزن الأعمال :

بعد الحساب وتسلم الكتب يجري الوزن ، وهو وزن عام شامل لجميع ما اقترف الانسان من آثام ، وما عمله من صالحات ، وهو ميزان دقيق عادل لا يخطىء ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، قال الله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » •

---

(1) الحاقة : (١٩ ــ ٢٤) •
(2) الحاقة : (٢٥ ــ ٣٧) •
(3) الانشقاق : (١٠ ــ ١٢) •

وإن الذي عليه جمهور العلماء أن الذي يوزن هو الاعمال لا السجلات ، واستدلوا على ذلك بأحاديث عديدة منها :

١ ـ مارواه مسلم والترمذي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والارض ، والصلاة نور ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها[١] » .

٢ ـ ما آخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان حبيبتان الى الرحمن : خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم[٢] » .

● والخلق في وزن الأعمال يكونون على ثلاثة أصناف :

الصنف الاول : هم الذين ثقلت موازينهم ، ورجحت كفة الحسنات على كفة السيئآت ، وهؤلاء هم أصحاب الجنة ، قال الله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية[٣] » .

الصنف الثاني : هم الذين خفت موازينهم ، ورجحت كفة السيئآت على كفة الحسنات ، وهؤلاء هم أصحاب النار ، قال الله تعالى : « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه . نار حامية[٤] .

الصنف الثالث : هم الذين استوت حسناتهم وسيئآتهم ، وهؤلاء هم أهل الأعراف ، ويبقى هؤلاء حتى يمتحنهم الله ، فأمرهم موكول اليه سبحانه .

---

(١) مسلم برقم : (٢٢٣) . والترمذي برقم (٣٥١٢) .
(٢) البخاري برقم : (٧١٢٤) . وهو آخر حديث فيه .
(٣) القارعة : (٨ ـ ١١) .
(٤) القارعة : (٦ ـ ٧) .

● ولسائل أن يسأل : ما حقيقة هذا الميزان الذي توزن به الاعمال ؟

والجواب على ذلك أننا في هذه الدنيا عندنا عدة موازين ، وكل ميزان معد للأمر الذي يقوم به ، ويختلف تركيبه عن تراكيب الموازين الاخرى ، فميزان للحرارة ، وميزان للكثافة ، وميزان للضغط ، وميزان للأجسام ، وهكذا .

والله سبحانه قادر على ايجاد ميزان يتناسب مع وزن الاعمال ، ولكن معرفة حقيقة هذا الميزان موكول الى علم الله سبحانه .

سابعا ـ الصراط :

بعد وزن الاعمال يتجه الخلائق الى الصراط .

معنى الصراط :

الصراط في اللغة معناه الطريق ، وأما في مصطلح الشارع فانه قد أطلق على معنيين : أحدهما في الدنيا ، وهو المنهج الذي شرعه الله لعباده وأمرهم باتباعه ، وهذا هو المعنى بقوله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون[1] » .

ثانيهما في الآخرة : وهو الجسر الذي ينصب على نار جهنم يوم القيامة ، فيجتاز عليه الناس كلهم على اختلاف مذاهبهم وأحزابهم واتجاهاتهم ، فالمؤمنون ينجون بحسب حالهم ، والآخرون يسقطون في نار جهنم ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الصراط بقوله : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً . ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً[2] » .

قال الامام النووي رحمه الله في شرح مسلم : « ولقد أجمع السلف على اثبات

---

(١) الانعام : (١٥٣) .
(٢) مريم : (٧١ ـ ٧٢) .

الصراط ، وهو جسر على متن جهنم يمرّ عليه الناس كلهم ، فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم ، والآخرون يسقطون فيها ، أعاذنا الله الكريم منها » .

صفة الصراط وحقيقته :

لقد ورد في الحديث بعض صفات لهذا الصراط الذي يمرّ عليه الناس يوم القيامة ، من ذلك :

١ - أنه زلق تزل فيه الأقدام : فقد روى البخاري في صحيحه ومسلم عن أبي سعيد الخدري في حديث طويل عن الرسول عليه الصلاة والسلام : « ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم ، قلنا : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : مدحضة مزِلَّة ، عليه خطاطيف وكلاليب ، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفة ، تكون بنجد يقال لها السعدان ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ...[1] » .

٢ - أنه أدق من الشعر وأحدّ من السيف : فقد روى الامام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قوله : « ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف » . وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف[2] » وهذا له حكم الحديث المرفوع .

كيفية اجتياز الصراط :

بعد وزن الأعمال يتجه الناس الى الصراط لاجتيازه ، ويكون سيد الخلائق محمد عليه الصلاة والسلام أول من يجتاز الصراط مع أمته ، كما ثبت ذلك بالحديث الصحيح .

---

(١) البخاري برقم : (٧٠٠١) . ومسلم برقم (١٨٣) .
(٢) مسلم برقم : (١٨٣) .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « و يضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم[1] » .

ويجتاز المؤمن الصراط ونوره يسعى بين يديه ، لا يتعثر ولا يلتوي ، كما قال الله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم[2] » . فمنهم من يمرّ كطرفة عين ، ومنهم من يمرّ كالبرق ، ومنهم من يمرّ كالريح ، ومنهم من يمرّ كالطير ، ومنهم من يمرّ كأجاويد الخيل ، ومنهم من يمرّ كراكب الإبل ، كل حسب عمله وإخلاصه لله تعالى ، وقد مرّ بك من قريب الحديث الذي يدل على ذلك . وفي الصراط يقول الامام الغزالي : « وهذا ممكن فيجب التصديق به ، فان القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الانسان على الصراط[3] » .

أما الكافرون والمنافقون الذين تنكروا لرسل الله ومبادئهم ، فانهم سرعان ما تنزلق أرجلهم عن الصراط ، فتخطفهم خطاطيف فتلقيهم في النار ـ وقانا الله من ذلك ـ .

الحكمة من الصراط وبيان اهواله :

إن هذا الصراط الذي يمر عليه الناس إن هو إلا تجسيد لمعنى الصراط الذي ألزم الله به عباده في الدنيا ، فمن ضيق على نفسه سبل العيش والحياة ، وامتنع عما حرمه الله حتى لا يخرج عن صراط الله ومنهجه ، اتسع أمامه الصراط على متن جهنم ، ومن وسع على نفسه سبل العيش والحياة ، وتجاوز حدود الله وأحكامه ، ضاق عليه ذلك الصراط غداً .

---

(1) البخاري برقم : (٧٠٠٠) . ومسلم برقم : (١٨٢) .
(٦) الحديد : (١٢) .
(٣) إحياء علوم الدين : (١/١١٥) .

ولقد تحدث الامام الغزالي رضي الله عنه في كتابه : « إحياء علوم الـدين » مبيناً حكمة هذا الصراط وأهواله فارجع اليه إن شئت[1] » •

ثامنا ـ الجزاء :

لقد تبين لك من خلال الحديث عن الصراط أن الناس في الآخرة ينقسمون الى فريقين على حسب أعمالهم : فريق في الجنة وفريق في السعـير ، ولا بدّ هنا مـن التأكيد على حقيقتين :

الأولى :أن النعيم في الجنة ، والعذاب في النار هما للروح والجسد معاً ، لأن البعث والحشر والحساب يكون لهما معاً ، وسيأتي توضيح ذلك عند الحديث عن الجنة والنار قريبـاً •

الثانيـة : أن كلاً من الجنة والنار يخلد مـن دخل اليهما ، ما عـدا عصاة المؤمنين فهؤلاء يعاقبون على مقدار أعمالهم اذا لم يعف الله عنهم ، ثم يؤخذون الى الجنة ليثابوا على إيمانهم ، ولن يخلد أحد من المؤمنين في النار ، قـال الله تعالى :

« فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق • خالـدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد • وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيهـا ما دامت السمـوات والارض إلا ما شـاء ربك عطاء غـير مجذوذ[2] » • وقال سبحانه : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهـم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين • خالدين فيهـا لا يخفف عنهم العذاب ولا هـم ينصـرون[3] » •

وما أكثر الآيـات في القرآن الكريم الدالة على خلود أهل الجنة في الجنة ، وخلود أهل النار في النـار •

---

(1) المرجع لسابق : (٤/٥٢٤)
(٢) هود : (١٠٦ ـ ١٠٨) •
(٣) البقرة : (١٢١ ـ ١٦٢) •

ومما يدل على أن عصاة المؤمنين يخرجون من النار ويدخلون الجنة ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن ذرة[١] » .

هذا واذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، أعلن على الفريقين أن حياتهم على هذا الشكل خالدة .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اذا صار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ثم ينادى يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً الى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً الى حزنهم[٢] » .

الجنة والنار وما جاء في وصفهما :

قلنا إن الناس ينقسمون يوم القيامة الى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في النار ، فما هي حقيقة الجنة وما هي حقيقة النار ؟

ولكن قبل أن نجيب على هذا السؤال ، لا بدّ لنا من تساؤل آخر هل الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن ؟

جمهور أهل السنة ، وأبو علي الجبائي وأبو الحسن البصري يذهبون الى أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن ، واستدلوا على ذلك بدليلين :

أحدهما : قصة آدم وحواء ، وإسكانهما الجنة وإخراجهما منها بالزلة ، وقوله

---

(١) البخاري برقم : (٤٤) . ومسلم برقم : (١٩٣) . والترمذي برقم : (٢٥٩٦) .
(٢) لبخاري برقم : (٦١٨٢) . ومسلم برقم : (٢٨٥٠) .

تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعاً » والهبوط في الأصـل النزول من الاعـلى الى الاسفل . واذا كانت الجنة مخلوقة فالنار كذلك ، اذ لا قائل بالفرق .

الثاني : قوله تعالى في صفتهما : « أعدت للمتقين » « أعدت للكافرين » بلفظ الماضي ، وهو صريح في وجودهما[1] . ومن الأدلة أحاديث المعراج الصحيحة .

١ ـ الجنة وما جاء في صفتها :

● الجنة مأخوذة من مادة ج ن ن ، وهذه المادة تعني في اللغة العربية الستر ، ومنه المجن والجنين والمجنون ، ومنه الجنة بمعنى البستان ، سميت بذلك لاستتار أرضها بالاشجار والمروج .

وأما الجنة في عرف الشرع فهي الدار التي أعـدها الله في الآخرة للصالحـين مـن عبـاده .

● ولقد جاء في القرآن الكريم والاحاديث الصحيحة وصف لهذه الجنة نذكر منهـا ما يلي :

٢ ـ مكان الجنـة :

مكان الجنـة فـوق السمـاء السابعـة ، وسقفهـا عـرش الرحمـن ، قال الله تعالى : « ولقـد رآه نزلـة أخرى . عنـد سدرة المنتهى . عندها جنـة المأوى[2] » وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السمـاء السابعة ، أما كـون سقفها عرش الرحمن فقد ثبت في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن عبادة أن رسول الله ﷺ قال : « في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كمـا بين السمـاء والارض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنه تفجر أنهار الجنة الاربعة ، ومن فوقها يكون عرش الرحمن ، فاذا سألتم الله فسلوه الفردوس[3] » .

---

(١) انظر المواقف : (٣٧٤ ـ ٣٧٥) .
(٢) النجم : (١٣ ـ ١٥) .
(٣) الترمذي برقم : (٢٥٣٣) .

ب ـ ابوابها ومفاتحها :

للجنة ثمانية أبواب ، فقد روى البخاري ومسلم عن سهل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون[1] » .

ومفتاح الجنة « لا إله إلا الله » فقد روى الامام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله » .

ج ـ بناء الجنة وترابها وغرفها واشجارها وثمارها :

روى الترمذي عن أبي هريرة قلت : يا رسول الله مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء ، قلت : الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة من فضة ولبنة من ذهب ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران[2] » .

ولقد جاء في القرآن الكريم أن في الجنة غرفاً ، قال الله تعالى : « ولكن الذين ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار[3] » .

وجاء في الحديث وصف لهذه الغرف ، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي « أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق الى المغرب[4] » .

وقد ذكر القرآن الكريم أن في الجنة فاكهة ورماناً ، وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام لا يقطعها[5] » .

---

(١) لبخاري برقم : (٢٠٨٤) . ومسلم برقم : (١١٥٢) .
(٢) الترمذي برقم : (٢٥٢٨) والملاط ما يجعل من الطين بين ساقي البناء .
(٣) الزمر : (٢٠) .
(٤) البخاري برقم (٣٠٨٣) . ومسلم برقم : (٢٨٣١) .
(٥) البخاري برقم : (٦١٨٦) . ومسلم برقم : (٢٨٢٧) .

د ـ اول من يدخل الجنة وآخر من يدخلها :

أول من يدخل الجنة محمد عليه الصلاة والسلام ، روى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك[1] » ثم يدخل خلف رسول الله ﷺ أمته على أفواج ، وجه الواحد منهم كالبدر المنير ، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة ...[2] » .

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله تبارك وتعالى لـه : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملأى ، فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملأى ، فيقول له : اذهب فادخل الجنة ، فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ، فيقول : أتسخر بي وأنت الملك ، قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، قال : فكان يقال ذاك أدنى أهل الجنة منزلة[3] » .

فاذا كان هذا ما يناله أدنى أهل الجنة منزلة ، فكيف بمن كان أعلاهم منزلة ، فاللهم إنا نسألك الفردوس في الجنة يا رب العالمين .

هذا وليس في الجنة كبير في السن ولا صغير فيه ، وانما هم جميعا في سن واحدة هي ثلاث وثلاثون سنة .

---

(١) اخرجه مسلم برقم : (٣٣٣) .
(٢) البخاري برقم : (٣٠٨١) .
(٣) الترمذي برقم : (٢٣٥٦) .
(٤) البخاري برقم : (٦٢٠٢) ومسلم برقم : (١٨٦) .

روى الترمذي في سننه عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين أو أبناء ثلاث وثلاثين سنة[1] » وقال حديث حسن غريب .

هـ ـ طعام اهل الجنة وشرابهم ولباسهم ونساؤهم :

ليس في الجنة طعام محدّد ، بل فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين ، إمعانا في النعيم ، قال الله تعالى : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون[2] » .

فإن اشتهى الفاكهة وجدت ، وإن اشتهى اللحوم وجدت ، وإن اشتهى غير ذلك كان له ما يشتهي ، قال الله تعالى : « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون[3] » .

أما شرابهم فرحيق مختوم ممزوج بالمسك ، قال الله تعالى : « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك[4] » أو ماء ممزوج بالكافور أو الزنجبيل قال الله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا[5] » وقال : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عيناً فيها تسمى سلسبيلا[6] » .

فهم يأكلون ويشربون بكل سعادة ، لأن الله تعالى يقول : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية[7] » .

---

(1) الترمذي برقم : (٢٥٤٨) .
(2) الزخرف : (٧٠ ـ ٧٢) .
(3) الواقعة : (٢٠ ـ ٢١) .
(4) المطففين : (٢٥ ـ ٢٦) .
(5) الانسان : (٥) .
(6) الانسان : (١٧ ـ ١٨) .
(7) الحاقة : (٢٤) .

ولكن أين تذهب فضلات هذا الطعام والشراب ، وهل في الجنـة مراحيض وكنف كما هي الحال في الدنيا .

يجيب عن هذا السؤال ما ورد في صحيح مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهل الجنة يأكلون فيهـا ويشربون ، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشـح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس[1] .

وأما لباس أهل الجنة فثيابهم فيها السندس والاستبرق ، وحليّهم فيها الذهب قال الله تعالى : « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها مـن أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيهـا عـلى الأرائـك[2] » .

وليس هذا فحسب ، بل لهم فيها ما يشتهون من اللباس والحلي وغـيرها ، وقد قال الله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحـات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير[3] » .

وأما نساء أهل الجنة فكلهن في عمر الورد عذارى ، كل واحـدة منهن تحب زوجها الحب الشديد ، ولا يمتد طرفها الى غيره ، فهن في أوج الإخـلاص له ، قال الله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين[4] » وقال سبحانه : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان[5] » وقـد جاء في وصف جمالهن أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري والترمذي عن أنس رضي

---

(١) مسلم برقم : (٢٨٣٦) .
(٢) الكهف : (٣١) . السندس : مارق من الديباج . والاستبرق : ما غلظ من الديباج .
(٣) الحج : (٢٣) .
(٤) الواقعـة : (٣٥ ـ ٣٨) والعرب : جمع عروب وهي المتحببة الى زوجها .
(٥) الرحمن : (٥٦) .

الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت الى أهل الارض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحا ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها[1] » .

و ـ إحلال الرضوان على اهل الجنة :

وإن مما يطمئن أهل الجنة على نعيمهم المقيم الذي لا شقاء بعده ، ويجعلهم يتقلبون في السعادة الأبدية ، ويطمئنون على أبديتها اطمئنانا لا يعرف القلق ؛ تطمين الله لهم بأن رضاه عليهم لا سخط بعده أبدا .

أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا[2] » .

هذا ومما يزيد المؤمنين في الجنة شعوراً بزيادة إكرام الله لهم ، رؤيته سبحانه في الجنة ، فقد أخرج مسلم عن صهيب قال : « إن النبي ﷺ تلا هذه الآية : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ثم قال : « اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار : قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبّ اليهم من النظر الى ربهم عزّ وجل[3] » .

هذا وقد مرّ الحديث عن رؤية الله في الجنة يوم القيامة عند الحديث عن صفات الله عزّ وجل .

---

(1) البخاري برقم : (٢٦٤٣) والترمذي برقم : (١٦٥١) .
(2) أخرجه البخاري برقم : (٦١٨٣) ، ومسلم برقم : (٢٨٢٩) ، والترمذي
(3) برقم : (٢٥٥٨) .
(4) مسلم برقم : (١٨١) .

٢ ـ النار وما جاء في صفتهـا :

إن الباحث في أمر النار وما جاء فيها مــن آيات وأحاديث ، لا يستطيــع أن يحيط بها وصفاً لكثرة ما جاء فيها ، فحسبنا هنا أن نتناول بعض جوانب مما ورد في شأن النار التي جعلها الله عقابا للكافرين الجاحدين •

آ ـ أبواب النار ودركاتها :

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه أن لجهنم سبعــة أبواب فقال سبحانه : « وإن جهنم لموعدهم أجمعين • لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم[1] » وكــل باب من هذه الأبواب في طبقة من طبقات جهنم ، يعني أن جهنم سبع طبقات بين كل طبقة وأخرى باب ، وكل طبقة تسمى دركاً •

وهذه الطبقات هي : جهنم ، والسعير ، ولظى ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية والحطمــة •

واذا رأدت أن تعرف عمق جهنم وصفتها وهي أصغر دركات الجنة ، فاقرأ هذا الحديث الذي أخرجه عتبة بن غزوان عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين عاما وما تفضي الى قرارها[2] » •

وفي مسلم عن أبي هريرة قــال : « كنا مع رســول الله ﷺ اذ سمع وجبــة ـ سقطة ـ فقال النبي ﷺ : « تدرون ما هــذا ؟ قال : قلنا الله ورسولــه أعلم ، قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار الى الآن حتى انتهى الى قعرها[3] » •

وفي مسلم أيضا عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ناركم هذه التي يوقــد

---

(١) الحجر : (٤٤) •
(٢) الترمذي برقم : (٢٥٧٨) •
(٣) مسلم برقم : (٢٨٤٤) •

ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم . قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله ، قال : فانها فضلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً كلها مثل حرها[1] » .

ب ــ بعض صفات اهل النار :

الصفة الاولى : أن جلودهم في حالة تبديل دائم ، ليدوم عليهم العذاب ، قال الله تعالى : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما[2] » .

الصفة الثانية : تضخم أجسامهم ليكون العذاب عليهم أشد ، فاننا ندرك في الدنيا أن زيادة المساحة المتألمة أكثر عذابا ، فمن تحرق يده كلها أكثر ألما ممن تحرق أصبعه .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع » .

ج ــ طعام اهل النار وشرابهم :

لم نفصل لك القول في أهل النار الذين يكبون في النار على وجوههم ، ومن ا، ومن تحتهم النار ، وعن أيمانهم النار وعن شمالهم النار ، فهم غرقى في هم نار وشرابهم نار ، ولباسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النار من قطران ، تثقلهم السلاسل وتضربهم مقامع الحديد ، فهم يتلجلجون النار ، ويتحطمون في دركاتها ، تغلي بهم النار كغلي القدور ، ويهتفون لثبور ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من

مسلم برقم : (٢٨٤٣) .
النساء : (٥٦) .
البخاري برقم : (٦١٨٥) . ومسلم برقم : (٢٨٥٢) .

أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، وتسقط من الوجنات لحومهم ، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها • لن نفصل لك القول في هذا اذ قد ذكر القرآن الكثير منه ، وعرضه عرضا تهلع له النفوس ، وترتجف منه الأفئدة ، ولكن حسبنا هنا أن نقدم لك صورة عن طعام أهل النار وشرابهم •

١ ـ أما طعامهم فهو ثلاثة أصناف : ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم ، كل صنف من أهل النار يأكل صنفاً من هذا الطعام •

الصنف الاول : الزقوم • قال الله تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون[١] » فهم اذاً لا يأكلون لقمة أو لقمتين ، وانما يملؤون منها بطونهم ، وشجرة الزقوم هذه قد جاء وصفها في القرآن الكريم نفسه ، قال الله تعالى : « إن شجرة الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلي في البطون • كغلي الحميم[٢] » وقال سبحانه : « أذلك خير نزلا أو شجرة الزقوم • إنا جعلناها فتنة للظالمين • إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين • فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون[٣] » • ولقد جاء في الحديث وصف طعمها • فلقد روى الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا ؛ لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف يكون طعامه[٤] » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح •

الصنف الثاني : الضريع • قال الله تعالى : « ليس لهم طعام إلا من ضريع • لا يسمن ولا يغني من جوع[٥] » والضريع هو نبت ذو شوك لاصق بالارض تسميه قريش « الشبرق » اذا كان رطباً ، فاذا يبس فهو « الضريع » لا تقربه دابة ولا ترعاه وهو سم قاتل ، وهو أخبث الطعام وأشنعه •

---

(١) الواقعة : (٥١ ـ ٥٣) .
(٢) الدخان : (٤٣ ـ ٤٦) .
(٣) الصافات : (٦٢ ـ ٦٦) .
(٤) الترمذي برقم : (٢٥٨٨) .
(٥) الغاشية : (٦ ـ ٧) .

الصنف الثالث : الغسلين . قال الله تعالى : « فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون[1] » والغسلين هو الصديد السائل من أجساد أهل النار وفروجهم .

والصفة العامة لهذه الاصناف الثلاثة التي هي طعام أهل النار ، أنها يغص بها الآكل ، اذ لا يكفي في العذاب أكلها مع ما هي عليه من بشاعة في الطعم والمنظر ، بل يزاد على ذلك أنها تقف في الحلوق ، فيغص بها الآكل . قال الله تعالى : « إن لدينا أنكالاً وجحيما ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليما[2] » .

٢ ـ وأما شرابهم : فهو الحميم . قال الله تعالى : « والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم[3] وقد جاء وصف هـذا الحميم في القرآن الكريم . قال تعالى : « ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه[4] » وقال سبحانه : وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا[5] » . وقال سبحانه : « وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم[6] » .

د ـ اخف أهل النار عذابا :

لقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي بيان لمن هو أخف الناس عذابا ، فقد رووا عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل ، توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه[7] » فاللهم أجرنا من عذاب النار وأدخلنا جنتك بسلام يا أرحم الراحمين .

---

(١) الحاقة : (٣٥ ـ ٣٦) .
(٢) المزمل : (١٢ ـ ١٣) .
(٣) يونس : (٤) .
(٤) ابراهيم : (١٧) .
(٥) الكهف : (٢٩) .
(٦) محمد : (١٥) .
(٧) البخاري برقم : (٦١٩٣) . ومسلم برقم : (٢١٣) . والترمذي برقم : (٢٦٠٧) .

خاتمـــة

نظرة شاملة في خصائص العقيدة الاسلامية ومستقبلها

خصائص العقيدة وآثارها :

١ ــ خصائص العقيدة لاسلامية :

تمتاز العقيدة الاسلامية التي أوضحناها فيما مرّ ، تمتاز عن العقائد الاخرى بمجموعة من المميزات والخصائص ، وفيما يلي نوضح لك أهمها :

١ ــ وضوحها وبساطتها : فان هذه العقيدة على جلالها وعمق أثرها بسيطة لا تعقيد فيها ، واضحة لا غموض فيها ، فليس توحيد الله تعالى وما يتبعه من أمور العقيدة ، ليس ذلك بالامور التي يعسر على الفكر الانساني فهمها والاقتناع بها ، فالبدوي في صحرائه ، والمتحضر في مدينته ، والعالم بين كتبه أو مخبره سواء في تعقل هذه العقيدة ، وانما يتفاضلون في قدرتهم على اقامة البرهان عليها ، وما ذلك إلا لأنها عقيدة فطرية ، لو ترك الانسان وشأنه لما اهتدى إلا اليها ، ولما آمن إلا بها « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

ولأن العقيدة الاسلامية متجاوبة مع الفطرة السليمة نرى أن فريقاً من العرب قبل الاسلام ، ممن صفت فطرته ، ورقت نفسه ، كزيد بن عمرو بن نفيل ، وكقس ابن ساعدة ، آمنوا بوحدانية الله تعالى ، كما آمنوا بالبعث والنشور والحساب ، ونبذوا ما كان عليه قومهم من عبادة الاصنام والذبح لها ، وما تبع ذلك من عقائد .

٢ ــ ملاءمتها للمنطق والتفكير السليم :

فالعقيدة الاسلامية لا يوجد عند المنطق والعقل السليم ما يأباها ويرفضها ، بل ان الدين الاسلامي نفسه قد أعظم من شأن العقل ، وطلب من الانسان أن يفكر ويتأمل ، وأن لا يؤمن بشيء إلا بعد إقامة البرهان عليه ، ودعا الى نبذ التقليد الاعمى كما أوضحنا ذلك في بحث سابق .

---

(١) البداية والنهاية : (٢/ ٢٣٦ ــ ٢٣٧) .

صحيح أن بعض العقائد لا يستطيع أن يقيم العقل عليها برهانا لأنها من الاشياء التي تكون وراء هذا العالم المادي ، إلا أنها عندما تعرض عليه لا نجد عنده ما يعارضها •

أضف الى ذلك أنها آتية عن طريق الخبر المتواتر الذي هو طريق من طرق اثبات الحقائق العلمية ، وأنها مرتبطة بالايمان بالله تعالى الذي أقيم عليه براهين عقلية ، فمآل هذه الامور الى أن تكون أدلتها عقلية •

٣ ـ انها تجعل من المؤمن ذا عزة وكرامة :

فهي تجعل المؤمن سيد نفسه ، لا يخضع إلا لربه ، ولا يطأطىء رأسه إلا لخالقه ، ولا يطيع إلا أوامره ، وهو إن أطاع حاكمه فانما يطيع فيه أحكام الله جل جلاله ، ولا يخشى أحدا إلا الله « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله[1] » •

قبل وقعة القادسية التي نصر الله فيها عباده المؤمنين على أعدائهم من الفرس بعث رستم قائد الفرس الى سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين أن يبعث اليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه ، فبعث اليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له : إنكم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونكف الأذى عنكم ، فارجعوا الى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول الى بلادنا ، فقال المغيرة : إنا ليس طلبنا الدنيا ، وانما همنا وطلبنا الآخرة ، وقد بعث الله الينا رسولا قال له : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق ، لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به إلا عز •

فقال له رستم : فما هو ؟ فقال : أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به

---

(١) الاحزاب : (٣٩) .

فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، فقال ما أحسن هذا ؟ ! وأي شيء أيضا ؟ قال : وإخراج العباد من عبـادة العباد الى عبادة الله ، قال : وحسن أيضا ، وأي شيء أيضا ؟ قـال : والناس بنو آدم ، فهـم إخوة لأب وأم ، قال : وحسن أيضا • ثم قال رستم : أرأيت إن دخلنا في دينـكم أترجعون عن بلادنا ؟ قال : أي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة ، قال : وحسن أيضا • قال : ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الاسلام فأنفوا ذلك ، وأبو أن يدخلوا فيه •

ثم بعث سعد اليه رسولا آخر بناء على طلبه ، وكان هذا الرسول ربعي بـن عامر ، فدخل عليه ، وكانوا قد زينوا مجلسه بالنمارق الذهبية ، والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت والجواهر واللآلىء الثمينة والزينة العظيمـة ، وعليه تاجه وقـد جلس على سرير مـن ذهب •

ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصـيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطهـا ببعض تلك الوسائد ، وأقبـل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحـك فقال ، إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فـان تركتموني هكذا وإلا رجعت ، فقـال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق حتى خرقها ، فقالـوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينـه الى خلقه لندعوهم اليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي الى موعود الله ، قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال مـن أبى ، والظفر لمن بقي • فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى نظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم ، كم أحب اليكم يوما أو يومين ؟ قال لا حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا ، فقال ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل،

فقال : أسيدهم أنت ؟ قال لا ولكنْ المسلمون كالجسد يجير أدناهم على أعلاهم[1].

ومن هذه النقطة نرى أن العقيدة الاسلامية قد حررت الانسان من الاستبداد السياسي ، اذ اعتبرت أن الحاكم مثله في الانسانية ، والعبودية لله والحقوق والواجبات ، وعليه أن يقوّم خطأه واعوجاجه اذا رأى ذلك منه ، وأن يدفع الظلم الاجتماعي ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة واقعية تشعرنا بمدى أثر هذه العقيدة في السمو في الانسان . فليس في الاسلام استعباد انسان لانسان وتسخير طبقة لطبقة ، أو شعب لحاكم ، أو تقديس أو تأليه لفرد ، مما يؤدي الى الظلم والطغيان .

كما حررت الانسان نفسه من شهوات نفسه ، لأنها ربطت قلبه بالله تعالى ، ولم تربطه بأهوائه ونزواته ونوازعه وشهواته .

وحررته من العصبيات القبلية التي قاتل الانسان من قبل في سبيلها وضحى من أجلها بكل ما يملك .

وحررته من العصبيات القومية ، وجنبته في ذلك صراعا داميا عنيفا ، ولم تستطع المدنية الحاضرة على الرغم من ارتقائها في المجال العلمي والصناعي والفني ، أن تجنبه ذلك الصراع الذي أودى بحياة الملايين من الناس ، وهدم وخرّب ما بنته المدنية في عصور طويلة ، زد على ذلك ما خلفت هذه العصبيات في القلوب من أحقاد وضغائن ، وأكبر شاهد على ذلك النازية وما حدث في الحرب العالمية الثانية .

٤ – انها تربط بين الانسان والكون :

وذلك عندما دعا الله سبحانه الى الايمان به وجعل النظر في الكون والتأمل فيه وطريقة الاستفادة منه طريقا الى ذلك فقال سبحانه : « قل انظروا ماذا في السموات

---

(١) انظر البداية والنهاية : (٧/٣٩ – ٤٠) .

والارض » « إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » « وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » الى غير ذلك من الآيات التي مرّ كثير منها في مبحث الايمان بالله سبحانه .

ولقد مرّ بنا أن القرآن الكريم قد جعل أولئك الذين يتأملون فيما خلق الله في هذا الكون ، ويتبصرون في إبداع الله لهذا الكون ، جعل أولئك هم أصحاب الخشية لله سبحانه وذلك في قوله : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور[1] » .

٥ - انها تغذي في الانسان ما فطر عليه من غريزة حب البقاء :

فالانسان في نظر الاسلام لا ينتهي وجوده بموته ، بل انه سيبعث بعد الموت ويحاسب على ما عمل ، وينتهي الأمر فيه الى أن يكون إما خالداً في الجنة ان كان ممن استفاد من حياته في هذه الدار وتوجه الى الايمان والعمل الصالح ، وإما خالداً في النار ان كان قد أضاع هذه الفرصة الثمينة التي أعطيت له ، فأمضى حياته الدنيوية في بعده عن الله والكفر به ومخالفته وعصيانه ، وما الدار الآخرة في عقيدة المسلم إلا استمرار لنوعية حياته الدنيوية ، وما الموت إلا مرحلة ينتقل بها من دار فانية الى دار باقية ، ولقد قال الله سبحانه لآدم حينما أهبط من الجنة : « قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى[2] » . وقال سبحانه : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت

---

(١) فاطر : (٢٧ - ٢٨) .
(٢) طـه : (١٢٣ - ١٢٦) .

لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد • فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق • خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد • وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ(١) » •

وخاصية البقاء هذه والخلود الأبدي أمر اختص به الانسان من بين الكائنات الحية على ظهر الارض تكريما له •

ورد في الحديث عن ابن عمر : « اذا كان يوم القيامة مدّت الارض مدّ الأديم وحشر الدواب والبهائم والوحوش ، ثم يوضع القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها ، فاذا فرغ القصاص بينها قيل لها : كوني ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : ياليتني كنت ترابا(٢) » •

٦ ـ كونها صالحة للتعميم بخلاف القيم المؤقتة :

فهناك مبادىء وقيم محلية لا يصلح تعميمها على البشرية ، فمثلاً اليابان ألهوا ملكهم ، وهناك فئة تجعل الوطنية أو العرقية عقيدة لهم ، فأمثال هذه الامور لا تصلح لكل زمان ومكان ، ولا يصح بحال تعميمها على البشرية ، اذ لا بدّ من أن يصطدم بعضها ببعض ، أما عقيدة الإله الواحد فهي تصلح للتعميم في كل شعب وجنس وعرق ، وهذا ما تتجه اليه الانسانية في عصرنا الحاضر ، بعد أن رأت فساد هذه النظريات والمبادىء والعقائد المرتجلة الموضوعة ، والمخالفة لطبيعة الانسان والحياة ، ومن هنا قال الله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » • وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس ، ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند

---

(١) هود : (١٠٣ ـ ١٠٨) •

(٢) انظر تفسير القرطبي : (٢٠/١٨٧) • وانظر تفسير الطبري عند قوله تعالى : « ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا » واصل الحديث في صحيح مسلم والترمذي ومسند احمد •

الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب[1] » •

٧ ــ تطابقها مع الرسالات السماوية السابقة :

الرسالات السماوية من حيث العقيدة كلها متطابقة في أركانها وأهدافها ، فآدم عليه السلام ــ وهو أول رسول من البشر ــ ومن بعده من الانبياء والمرسلين الى محمد عليه الصلاة والسلام ، قد نادوا جميعا بعقيدة واحدة لم تتغير ولم تختلف باختلاف العصور ، لأنها من الأمور الثابتة غير القابلة للتحول والتغيير •

فعقيدة موسى هي عقيدة عيسى عليهما السلام ، وعقيدتهما هي عقيدة محمد عليه الصلاة والسلام • قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[2] » • ولقد أمر الله رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقول للناس إن دعوته في العقيدة ليس فيها شيء مبتكر ومستحدث ، وما هي إلا تجديد لدعوة الرسل قبله ، قال تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل » •

هذا ولئن رأينا اختلافاً في العقيدة بين رسالة وأخرى على اختلاف الأزمان والعصور ، فلنعلم أن مردّ ذلك ليس الى اختلاف في أصل الرسالات ، وإنما مردّه الى دسّ الدساسين وتحريف المحرفين وتأويل المغرضين •

ولقد فضح الله هؤلاء ، وأوضح هذه الحقيقة فقال سبحانه في كتابه الكريم في شأن اليهود : « ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه[3] » وقال أيضا : « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً

---

(١) انظر نور اليقين : (٢٤٥) •
(٢) الشورى : (١٧) •
(٣) المائدة : (٤١) •

قليلا فبئس ما يشترون » وقال في شأن النصارى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة[1] » وقال أيضا : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار[2] » . وقال أيضا : « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذوني وأمين إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد[3] » .

هذا ولا بد من البيان هنا أن هذه العقيدة التي أنزلها الله تعالى على رسله جميعهم أسماها عقيدة الاسلام ، وهذا الاسلام هو الايمان بالله وحده والاستسلام له والخضوع لأوامره ، ومن هنا قال الله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم[4] » وقال سبحانه في شأن ابراهيم عليه السلام : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلاّ من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لله رب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون[5] » الى غيرذلك من الآيات التيتؤكدهذا المعنى وتوضحه أيما ايضاح .

هذه بعض خصائص العقيدة الاسلامية ، وهناك خصائص أخرى أضربنا عن ذكرها خشية الاطالة .

---

(1) المائدة : (٧٣) .
(2) المائدة : (٧٢) .
(3) المائدة : (١١٦ ـ ١١٧) .
(4) آل عمران : (١٩) .
(5) البقرة : (١٣٠ ـ ١٣١) .

هذا وقد ترتب على هذه الخصائص والميزات آثار ذات أهمية في حياة الفرد والمجتمع ، وفيما يلي نوجز لك هذه الآثار :

آثار العقيدة الاسلامية في الفرد والمجتمع :

للعقيدة الاسلامية أهمية كبرى ومكانة عظمى في حياة الانسان ، نظرا الى المهمة التي تقوم بها ، والآثار الرفيعة التي تخلفها في حياة الانسان فرداً ومجتمعا ، لأنها تقوم على أسس يقينية ثابتة ، ومبادىء علمية حقيقية ، واليك بعض آثار العقيدة الاسلامية :

١ ـ العقيدة الاسلامية تعطي الفكرة الصحيحة عن الانسان والكون والحياة :

فالانسان في عقيدة الاسلام هو خليفة الله في الارض ليعمرها ويقيم الحياة الانسانية على أرجائها « وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم[١] » .

فالانسان هو سيد هذه الارض ، يستمد سيادته من ربه الذي منحه هذه السيادة ، وهو مؤهل لهذه السيادة بالعقل الذي منحه الله تعالى إياه .

والكون بجميع أجرامه وقواه وقوانينه هو مصنوع لخدمة هذا الانسان ومهيأ لمنفعته ، ولقد ابتدعته قدرة الله تعالى على نظام يساعد النوع الانساني على استبقاء حياته على ظهر الارض الى الأجل الذي ضربه الله لبقاء الحياة على ظهر الارض ، وذلك عندما يرث الله الارض وما عليها . فما على الانسان إلا أن يعمل عقله ويشحذ تفكيره للتوصل الى الطريقة التي يستخدم بها هذا الكون لمنفعته ، وبذلك استطاعت العقيدة الاسلامية أن تجعل الطبيعة خادماً مطيعاً ، بدلاً من أن تجعلها إلها يعبد ، فأنقذت الانسان من الخرافة والذعر والرهبة من قوى الطبيعة .

(١) الانعام : (١٦٥) .

وأما الحياة على الارض فهي في نظر العقيـدة الاسلامية طريـق الى الحيـاة الأبدية والبقاء السرمدي الخالد الذي ينشده الانسان ، فما على الانسان في هذه الارض إلا أن يسير في الطريق المستقيم ، ويخضع لأمر الله ، ويخلص له حتى يضمن لنفسه الخلود الصحيح الذي ينشده « قل أذلك خـير أم جنـة الخلد التي وعـد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا • لهم فيهـا ما يشاؤون خالدين كان عـلى ربك وعداً مسؤولا[1] » •

وبذلك حملت العقيدة الاسلامية الانسان على العمل الصالح والانتفاع مـن هذا الكون على الوجه المشروع ، والارتقاء الى قمـة السعادة ، والسـير في طريق الايجابية ، وما أحوج الانسان الى ذلك •

٢ ـ العقيدة الاسلامية تحارب الأوهام والخرافات :

لقد كان الانسان القديم في بعض جقب التاريخ يؤله قوى الطبيعة ، ويدين لها بالعبودية ، ويقدم لها القرابين ، ليسلم من تسلطها وأذاها ، أو ليستدر عطفهاوخيرها•

لكن العقيدة الاسلامية حررته من هذه الخرافات عندما أفهمته أن ما يعـده إلها إن هو إلا خادم مخلص عندما يعرف الطريق الى استخدامه والاستفادة منه ، وبهذا ارتقى التفكير الانساني من مجال الخرافـة والاساطير ، الى التأمـل العلمي والمشاهدة الصحيحة والتجربة المنتجة ، ليصل بذلك الى ادراك الحقيقة ، وليحقق استخلاف الله له على الوجه الصحيح ، وما أحوج الانسان الى ذلك •

٣ ـ العقيدة الاسلامية تلبي الحاجات النفسية :

شعور الانسان بأن له إلهاً خالقاً أمر فطري كما نوهنا بذلك سابقا ، وتطلعه الى معرفته والاتصال به ومناجاته والالتجاء اليه ، حاجة نفسية • فاذا لم تلب له هذه الحاجة سعى هـو الى تلبيتها ، وكثـيرا ما يخطىء الطريق الى ذلك ، فالعقيـدة

---

(١) الفرقان : (١٥ ـ ١٦) •

الاسلامية لبت داعي الفطرة ، ودلت الانسان على خالقه وصانعه الذي بيده كل شيء : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[1] » فأخرجته بذلك من الانحراف والتخبط ، وما أحوج الانسان الى ذلك .

٤ ــ العقيدة الاسلامية تشعر الانسان بالمسؤولية :

كثير من الناس يقصرون في أعمالهم لشعورهم بأنهم غير مسؤولين عما يقومون به من أعمال ، فشعور الانسان بأنه مسؤول هو أعظم حافز للانسان الى أن يجيد عمله ويتقنه ، سيما اذا ضممنا الى ذلك شعوره بدوام المراقبة له . والعقيدة الاسلامية بما جاءت به من الايمان باليوم الآخر ، وما يقع فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء ، هي أكبر عامل على شعور الانسان بالمسؤولية أمام من لا تخفى عليه خافية في الارض ولا في السماء ، فيندفع بذلك الى أشرف وأنبل الاعمال .

٥ ــ العقيدة الاسلامية تنقذ الانسان من استعباد الانسان :

إذ إنها جعلت البشر جميعاً عباداً لله الواحد ، وهم مخلوقون له وحده ، فهم سواسية أمامه حاكمين ومحكومين ، والله رب العالمين .

٦ ــ العقيدة الاسلامية توضح الطريق الى السعادة :

فبدلاً من أن يضيع الانسان حياته في سبيل تلمس الطريق الموصل الى السعادة فيصل تارة ويخفق تارات ، جاءت العقيدة الاسلامية توفر عليه الجهد وتصونه من نتائج الاخفاق ، فأوضحت له الطريق الذي يسعده في دنياه وأخراه ، عن طريق الرسالة المحمدية الجامعة الكاملة ، فما عليه إلا أن يعمل بذلك ويغتنم فرصة حياته المحدودة فينفقها فيما يسعده ، وما أحوجه الى ذلك .

---

(١) الاعراف (٥٤) .

٧ ــ العقيدة الاسلامية اكبر عامل على التضحية :

إن العقيدة الاسلامية اذا ما حلت قلب امرىء غزت كل جوارحـــه ، وتملكت سائر مشاعره وأصبحت موجهه الوحيد ، فلا يحسّ بدونها ، ولا يرى حياته بغيرها ، فيندفع الى تأييدها ونشرها بكل ما أوتي مـــن نفس ومال ، وهذا ما نشاهـــده في حياتنا الواقعية ، فبالعقيدة يضحي الشهداء بأنفسهم ، وبها يسهر العلماء على كتبهم وتآليفهم راضين بشظف العيش ، وخشونة المآكل ، وبها يجود الانسان بماله راضية بذلك نفسه . قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهـــم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيـــل والقرآن ، ومن وأفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هـــو الفوز العظيم[1] » « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون[2] » « يا أيها الذيـــن آمنـــوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عـــدن ذلك الفوز العظيـــم[3] » .

هذا ولا بد من الاشارة هنا الى أمرين اثنين :

أحدهما : أن العقيدة الاسلامية لما لها من أهمية في حيـــاة الانسان ، وآثـــار عظيمة في سلوكه مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنـــة ، والقرآن ينزل عليه لغرس العقيدة وتوضيحها ، ومحاربة الأوهام والشرك والخرافـــات التي كانت سائدة بين العرب ، فان الانسان ما لم تصلح أفكاره ومعتقداته لا يمكن أن يســـير في الطريق الذي رسم له أن يسير فيه ، فالانسان يقاد من داخله لا من خارجه .

---

(١) التوبة : (١١١) .
(٢) الحجرات : (١٥) .
(٣) الصف : (١٠ ــ ١٢) .

ثانيهما : أن العقيدة في كل أمـــة تشكل المنطق الفلسفي الـــذي تنبثق عنـــه حضارتها ونظامها الاجتماعي ، وبمقدار ما تكون عقيدتها صحيحة يكون تقـــدمها وانسانيتها وسعادة المجتمع البشري بها ، ومن هنا نرى أن الأمة الاسلامية استطاعت بفضل عقيدتها الصالحة ، أن تصنع وبمدى قصير من الزمن ، أعظم حضارة انسانية عرفها التاريخ ، مما لا تزال البشرية الى الآن تنعم بالمبادىء والقيم التي نادى الاسلام بها ، وإن كان الاسلام قد انحسر ظله كسلطان سياسي ونظـــام اجتماعي في معظـــم بقـــاع الارض .

والحمد لله أولاً وآخراً .

الفهرس

رقم الصفحة	عنوان البحث
٣	المقدمـــة
٩	**القسم الاول : المدخل والمبادىء العامة :**
١١ ــ ٢١	**آ ــ تعريفات ومصطلحات :** الايمـــان ، العقيـــدة ، اصول الدين ، الفقه الاكبر ، علم التوحيد
٢١ ــ ٤٥	**ب ــ العقيدة ونشأة علم التوحيد**
٤٥	**جـ ــ مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية :**
٤٧ ــ ٧٣	**د ــ منهج المعرفة عند المسلمين مقارناً بالمناهج الاخرى**
٧٤ ــ ٨٣	**هـ ــ دراسة العقيدة الاسلامية :** طريقة القرآن الكريم ، طريقـــة المتكلمـــين
٨٥	**القسم الثاني : الله والكون والانسان**
٨٧ ــ ١٣٥	**في الإلهيات : صفات الله تعالى :** أولا ــ الصفة النفسيـــة : الوجـــود وأدلته . ثانيا ــ الصفات السلبية : الوحدانية ، القدم ، البقاء ، المخالفة للحوادث ، القيام بالنفس . ثالثـــا : صفات المعـــاني : الحياة ، العلم ، الارادة ، القدرة ، السمع ، البصر ، الكلام . رابعا : الصفات المعنوية .
١٥٣ ــ ١٦٧	**في الكونيات :** خلق الكائنات في ستة أيام ، تسخير الكون للانســـان ، نهاية الكون ، قانون السببية في الكون
١٦٨ ــ ١٩٣	**في الانسان :** تمهيد ، بدء خلق الانسان ، الانسان على هذه الخلقـــة منذ وجد . نظرية التطور (النشوء والارتقاء) ، تكليف الانسان ومسؤوليته ، هل الانسان افضل من الملائكة ؟ استخلاف الانسان في الارض ، تكليف الانسان ، نهاية لانسان ، القضـــاء والقـــدر وحرية لانسان ،
١٩٥	**القسم الثالث :** النبوة والوحي
١٩٧ ــ ٢٠٢	معنى النبوة والرسالة ، وحاجة الانسان الى الرسل
٢٠٣ ــ ٢١٠	طبيعة الوحي وأنواعه

رقم الصفحة	عنوان البحث
٢١٠ ـ ٢٢٤	صفات الرسل والانبياء وعصمتهم
٢٢٤ ـ ٢٤٨	المعجزة : حقيقتها ، والحكمة منها ، ونماذج منها ، وحكم الايمان بها ، وشروطها ، وموقف العلم منها
٢٤٨ ـ ٢٦٣	نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ومكانتها من النبوات السابقة
٢٦٣ ـ ٢٨٣	دلائل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام
٢٨٣	**القسم الرابع : الغيبيات**
٢٨٥	الايمان بالغيب والمعاد
٢٨٧ ـ ٣٠١	المبحث الاول : الملائكة عليهم السلام
٣٠٢ ـ ٣١٩	المبحث الثاني : الجن والشياطين والاعتقاد بوجودهم
٣٢٠ ـ ٣٨٢	المبحث الثالث : الحياة الآخرة وعوالمها ومسؤولية الانسان امام الله ، واشراط الساعة وما يتعلق بذلك ، والحساب ، والصراط ، والجنة والنار .. الخ
٣٨٤ ـ ٣٩٧	خاتمة : نظرة شاملة في خصائص العقيدة الاسلامية ومستقبلها .

* * *



صدر بإشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب ١٢٥ ل.س

مطبعة جامعة دمشق